مقدمة فى

علم الإجتماع

إعداد

الأستاذ الدكتور / محمد قطب سليم

أستاذ علم الإجتماع م .

كلية الآداب – جامعة طنطا

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا

بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ

صدق الله العظيم

مقـــدمة :

منذ أزمان بعيدة والإنسان دائب السعى والتفكير لفهم طبيعة المجتمعات البشرية ، غير أن محاولاته تلك إتسمت فى مهـدها بالنزعة الفلسفية تارة على يد المفكرين والفلاسفة ، وبالنزعـة العلمية تارة أخرى على يد المصلحين الذين إهتمـوا بمواجهـة مشاكل الإنسان بصورة مباشرة، وذلك ما نلمسه فـى تـاريخ الفكر الإجتماعى ، ورغم أن هذه المحاولات كانت تفتقد إلـى التفكير العلمى إلاّ أنها ساعدت على نمو التفكير العلمى ومهدت له حتى أصبح تناول الإنسان للمجتمعات البشرية والتفكير فـى شئونها مرتكزاً على أسس علمية سليمة ، ولكـن لـم يتحقـق للإنسان ذلك إلاّ فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر ، وذلك بعد أن أصبح للمجتمع وظواهره علماً مسـتقلاً أطلـق عليـه "أوجست كونت " " علم الإجتماع " ، وهو العـلم الذى أسـماه "ابن خلدون " فى القرن الرابع عشر " علم العمران " .

ورغم التقدم النظرى والمنهجى الذى حققه علم الإجتمـاع فى عملية البحث والتفسير لطبيعة المجتمـع البشـرى ، إلاّ أن الإنسان مازال فى حاجة لمزيد من الجهد لبلوغ أهدافه الراميـة لإبتكار الوسائل العلمية التى تساعد وتيسر عليه سـبل الفهـم والمعرفة لعالمنا الذى يزداد تعقيداً يوماً بعد يوم[1] .

وقد أصبح علم الإجتماع اليوم أحد العلوم الإجتماعية التى لا غنى عنها لدراسة الخصائص العامة لكل أنـواع الظـواهر الإجتماعية ، بالإضافة إلى دراسة العلاقات التى تربط بين هذه الظواهر .

ويشبه علم الإجتماع فى أهميته بالنسبة للعلوم الإجتماعية ، أهمية الرياضيات بالنسبة للعلوم الطبيعية ، وحيـث أنـه مـن المستحيل دراسة علم الطبيعة مثلاً دون الالمام ببعض المعرفة عن الرياضيات ، كذلك لا يمكن دراسة علم الإقتصاد أو علـم السياسة مثلاً مع تجاهل علم الإجتماع .

وتزداد أهمية علم الإجتماع ، مع إستمرار عمليـة التغيـر الإجتماعي وزيادة سرعتها ، ومايترتب على ذلك من ظهـور مشكلات إجتماعية متعددة ، ومن ثم يتطلع المسئوولون إلى هذا العلم على أنه المسئول عن حل مشكلات المجتمع ، وأنه يوجه إهتمامه نحو الجانب التطبيقى ، ودراسة موضـوعات معينـة كالأسرة والتربية والجريمة ، أى أن علم الإجتماع مطالب فـى هذه المرحلة بأن يوجه إهتمامه نحو دراسة المشكلات التى تهم المجتمع ، ومحاولة إقتراح الحلول اللازمة للقضاء على هـذه المشكلات أو التخفيف من حدتها ، ومن ثم يصبح العلـم فـى خدمة المجتمع(٢) ، وأن علم الإجتماع حين يدرس المجتمـع لا يقف بعيداً عن مشاكله لأن كل مشكلة تمثـل موضـوعاً مـن موضوعاته الأساسية(٣) .

أن علم الإجتمع يحاول أن يمد بصره ليدرك لأبعاد السلوك الإجتماعي وأهدافه ووسائله ، فعن طريقه يستطيع الفـرد فـى المجتمع أن يكون على علم بما يجـرى فـى نطـاق الحيـاة الاجتماعية لأفراد آخرين أو فى جماعات أخرى ، أى أن علـم الاجتماع ينمى التكامل الاجتماعى ، وهو لذلك عنـوان وحـدة المجتمع ، بالإضافة إلى ذلك فإن علم الإجتماع يستطيع أن يقدم معاونه جوهرية فى تحديد الأهداف التى يمكن الاتفاق عليهـا ، ويمكنه أن يرسم الوسائل الناجمة لبلوغها ، ويظهر ذلك واضحاً من أن السياسات الإجتماعية فى مجتمع يتغير باستمرار لا يمكن أن تقوم على أساس من العادة أو العاطفة ، بل ينبغى توافر قدر كاف من المعرفة عن المجتمع الذى يرسم لـه خطـوط نمـوه الإقتصادي والإجتماعى(٤) .

وثمة عومل أدت إلى الإهتمـام بتدريس هـذا العلم الجديد (علم الإجتماع) ومن أهم هذه العوامل : دعوة بعض الأساتذة الأجانب لزيارة الجامعة المصرية والجامعة الأمريكية والتدريس بها ، وعودة بعض المبعثوين من الخارج الذين تخصصوا فـى

علم الإجتمـــاع ، كـــذلك إنتشـــار حركـــة ترجمـــة التـــراث السوسيولوجى الغربى إلى العربية . وإذا ما تعمقنا فى أعمـــاق التاريخ الإجتماعى والسياسى ، وجدنا أن الإهتمـــام بالإنســـان والمجتمع موجود منذ القدم إبتداء من عهد فلاسفة اليونان ومن بعدهم ، كذلك أدلى بعض المفكرين العرب بدلوهم فى مســـألة علاقة الإنسان بالمجتمع(٥) .

الفصل الأول

- ماهية علم الإجتماع .
- الفلسفة الإجتماعية .
- التاريخ .

ماهية علم الاجتماع :

اشتق أوجست كونت Comte كلمة Socioloqy أى علم الاجتماع عام ١٨٣٩ ، وكان ينوى تسمية العلم الجديد بالفيزياء الاجتماعية – Sociol.physics – لكنه تخلى عن هذه التسمية بعد أن نشر الباحث البلجيكى " أدولف كيتلية " دراسات احصائية عن المجتمع دعاها بالفيزياء الاجتماعية ، وهذه الكلمة "Sociology" مزيج غريب من اليونانية واللاتينية يصف شقاها – بمهارة – ما يسعى هذا العلم الجديد إلى تحقيقه وإنجازه ، فيشير مقطع "Logy" إلى الدراسة ذات المستوى الرفيع من حيث الدقة والتعمق ، أما مقطع "Socio" فانه يشير إلى المجتمع، ومن ثم فإن الكلمة مجتمعه تعنى – اشتقاقاً – دراسة المجتمع دراسة تتمتع بدرجة عالية من التعميم والتجديد ،

ولقد عرف المجتمع بطريقة مبدئية بأنه " بنى الانسان فى وجودهم الذى يقوم على الاعتماد المتبادل " وبالتالى أخذ هذا التعريف موضوعاً لدراسة علم الاجتماع[١] .

ومع ذلك فإنه على الرغم من أن بنى البشر فى اعتمادهم المتبادل يشكلون موضوع دراسة علم الاجتماع ، فإن نطاقه لا يسع كل نماذج هذا الاعتماد التى تهتم بها – بصورة ما – فروع أخرى من المعـرفة كالفلسـفة الاجتماعيـة ، والتاريخ والعـلوم

---

(١) نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها ترجمة محمود عودة وآخرون ، دار المعارف بمصر ١٩٧٠ ص ٥ .

الاجتماعية المحدودة[١] .

وعلم الاجتماع هو العلم الذى يدرس الظاهرات والعلاقات الاجتماعية للوصول إلى القوانين التى تفسرها ، وبعبارة أخرى يبحث علم الاجتماع فى المؤسسات الاجتماعية وتكوينها ونشوئها، ويهتم علم الاجتماع بدراسة النظم الانسانية والعقائد والتيارات الاجتماعية ، دراسة علمية واقعية بنفس الطريقة التى تدرسها بها العلوم الأخرى الظاهرات الإنسانية ، ولكنه — علم الاجتماع — يتميز عنها بأنه لا يقتصر بحثه للظاهرات الاجتماعية على ناحية معينة ، أو على سلوك معين ، بل أنه يدرسها دراسة أعم واشمل ببيان نشأتها وتطورها فى مختلف مراحلها ، وعلاقتها بما عداها من الظاهرات الاجتماعية الأخرى ، ولو أدى ذلك إلى دراسة النظام الاجتماعى بأسره ، وبذلك يستخلص " الحقائق الاجتماعية " ويحاول تفسيرها بقواعد وقوانين ثابتة[٢] .

فعندما يدرس عالم الاجتماع أى نسق اجتماعى كالنسق السياسى أو النسق الاقتصادى فإنه لا يدرسه فى زمان معين وفى مجتمع معين فحسب — كما يفعل عالم التاريخ — بل يدرسه فى مختلف أشكاله ليصل إلى تحديد صفات هذا النسق كظاهرة اجتماعية ، وعلم الاجتماع كعلم يعد من أحدث العلوم ، ولهذا فلقد استفاد من العــلوم الأخرى كالجغرافيا والتاريخ والاقتصاد وعــلم

---

(١) نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها — ترجمة محمود عودة وآخرون دار المعارف بمصر ١٩٧٠ ص ٧ .

(٢) محمد نبهان وآخرون - مرجع سابق ص ١٤٧ .

النفس وعلم السياسة وغير ذلك من علوم أخرى ، وافادها بنظرياته وتحليلاته وقوانينه .والانسان يميل بفطرته إلى الاجتماع بغيره من بنى جنسه ، وهو مضطر إلى ذلك الاجتماع اضطراراً، كما يقول " ابن خلدون " فى مقدمته المشهورة " إن قدره الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من الغذاء ... فلابد من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم " .

ويتولد عن اجتماع الناس علاقات تتطور مع الزمن وتأخذ أشكالاً محدودة تختلف من مجتمع لآخر ، فمثلا الأفراد فى المجتمع منهم القوى ومنهم الضعيف ، وقد يعتدى قويهم على ضعيفهم لأنه يريد أن يستأثر بأكبر قدر من المنافع فتتعارض رغبته مع رغبات الآخرين ، وينشب النزاع بينهم ، ويشعرون بالحاجة إلى وضع حد لهذا النزاع ، وتدعو الحاجة إلى قيام هيئة ذو سلطات تسوسهم وتوفق بينهم ، ومن هنا تنشأ " الحكومة " كضرورة لازمة لحياة الناس فى جماعة .

ثم إن اجتماع الناس مع بعضهم يحتم ظهور قواعد يسيرون على هداها ، وهذه القواعد تارة ما تكون مكتوبة فى قوانين وضعية ، وتارة تكون غير مكتوبة ترعاها الأعراف والعادات والتقاليد ، وهى سواء كانت مكتوبة أو غير مكتوبة هى ثمرة طبيعة الانسان للحياة الاجتماعية ، وقد يشعر الناس بحاجتهم إلى تبادل المنافع المادية لتيسير حاجاتهم الضرورية والكمالية فتظهر المنشآت الاقتصادية لتنظم الانتاج والتبادل والاستهلاك ، وتتعقد

الحياة وتزداد مطالبها فيظهر التخصص وتقسيم العمل وغيرهما من أوجه النشاط الاقتصادى كنتيجة طبيعية للحياة الاجتماعية ، كما قد يشعر الناس بحاجتهم إلى حفظ النوع فتنشأ الأسرة كظاهرة إجتماعية لها نظمها وقواعدها وتقاليدها من تنظم لمسائل الزواج والطلاق والإرث وغيرها .

وهكذا نجد أن هذه الظاهرات وغيرها من الظاهرات الاجتماعية الأخرى تتولد عن الحياة الجمعية وتؤدى إلى تنظيم العلاقات بين الأفراد ، بما يؤدى إلى تنوع دراسة الحياة الاجتماعية للانسان وما يميزها من تفاعل وعمليات وثقافة معينة ، وفى سبيل ذلك يدرس علم الإجتماع البناء الاجتماعى والتنظيم الاجتماعى فى حالة الثبات والاستقرار ، وفى حالة الدينامية والتغير ، محاولاً الكشف عن طبيعة العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والعوامل التى تؤدى إليها والاثار التى تنشأ عنها[١] .

" والبناء الاجتماعى نسيج من العلاقات التى تربط بين أعضاء مجتمع ما ، أو يتكون ذلك النسيج من العلاقات التى تربط بين الجماعات الاساسية فى مجتمع ما " .

ويذهب " كيسنبح " فى تعريفه للبناء الاجتماعى " يقصد بالبناء الاجتماعى النظم الاجتماعية التى عن طريقها تصل مجموعة من السكان إلى حالة التكامل والترابط ، وهى الحالة اللازمة لتكوين المجتمع " ويعرف " ايفـــانز بريتشارد " البنـــاء

---

(١) محمد نبهان – مرجع سابق ص ١٤٨ .

الاجتماعة بأنه " هو الجماعات الاجتماعية المستمرة فى الوجود لوقت كاف بحيث تستطيع الاحتفاظ بكيانها كجماعات رغم التغيرات التى تحدث للأفراد الذين يكونون تلك الجماعات "(١) .

ومن أهم خصائص البناء الاجتماعى أنه يتكون من أنماط العلاقات الاجتماعية ، وأن البناء الاجتماعى كل أو نسيج متشابك الاجزاء ، وأنه " البناء الاجتماعى " مستمر ومستقر ولكنه ليس جامدٍ وليس خالد(٢) .

ومن ثم هناك شبه اتفاق على أن علم الاجتماع هو " الدراسة العلمية للسوك الاجتماعى أو الفعل الاجتماعى الذى يقوم به البشر"، أو على أنه دراسة التجمعات الاجتماعية والجماعات فى إطار ما تعيش فيه من نظم ، ودراسة تلك النظم نفسها وكيف تنشأ، مع دراسة أسباب التغيرات التى تطرأ عليها ونتائج تلك التغيرات " .

ويمكن أن نميز بين ثلاث اتجاهات متميزة فى علم الاجتماع المعاصرة وتلك التى تأخذ مواقف محددة من المشكلات الاجتماعية ومن مهنة الخدمة الاجتماعية بصفة عامة :

---

(١) عاطف وصفى — الانثروبولوجيا الاجتماعية ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١ ص ٨٢ .

(٢) عاطف وصفى — الانثروبولوجيا الاجتماعية — دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١ ص ٨٢ ص ٨٨ .

الاتجاه الأول :

ويمكن تتبع الأصول الأولى لهذا الاتجاه الاكاديمى النظرى بشكل خاص مع الدعوة التى وجهها أوجست كونت لاستخدام منهج البحث العلمى الذى نجح فى العلوم الطبيعية فى دراسة العلوم الإنسانية ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن مهمة العلم يجب أن تقتصر على جمع الحقائق عن الظاهرة الاجتماعية ووصفها وصفاً محايداً مع ترك الحقائق أمام المصلحين الاجتماعيين للاستفادة منها فى وضع السياسة الاصلاحية العامة ، وبهذا يكون علم الاجتماع فى نظرهم علماً نظرياً خالصاً(١) .

أن علم الاجتماع قد ظهر نتيجة التغيرات البنيوية التى ترتبت على الثورات " الاجتماعية – الاقتصادية والسياسية " التى شهدتها أوروبا بوجه خاص إبان القرنين الثامن والتاسع عشر ...، وظل بمثابة محاولة لمواجهة المشكلات التى تمخضت عن هذه الصراعات .

وقد كشف الستار عن العلاقة بين الفلسفة المحافظة " الرمانسية " وبين ظهور علم الاجتماع " الاكاديمى " فى غرب أوروبا خلال القرن التاسع عشر ، وذلك فى مقابل فلسفة التنوير العقلانية النقدية التى تركز على الحركة والعقلانية والنقد الاجتماعى والذى يمثلها " جون لوك " ، و" منتسكيو " ، وغيرهم ، وقد

---

(١) أحمد كمال – مرجع سابق ص ١٥٥ .

انعكس الاتجاه الوضعي والرومانسي على اهتمام علم الاجتماع ببعض المقولات ومن أمثلتها :

١- أن المجتمع وحده عضويه له قوانينه التى تحكم تطوره ، كما أن المجتمع سابق فى وجوده على الأفراد وليس بوسعهم رفضـــه أو تغييره ، وهذا يعنى أن الأفراد يقـــوموا بأدوار مرسومة لهم سلفاً ، إذ أن التغير الأجتماعى المقصود سيؤدى إلى دمار المجتمع سريعاً .

٢- أن النظم الاجتماعية ذات وظائف ايجابية وتؤدى لتماسك المجتمع واهتزاز هذه النظم سيؤدى بدوره لمشكلات اجتماعية ونفسية خطيرة .

٣- لابد من التركيز على المكانة الاجتماعية والتدرج الاجتماعى " الهيراركى " للمحافظة على استقرار المجتمع وخلوده[١] .

الاتجاه الثانى : البؤريون :

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن المهمة الأساسية للعلوم الاجتماعية هى مساعدة الإنسان فى السيطرة على المجتمع ، وليس فقط مجرد جمع الحقائق عن الظواهر الاجتماعية ووصفها كما هى عليه ... ، واكتسب هذا الاتجاه أبعاداً جديدة مع تعقد المجتمعات ووضوح المشـــاكل الاجتماعية المترتبة على التصنيع

---

(١) ثروت اسحاق – مرجع سابق ص ٧٦ .

وبصفة خاصة مع الكساد الاقتصادى الذى اجتاح العالم فى الثلاثينيات ، فقد بدأ نوع من التشكك فى التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية ، ومن هنا جاء تركيز أصحاب هذا الاتجاه على احداث التغير الاجتماعى فى المجتمع ، وعلى بناء المجتمعات من جديد بما يحقق رفاهية المجتمعات ، وبمقتضى هذا المبدأ يجب على علم الاجتماع أن لا يقف موقفاً سلبياً أو حتى حيادياً ، وانما يأخذ موقفاً نقدياً لمساعدة المجتمع الانسانى للتخلص من كل ما علق به من متاعب وصعوبات ومشكلات[١] .

وقد أحس علماء الاجتماع بتخلف أساليب الفهم والتحليل السيوسيولوجى وعجزها عن تقديم صور متكاملة للحياة العصرية المتغيرة والصراعات الناتجة عنها ، وبالتالى عجزها عن الاسهام فى قضية التنمية ... ، ولقد أدى ذلك إلى غلبة الاتجاهات المعروفة بالاتجاهات الراديكالية ... ، كما شهدت الولايات المتحدة وأوربا الغربية اتجاهاً متزايداً لتقييم نظريات علم الاجتماع لا سيما النظرية الوظيفية حيث اعتبرت هذه النظرية مجرد تبرير ايديولوجى للنظام الرأسمالى[٢] .

وغنى عن القول أن علماء الاجتماع قد تقاعسوا – من وجهة نظر الاتجاهات الراديكالية – عن إجراء بحوث عن العمال

---

(١) أحمد كمال – مرجع سابق ص ١٥٦ ..

(٢) ثروت اسحاق – مرجع سابق ص ٧٨ .

والفقراء وغيرهم من الفئات المغبونة ، والتى تتعرض للمعاناة اليومية والسخرية والاضهاد والابتزاز[١] .

الاتجاه الثالث : علم الاجتماع التطبيقى :

مع ازدياد الطلب على علماء الاجتماع لشغل وظائف المستشارين لعدد كبير من المؤسسات الصناعية والعسكرية والاجتماعية ، ومع مطالبة المجتمع بوجود دور إيجابى فعال لعلماء الاجتماع فى مواجهة المشكلات الاجتماعية الحادة التى أخذت تجذب اهتمام قطاعات عريضة من السكان ابتداء من الخمسينات ، فقد قوى ذلك الاتجاه الذى يرى أن عالم الاجتماع لا يجب أن ينعزل فى برجه العاجى لبناء النظريات كما يتصور أصحاب الاتجاه الأول كما لا يجب أن يتولى مهمة السياسيين المتطلعين إلى التغيير فى نظام المجتمع ، وانمـــا يجب على عالم الاجتماع أن يستخدم أقصى مالديه من معرفة ، وبهذا يُسهم عالم الاجتماع فى تقدم المجتمع وتخفيف المشكلات الاجتماعية ، ومن هنا فإن أصحاب هذا الاتجاه هم أقرب الفئات الثلاثة إلى الاهتمام بالتعاون مع الخدمة الاجتماعية[٢] .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق ١٥٧ .

الفلسفة الاجتماعية

وهـى أقـدم بكثير من علم الاجتماع نمت نموا ملحوظا فى اليونان القديمة وتبلورت فى العصور الوسطى وأزدهرت فى القرن الثامن العشر ، عصر التنوير الذى سبق مباشرة علم الاجتماع وهناك من القضايا المتضمنة فى علم الاجتماع المعاصر ما يمكن تتبعها فى أعمال الفلاسفة الاجتماعيين القدامى[١] .

ومـع أن الفلسفة الاجتماعية وعلم الاجتماع يعدان بمثابة نوعين مختلفين من جهد العقل الانسانى المنطقى إلا أن الاختلاف بينهما يشبه بصفة عامة ذلك الاختلاف الذى يفصل بين العلم الأمبيريقى والفلسفة وهو : أختلاف ينصب أساسا على مستويات التجديد والمعالجة المنهجية فكلاهما يحاول أن يصف الواقع ويفسره ، وكلاهما يعتمد على ملاحظة الواقع والتعميم المشتق من هذه الملاحظات ، وعند هذا الحد ينتهى التشابه بين العلم الامبيريقى " الذى يضم علم الاجتماع " وبين الفلسفة التى تضم الفلسفة الاجتماعية . ففى العلم الامبيريقى تستمد العمليات المتصلة بميدان محدد من البحث من الواقع التى تم ملاحظتها فى هذا الميدان أو ميدان وثيق الصلة به[٢] . هذا إلى أن هذه التعميمات تستمد دون التسليم " سواء بالتأكيد أو النفى " بأى معرفة على مستوى عال من التجريد تتعلق بالواقع ككل وتشكل القضايا التى تكون أى علم أمبيريقى نسقا قائما بذاته ولا يسمح للقضية أن تلعب دورا فى هذا النسق إذا كانت تنطوى على معرفة غير أمبيريقية[٣] .

---

(١) نيقولا تيماشيف – مرجع سابق ص ٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٦ .
(٣) نيقولا تيماشيف – مرجع سابق ص ٦ .

وإذا تعمقنا تاريخ الحضارات القديمة ، فبأستطاعتنا الوقوف على صورة الحياة الاجتماعية وملامحها فى الشرق القديم وما تذخر به الآثار من تصوير لهذه الحياة ، وما كان يمارس من نظم وقواعد أخلاقية عملت على ضبط السلوك وتوجيهة كذلك الحال بالنسبة للحضارات الهندية والصينية القديمة حيث سادت فلسفات عالجت مختلف أمور الحياة الاجتماعية .

إلا أن التفكير المنظم فى الانسان والمجتمع بدأ فى فلسفات اليونان القديم منذ سقراط وتلامذته وحتى فلسفات العصور الوسطى وما بعدها [١] .

كما أن البذور الأساسية لهذا العلم بدأت تتخذ صورة قضايا علمية تقوم على المشاهدة والتحرى الدقيق للحقائق عندما بدأ العرب دراستهم لدى الرحالة والمفكرين المسلمين بالرغم من أن تسمية العلم أختلف مع ثبات مضمون موضوع العلم ومنهجه وما لحق هذا من تعديل أو اسهام أو إضافة فى التطبيق العلمى فى العصور الحديثة ، ولهذا من المناسب عرض أهم أسهامات مفكرى الغرب فى هذا الصدد وبيان مولد علم الاجتماع فى فرنسا وألمانيا وبريطانيا ، ومن ثم عرض بعض رواد العلم الذين كان لهم الأثر فى تطوير وصياغة الاتجاهات الفكرية والنظرية لعلم الاجتماع[٢] .

أما الفلسفة وهى تسعى أساسا إلى فهم الحقيقة فى كليتها ، فالفليسوف من خلال ملاحظة مجموعة متنوعة من الوقائع يشرع

---

(١) غريب سيد أحمد – تاريخ الفكر الاجتماعى – دار المعرفة الجامعية ١٩٩٦ ص ٢ .

(٢) غريب سيد أحمد – المرجع السابق ص ٣ .

فـى إقامة بعض المبادىء العامة والنهائية التى يحاول بواسطتها تفسير الحقيقة ككل ، ونحن هنا لا نسعى إلى الاجابة عن التساؤل الـذى يثار حول اشتقاق القضايا المتعلقة بالحقيقة الكلية ، فهناك اختلافات واضحة فى هذا الصدد بين المدارس الفلسفية المتعددة، ويستمد الفليسوف مسلمات وبديهات معينة من المبادىء العليا للحقيقة الكلية التى صاغها ، ثم يحاول بعد ذلك استخدامها فى إعادة تفسير الوضع الخاص لفئات الموضوعات التى يميزها فى الوقائع الملاحظة من خلاله ، أو من خلال الميادين المتصلة ذات المعرفة الامبيريقية ، ويفسر الفليسوف الاجتماعى المجتمع فى ضوء التفسيرات التى يعطيها للحقيقة الكلية ، لهذا فانه يستطيع أن يتحدث عن العلل الأولى والقيم النهائية والغايات القصوى بينما لا يستطيع عالم الاجتماع أن يفعل ذلك[١] .

كان الانسان ولا يزال يمعن نظرة وفكرة فى الطبيعة والكون المحيط بـه محاولاً فهم ظواهره ، وتفسير أحداثه ولقد واجهت الانسان منذ فجر التاريخ ظروفا متباينة أنتجت أنساقا فكرية بعضها ينزع إلى التأمل وبعضها الآخر ينحو نحو القدرية ، وبعضها الأخير تظهر فيه الموضوعية بدرجات تقل أو تكبر ولعل أهم هذه الظروف ظرفان : -

الأول : يتعلق بالظواهر الطبيعية ضمن مجال إختصاصنا ولكنه كأساس يعيننا فى عقد المقارنة بين قدرة الانسان على فهم الظواهر ومبلغ تقدمه فى تحليل الظواهر الاجتماعية :[٢] .

---

(١) نيقولا تيماشيف – مرجع سابق ص٧.

(٢) محمد على محمد – تاريخ علم الاجتماع – دار المعرفة الجامعية – ١٩٨١ ص ٢ .

ويرى كونت أن رسالة علم الاجتماع (كما سبق أن أشرنا) هي : دراسة جميع الظواهر الاجتماعية بنفس الروح التى تدرس بها الظواهر الفلكية أو الفيزيائية أو الكيميائية أو الفزيولوجية ، أى علــى أساس أنها تخضع لقوانين طبيعية ثابتة يمكن للبحث العلمى أن يكشف لنا عنها ، وقد أستطاعت جميع العلوم الأخرى بعد تطورها الطويل أن تتحول إلى علوم وضعيه ، أى تعتمد على الحقائق التى نلاحظها وليس على الأفكار المسبقة أو المعتقدات ، ولو أستطاع علم الاجتماع أن يبلغ هذا المستوى من التطور فسيكون بأمكانه أن يضع معلوماته موضوع التطبيق ، كمــا فعلت العلوم الأخــرى وتطبيق معلومات علم الاجتماع ، يعنى أن إعادة تنظيم المجتمع يمكن أن تبدأ وهكذا بدأ علم الاجتماع بخطه لعلم اجتماع العلم وعلم الاجتماع المعرفى ، أى بمحاولة لتحليل الواقع الثقافى للمجتمع الغربى[1] .

---

(١) محمــد الجوهــرى ، علــم الاجتماع – النظرية ، الموضوع ، المنهج ، دار المعرفة الجامعية .

التـــــاريخ

أن المـــؤرخ أو الاقتصـــادي أو السياسى عندما يعمل ويحلل موضـــوع دراســـته بطريقة تجعله يربط موضوع بحثه بالنظم أو القوى الموجودة فى المجتمع فانه يتحول إلى عالم إجتماع ، وهكذا فـــإن المـــؤرخ لا يقتنع بمجرد تسجيل حركات التاريخ والأحداث الماضـــية ولكـــنه يهـــتم بأن يوضح كيف ، ولماذا ؟ أخذت هذه الحـــركات إتجاها معينا في موقف معين ، هذا المؤرخ فى الحقيقة يفسر الأحداث تفسيراً سوسيولوجيا[١] .

إن المتعمق لتاريخ الفكر الاجتماعى يلحظ على الفور أن كل مفكـــر أو فليسوف كان يتأثر بالظروف المجتمعية التى عاش بها مـــن ناحـــية وبتجربته الشخصية من ناحية أخرى ، كما يلحظ أن الفكر الاجتماعى فى كل حقبة تاريخية كان يتخذ طريقين محددين، أولهمـــا : : فكـــر مـــثالى خيالى يوتوبى ، وثانيهما : فكر واقعى موضـــوعى وبيـــن هذيـــن الطريقين اتخذ كل فليسوف أو مفكر إجتماعى مساره محاولاً أثبات وجهة نظره ، ومؤكداً قضاياه سواء بالمنطق العقلى أو بالدليل الواقعى[٢] .

ويعد التاريخ علم آخر يسعى إلى فهم بنى البشر فى اعتمادهم المتبادل ولكنه يركز أساساً على الصيغ الماضية من هذا الاعتماد حتى أن المؤلف التاريخى ذى الطـــابع البيوجرافى

---

(١) محمد سعيد فرح – مرجع سابق ص ٣ .

(٢) غريب سيد أحمد تاريخ الفكر الاجتماعى ص٤ .

لا يفشل فى رواية قصة العلاقات بين بطلة والآخرين من الناس، فمـا هـو الفرق بين التاريخ وعلم الاجتماع ، وخاصة أن الأخير لايهتم بالحاضر فحسب بل إنه كذلك يهتم بالصيغ الماضية للتساند أو الاعتماد الانسانى المتبادل .

إن الـتفرقة بيـن علم الاجتماع والتاريخ ليست مهمة صعبة على المستوى النظرى ، فالتاريخ يدرس الماضى الانسانى بوصفه سياقاً من الأحداث والمواقف والعمليات الفردية الملموسة ويحاول المـؤرخ أن يعـيد بـناء الماضى مستخدماً كثير من التفصيلات الامبيريقـية كما حدثت ، مثال ذلك كيف أندلعت حرب الاسقلال الأمريكـية وكيف أشتعلت الثورة الفرنسية والثورة الاشتراكية فى روسيا ، وكيف وقعت هذه الأحداث وما هى العمليات الفردية التى تكونـت منها ثم لماذا حدثت ، إن هذه التساؤلات وأشباهها ستظل دائماً مركز اهتمام الانسانية[١] .

أن الحـدود بين هذين العلمين قد تختلف على مستوى الواقع، ذلـك أن المؤرخـون يسهمون فى اكتشاف الأنماط المتكررة فى الواقـع الاجتماعى ويأتى ذلك حينما تقودهم دراساتهم للتطورات الملموسـة ، وإلى محاولة فهم هذه التطورات فهماً سببياً ، فهناك أعمـال تاريخية تغزو مجال علم الاجتماع غزواً سافراً كمؤلف " أرنولـد توينـبى المسمى " دراسة التاريخ " ١٩٣٤ ، وفى نفس الوقت خرجت أعمال سوسيولوجية أسهمت أسهاماً عظيماً فى فهم الصـيغ الماضية للأعتماد الانسانى المتبادل ، مثل مؤلف ماكس فيـبر " الأخلاق البروتستانية وروح الرأسمالية " ، ومؤلف بيتريم سوروكين " الديناميات الاجتماعية والثقافية "[٢] .

---

(١) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ص ٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٨ .

أن هـناك نـوع مـن الـتداخل والتشابك بين التاريخ وعلم الاجتماع لكنه مفيد ومثمر بالنسبة لكل منهما[١] .

وقـد أدرك أوجسـت كونت إدراكاً واضحاً أن علم الاجتماع لـيس مجرد علم غائب على المسرح فحسب ، وأنه فى حاجة إلى من ينشئه ويهتم به ، ولكنه أدرك بنفس القدر من الوضوح أن هذا العلـم مـن أصعب العلوم التى أبدعها الانسان على الاطلاق وقد أنـتهى وضعه على قمة صرح العلوم البشرية جميعاً ، وقد صمم كونت خطة لهذا الصرح العظيم فى صورة هرم مدرج ، كل علم يمـثل أساساً لما يأتى فوقه ، وشرطاً ضرورياً لوجوده وتطوره ، وأسـاس ذلـك البناء الرياضات التى تسمح لنا بدراسة الجوانب المجردة لجميع الظواهر ، وتأتى بعدها الميكانيكا وخاصة ميكانيكا الاجرام السماوية " علم الفلك " ، يلى ذلك علوم الفيزياء والكيمياء والبيولوجـيا ، أمـا علم النفس فلم يعده كونت علم مستقل ولكنه أعتبره فرعاً من الفزيولوجيا " أو من البيولوجيا من ناحية وفرعاً من علم الاجتماع آخر العلوم وأعلاها من ناحية أخرى [٢] .

وهكذا بدأ علم الاجتماع بخطة لعلم اجتماع العلم وعلم اجتماع المعرفة ، أى بمحاولة لتحليل الواقع الثقافى للمجتمع الغربى حيث ربـط " كونـت " بوعـى وبوضوح بين تطور المعرفة العلمية وظروف المجتمع[١] .

---

(١) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ص ١٠ .

(٢) محمد الجواهرجى ، علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٦ .

الفصل الثانى

١ - موضوع الدراسة فى علم الإجتماع .

(أ) دراسة المجتمع .

(ب) دراسة النظم الإجتماعية .

(جـ) دراسة الأفعال والعلاقات الإجتماعية .

٢ - الظواهر الإجتماعية وإمكانية دراستها علمياً .

(أ) معوقات دراسة الظاهرة الإجتماعية .

(ب) مسألة العامل الرئيسى فى تفسير الظواهر الإجتماعية .

موضوع الدراسة فى علم الإجتماع

إهتم العلماء فى مختلف تطور هذا العلم بتحديد الموضوعات التى يسعى علم الإجتماع لدراستها وقد بلغ هذا الاهتمام من قبل علماء الإجتماع حداً جعلهم يعرفون علم الإجتماع بموضوعه ومن هذه الموضوعات :

١- دراسة المجتمع : نجد أن هناك كثير من علماء الإجتماع الذين جعلوا دراسة المجتمع هو الموضوع الأساسى فى علم الإجتماع ، حيث وضع " أوجست كونت " تعريفاً لعلم الإجتماع على أنه " دراسة المجتمع، كما عرف " هنرى جيد نجز" علم الإجتماع بأنه الدراسة العلمية للمجتمع ، كذلك يعرف علم الإجتماع بأنه "علم المجتمع" وبأنه " الدراسة الوصفية المقارنة التفسيرية للمجتمعات الإنسانية بحسب ما تشهده به مشاهدتها فى الزمان والمكان[٦] .

ويشير " ماكيفر" إلى أن المجتمع نسق مكون من العرف المنوع والاجراءات المرسومة ، ومن السلطة والمعونة المتبادلة، وفى كثير من المجتمعات والأقسام وشتى وجوه ضبط السلوك الإنسانى والحريات ، ويشير ذلك إلى أن هذا النسق يتسم بالتعقيد وأنه دائم التغير ، وبأنه نسيج من العلاقات الإجتماعية ، وبذلك فهو يعنى أن المجتمع بمثابة النمط المتغير للعلاقات الإجتماعية المتنوعة ، وأن هذا المجتمع يقوم على التشابه والاختلاف ، فوجود المشابهة التى تحقق الانتماء مسألة مهمة لقيام المجتمع ، إلا أنها ليست بالكافية لقيام المجتمع ، فلو كان جميع أفراد المجتمع متشابهين فسوف تتضاءل علاقاتهم الإجتماعية ، فى حين أن العلاقات التى تكمل فيها الأشياء المخالفة بعضها بعضاً ، ويحدث فيها التبادل ، وبذلك تحقق المخالفة التبادل والتكامل فى جميع أنماط العلاقات الإجتماعية ،

كما أن الارتباط بين المخالفة والمشابهة ، قـائم إذ أن تقسيم العمل في المجتمع هو تعاون قبل أن يكون إنقسام .

ويواصل " ماكيفر" و" بيدج " تحديدهما لمصطلح "المجتمع" بالتمييز بينه وبين مصطلح "المجتمع المحلي"، حيث يعرف مفهوم المجتمع المحلي بأنه جماعة من الناس تعمر مكاناً لأول مرة ويشترك أعضاؤها في الأحوال الأساسية للحياة المشتركة بالإضافة للاشتراك في الأحوال الخاصة ، وهذه الجماعة المحلية تحتوى على كل ما تحتاجه إليه ومستقلة عن غيرها ، ويربطهم معا نظام من القواعد العامة التي تنظم حياتهم ، وتحدد الصلات القائمة بينهم ، ومن ثم فإن الجماعة المحلية توجد في مجتمع أكبر ، ومن ثم فإن أسس قيام الجماعة المحلية وجود مساحة أو مكان تقوم عليه حياتها الإجتماعية المتميزة بدرجة من الترابط الإجتماعي، الذى تحدده عاطفة الجماعة ، ويمكن أن يكون المجتمع المحلي كبيراً ويمكن أن يكون صغيراً، أما بالنسبة للرابطة فهي ليست مجتمع محلي ، وإنما هي هيئة قائمة داخل المجتمع المحلي ، وتتمثل بذلك في الهيئة في النادي أو المحل التجاري ، في حين أن المجتمع يتمثل في القرية أو المدينة ... الخ ، وثمة إتجاهات أخرى أقامت تعريفها للمجتمع على أساس التميز بين المجتمع والحشد ، إلا أن " فرديناند تونيز" ، قد أقام تمييزه بين المجتمع والمجتمع المحلي على أساس الإرادة الشخصية حيث تنعدم في المجتمع المحلي ، وتظهر الادارة الشخصية في المجتمع ، وقد حاول البعض أن يبرز في تعريفه للمجتمع " الأساس النفسي أو العقلي " ، حيث يعرف " الوود " المجتمع بأنه أية جماعة من الأفراد تجمعهم روابط نفسية حيث تشير الروابط النفسية إلى التفاعل الذى عن طريقه يتم تبادل المنفعة والوحدة في المزاج والعقلية والتطلعات المشتركة(٧) .

٢- دراسة النظم الإجتماعية :

من الموضوعات الأساسية التى يهتم علم الإجتماع بدراستها النظم الإجتماعية الأساسية مثل النظام الأسرى - النظام الاقتصادى - النظام الدينى ، النظام التربوى - النظام الترفيهى ... الخ

ومما يؤكد أهمية دراسة النظم الإجتماعية كموضوع أساسى من موضوعات الدراسة فى علم الإجتماع ، كثرة التعريفات التى وضعها علماء الإجتماع لمفهوم النظام الاجتماعى ، بالاضافة إلى أن هناك العديد من العلماء يعرفون علم الاجتماع بأنه علم "دراسة النظم الإجتماعية " ، حيث ذهب إلى ذلك كل من " إميل دوركايم "وكوفلييه بأن علم الإجتماع هو علم دراسة " النظم الإجتماعية " .

وتعرف النظم الإجتماعية بأنها الأشكال المقررة لأساليب العمل أو السلوك فى الحياة الإجتماعية ، والنظم بذلك بمثابة الأوضاع التى يصطلح عليها المجتمع لتنظيم العلاقات القائمة بين أعضاءه ، بالنسبة لمختلف شئوون حياتهم (نظم الملكية والبيع والشراء ونظم الزواج ونظم التربية والتوظيف ونظم القضاء وغيرها من النظم التى تسود المجتمع ، وبذلك يضم المجتمع كإطار عام ، صور متنوعة من أشكال التفاعل[٨] .

٣- دراسة الأفعال والعلاقات الإجتماعية :

يشير طلعت إبراهيم لطفى فى مؤلفه مبادىء علم الإجتماع بأن دراسة الأفعال ، والعلاقات الإجتماعية تعد من أهم موضوعات الدراسة فى علم الإجتماع حيث يرى كثير من علماء الإجتماع أن دراسة الأفعال والعلاقات الإجتماعية هى الموضوع المتميز فى علم الإجتماع ، حيث يذهب "موريس جينزبرج" إلى أن علم الإجتماع هو " علم دراسة التفاعلات

والعلاقات الإنسانية ، ظروفها وآثارها " ويذهب " روبرت ماكيفر" و " تشارلز بيدج " إلى أن علم الإجتماع هو " العلم الذى يدور حول العلاقات الإجتماعية " كما عرفه " فير تشايلد " بأنه علم "دراسة الإنسان وبيئته الإنسانية فى علاقتهما بعضهما ببعض" ، كما عرفه " تيرنر" بأنه " الدراسة العلمية للعلاقات الإجتماعية بأشكالها البسيطة والمعقدة " كذلك أكد " بارنز" على أهمية العلاقات الاجتماعية كعنصر اساسى تتكون فيه الحياة الإجتماعية للإنسان ويرى أن علم الإجتماع هو الدراسة العلمية للسلوك الجماعى ، أى دراسة العلاقات بين الأفراد والعوامل التى تؤدى إليها ، وما ينشأ عنها من آثار ، على أساس أن كل فرد يتصل بغيره ويتفاعل معه[٩] .

أن العلاقات الإجتماعية لا تنشأ إلاّ على أساس من التفاعل المقصود ويشير ذلك إلى أن أفراد الجماعة يرتبطون بأشكال مختلفة من الفهم المشترك ، الذى يدور حول المصلحة المشتركة تتركز فى هدف أو فى عدد من الأهداف ، مثل إشباع بعض الحاجات الإنسانية أو إشباع رغبة أو عدد من الرغبات الحضارية ، وتختلف العلاقات التى تربط أفراد الجماعة من ناحية درجة التفاعل الذى يقوم بين أفرادها ، فمن الجماعات ما تتميز بالتفاعل العميق بين أفرادها ، ومنها ما يتميز بسطحية هذا التفاعل ، ويمكن أن نمثل الاختلاف هذا العمق إذا قارنا بين الأسرة كجماعة وبين الجماعة فى ناد من الأندية ، كما يختلف هذا العمق بين الأسرة فى المجتمع الريفى والأسرة فى المجتمع الحضرى ، هذا علاوة على إختلاف درجة التفاعل فى الجماعة الواحدة من وقت لآخر[١٠] .

وإذا ما تتبعنا التعريفات السابقة لوجدنا أنها تتسم بالبساطة والسطحية واختزلت موضوع الدراسة فى علم الاجتماع على النظم الاجتماعية أو الأفعال والعلاقات الإجتماعية ، إلاّ أن "إنكلز" قد جعل مجالات الإهتمام فى علم الإجتماع تتسع بحيث

تشمل جميع وجهات النظر السالفة الذكر ، ويذهب "إنكلز" بـأن علم الإجتماع يهتم بدراسة ثلاثة مزضزعات أساسـية متميـزة يمكن ترتيبها ترتيباً تنازلياً تبعاً للحجم ودرجة التعقيد على النحو التالى : المجتمعات ، والنظم ، والعلاقات الإجتماعية .

وإذا كان علم الإجتماع علم واسع ومركب يتضمن دراسة كافة الموضوعات المتميزة السالفة الذكر ، حيث لا يمكـن أن يعرف علم الإجتماع بعبارة قصيرة مختصرة ومن ثم فقد وضع " البرت ستيوارت " تعريفاً لعلم الإجتماع مطولاً يتمثل فـى أن علم الإجتماع هو " الدراسة العلمية للمجتمـع : للجماعـات ، والنظم ، والتنظيمات ، وللعلاقات الإجتماعيـة بـين أعضـاء المجتمعات " ومن ثم فإن هذا التعريف ، لا يحدد فقط موضوع الدراسة فى علم الإجتماع ، بل أنه يحدد أيضاً طريقة الدراسـة فى هذا العلم.

ووضع عالم الإجتمـاع الأمريكـى المعاصـر " بيتـريم سروكين" تعريفاً مطولاً لعلم الإجتمـاع علـى أنـه " دراسـة الخصائص العامة المشـتركة بـين جميـع أنـواع الظـواهر الإجتماعية والعلاقات بين هذه الأنواع ، وكذلك العلاقات بـين الظواهر الاجتماعية وغير الاجتماعية .

ويذكر " تيماشيف " أن هذا التعريف الـذى ذهـب إليـه "سوروكين " يبدو أنه مقبولاً من جانب علماء الاجتمـاع علـى إختلاف إتجاهاتهم . حتى من قبل أولئـك الـذين يعارضـون مضمون آرائه السوسيولوجية . إذ أن هذا التعريف يضع حدوداً للتمييز بين علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية . ويقدم – على المستوى النظرى – أفضل إجابة ممكنة عـن السـؤال الذى مؤادة : ما هو علم الإجتماع ؟ .

إلا أن " تيماشيف " يرى أن علم الاجتماع يهتم أيضاً – من الناحية التطبيقية بمجالات أخرى من الدراسة الاجتماعية لم تكن

من قبل موضوعا لأى علم من العلوم الاجتماعية مثل دراسة الأسرة – كما أنه يطبق تعميماته على مجالات الدراسة الإجتماعية التى كرست علوم إجتماعية معينة جهودها لوصفها وتصنيفها . ومقارنتها ، ومن ثم نجد علم الإجتماع يضم فروعا مثل علم الاجتماع السياسى ، وعلم الاجتماع الاقتصادى " .

وعلم الرغم من أن علماء الاجتماع . قد قاموا بتعريف علم الاجتماع بعبارات كثيرة ، مختصرة أو مطولة – إلا أننا نجد شبه أتفاق بين هؤلاء العلماء حول الموضوعات التى تشكل مجالات الاهتمام الرئيسية فى علم الاجتماع . وقد وضع "انكلز" A.Inkeles ، إطاراً عاماً لموضوع الدراسة فى علم الإجتماع على النحو التالى :–

(أ) التحليل السوسيولوجى :

ويتضمن دراسة الثقافة الإنسانسة والمجتمع . وتحديد المنظور " السوسيولوجى " وتحديد أبعاد المنهج العلمى فى الدراسة .

(ب) الوحدات الأساسية للحياة الإجتماعية :

وتتضمن الأفعال والعلاقات الإجتماعية ، والشخصية الإنسانية والجماعات ، والمجتمعات المحلية – والتنظيمات ، والسكان – المجتمع .

(جـ) النظم الإجتماعية الأساسية :

وتشمل نظام الأسرة والقرابة – والنظام الإقتصادى والنظام السياسى، والنظام الدينى – النظام التربوى ، والنظلم الترويحى، والنظام الجمالى .

(د) العمليات الإجتماعية الأساسية :

وتتضمن عمليات التباين التدرج ، والتعاون ، والتوافق ، والإتصال، التنشئة الإجتماعية ، والضبط الإجتماعى ، الأعراف الإجتماعية ، وتكامل الإجتماعى ، التغير الإجتماعى[١١] .

الظواهر الإجتماعية وإمكانية دراستها علمياً :

يعتبر مؤلف " دوركايم " بعنوان قواعد المنهج العلمى فى علم الإجتماع من أكثر مؤلفاته إهتماماً بالظاهرة الإجتماعية وخصائصها وأسس دراستها ، حيث عرف دوركايم الظاهرة الإجتماعية وخصائصها ، فيذهب دوركايم بأن الظاهرة الإجتماعية هى " كل درب من السلوك " ثابتاً كان أم غير ثابت، يمكن أن يباشر نوعاً من القهر الخارجى على الأفراد أو هى كل سلوك يعم فى المجتمع بأسرة ، وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصورة التى يتشكل بها فى الحالات الفردية .

وبذلك ذهب دوركايم إلى أن الظواهر الإجتماعية تنحصر فى ضروب من السلوك والتفكير التى يمكن تميزها عن غيرها بسمة خاصة تتمثل فى أن هذه الظواهر الإجتماعية تستطيع التأثير فى شعور الأفراد تأثيراً قهرياً . وهذه الخاصية بمثابة علامة خارجية يحددها دوركايم للاستعانة على معرفة الظواهر التى ينبغى على علم الإجتماع ملاحظتها عند دراسته للظاهرة الإجتماعية حتى لا يخلط بينها وبين الظواهر الأخرى . كما أن دوركايم نفسه قبل النقد الذى وجه لتعريفه هذا بأنه يشتمل على جميع خواص الظاهرة الإجتماعية . ، وإن كان يبرر تأكيده على هذه الخاصية الإجتماعية . وبالنسبة للنقد الذى وجه لتعريف دوركايم من حيث أن القهر – الإلزام – ليس بخاصية تقتصر على الظاهرة الإجتماعية . وإذ أن كل بيئة تمارس نوعاً من القهر على الكائنات التى تخضع لتأثيرها ، يرد دوركايم على هذا الأعتراض الذى وجه لتعريفه للظاهرة الإجتماعية. بما يشير إلى أن الإجتلاف بين نوعى القهر المشار إليهما هو نفس الإختلاف الذى يميز البيئة الإجتماعية والبيئة الطبيعية ، فالضغط الذي يقع من جسم على جسم آخر غير الضغط الذى تباشره جماعة على شعور أعضائها فهو بذلك ليس راجعاً لصلابة بعض المركبات المادية وإنما يرجع لنفوذ بعض

التصورات الإجتماعية التى ترتبط بالعقائد والتقاليد التى تسيطر علينا من الخارج على عكس التصورات النفسية التى تسيطر عليها من الداخل . وكلا التصورين يختلفان عن القهر المرتبط بصلابة المركبات المادية ويمكن التعرف على صور القهر التى تمارسها الظاهرة الإجتماعية فى المجتمع ، بما تباشره على أفراد المجتمع أو ما يمكن أن تمارسه عليهم بالجزاءات والعقوبات ، التى تحددها الأعراف والقوانين ، وبالمقاومة التى تعترض كل محاولة فردية للخروج على الظاهرة الإجتماعية كما يمكننا بسهولة أن نتحقق من وجود القهر عندما يعبر المجتمع تعبيراً خارجياً برد فعل مباشر كما هو الحال فيما يمس القانون الأخلاقى والعقائد ، والتقاليد . وحتى الأزياء . هذا بالاضافة لصورة القهر غير المباشر . والذى تمارسه علينا بعض النظم الإجتماعية فى المجتمع ، وبذلك يدلل دوركايم على وجود خصائص أخرى للظاهرة الإجتماعية التى تتمثل فى كونها خارجية ، وموضوعية أى أنها يمكن قياسها من خلال التجسيدات السلوكية لها فى الواقع ، كما أنها تتسم بخاصية العمومية وذلك لأنه ليس من الممكن أن يعم نوع من السلوك الخارجى بالنسبة لشعور الأفراد إلا بشرط أن يفرض نفسه عليهم . فالظواهر الإجتماعية توجد فى مختلف المجتمعات الإنسانية . وأنها تتصف بالتلقائية فهى لا تنشأ بافتعال أفراد معينين وإنما تنشأ بصورة تلقائية . وذلك ما يعبر عنه تاريخها ، فكونها تتسم بطابع التراكم عبر أجيال فهى تتصف بالتلقائية . أضف إلى ذلك خاصية النسبية التى تتسم بها الظاهرة الإجتماعية فرغم عموميتها فى مختلف نماذج المجتمعات البشرية . إلا أنها تظهر فى صور وأشكال متفاوتة بتفاوت البناء المورفولوجى فى تلك المجتمعات ، إذ أن لكل مجتمع تكوينه الخاص وأخلاقه ونظامه الإقتصادى وتلك أمور لا تناسب شعباً آخر سواه[١٢] .

ولكى يمكن الدراسة العلمية للظواهر الاجتماعية ، يجب أن يكون الباحث موضوعيا ، بمعنى أن لا يكون متحيزاً أو متعصباً فى ملاحظته للظواهر التى يقوم بدراستها . ويقصد بالموضوعية قدرة الباحث على رؤية العالم وتصور المجتمع بعيداً عن التأثير بخبرته المباشرة ، كما تعنى الموضوعية أن يكون موقف الباحث عند دراسته للظواهر الاجتماعية غير متاثر بحب او كراهية تجاه الظاهرة محل الدراسة وأن يحدد الباحث المفاهيم المستخدمة فى دراسته بدقة ووضوح . بالإضافة إلى أن الموضوعية تتطلب ألا يكون حكمنا عند دراستنا للمجتمعات الأخرى كما لو كانت مجتمعاتنا بقيمها الإجتماعية . فالقيم نسبية تختلف من مجتمع لآخر فى الزمان والمكان . كما أنها قابلة للتغير . ومن ثم يجب على الباحث فى دراسته للظاهرة الإجتماعية أن يقوم بملاحظة هذه الظواهر ووصفها وتفسيرها بحسب الزمان والمكان ، دون الحكم على موضوع الدراسة من وجهة نظره وقيم مجتمعه – بأنه حسن أو سيىء . وذلك حتى تقوم دراسته للظاهرة الإجتماعية على أساس موضوعى .

ويتضح مما سبق أن الموضوعية فى دراسة الظواهر الإجتماعية . تتطلب من الباحث أن يتجنب الوقوع فى هذه الظاهرة التى يطلق عليها التعصب السلالى وهو ميل الباحث نحو تقييم الثقافات الأخرى بمصطلحاتنا التى قد لا تتفق مع هذه الثقافات . وتتطلب الموضوعية درجة كبيرة من النسبية الثقافية التى تتجنب تقسيم الثقافات لمصطلحاتنا الخاصة[١٣] وذلك حتى يتجنب الباحث هذا التعصب السلالى الذى يجعله يرى ثقافة المجتمعات الأخرى على أنها تشغل مكانة أقل من المكانة التى تشغلها ثقافة مجتمعه[١٤] .

معوقات دراسة الظاهرة الإجتماعية :

وعلى الرغم من كل هذه الإجراءات التى سبق ذكرهـا - والتى يقوم بها الباحث من أجل تحرى الموضوعية فى دراسته للظواهر الإجتماعية ، فقد عارض فريق من العلماء والفلاسـفة فى القرن الماضى مبدأ تطبيق المـنهج العلمـى فـى دراسـة الظواهر الإجتماعية ، حيث ظلت الحقائق الإجتماعيـة بعيـدة لفترة طويلة عن البحث العلمى المنظم ، غير أن ذلك لم يمنـع الفلاسفة من تلمس وجوه الإصلاح للمجتمع حسـب معتقـداتهم ومبادئهم ، وهذا التفكير الإجتماعى كان ينبعث عن الرغبة فى علاج مشكلات المجتمع ، والذى كان ينصب على ايجاد خيـر الوسائل لتحقيق العدالة الإجتماعية[١٥] .

وتتجسد رؤية النعارضين لمبدأ تطبيق المنهج العلمى فـى دراسة الظواهر الإجتماعية وذلك بإتباع الأساليب العلمية بأنـه أمر لا يمكن تحقيقه لما بين ظواهر العلوم الطبيعية والإجتماعية من إختلافات جوهرية، وتتركز دعاوى هؤلاء المعارضين حول عدد من المسائل تتمثل فى :

١-تعقد المواقف الإجتماعية .

٢-إستحالة إجراء التجارب فى الدراسات الإجتماعية .

٣-تعذر الوصول إلى قوانين إجتماعية .

٤-بعد الظواهر الإجتماعية عن الموضوعية .

٥- عدم دقة المقاييس الاجتماعية .

ويرى هؤلاء المعترضين أن الباحث الإجتماعى يجد نفسه جزءاً من الظاهرة الإجتماعية التى يدرسها ، والتى قـد يجـد نفسه مهتماً بها إهتمـامـاً شخصـياً ، ممـا يجعـل الظـاهرة الإجتماعية تتاثر بقيم الباحث وإتجاهاته أو العقائد السائدة فـى

مجتمعه ، مما يؤدى إلى عدم نجاح العلوم الإجتماعية– ومن بينها علم الإجتماع – فى إعطائنا نتائج تماثل تلك التى قدمتها العلوم الطبيعية .

وفى مقابل هؤلاء العلماء الذين يشككون فى إمكانية الدراسة العلمية للظواهر الإجتماعية نجد أن هناك فريق آخر من العلماء الذين يرون أن علم الإجتماع عليه أن يحتذى نمط العلوم الطبيعية . ومن ثم يجب على علم الإجتماع أن يطور قدرته على إكتشاف القوانين والتنبؤ بالظواهر . ووضع هذه القوانين فى صيغة نظريات تماثل نظريات العلوم الطبيعية . وبذلك يستطيع علم الإجتماع أن يواجه متطلبات العلم وقد كان " أوجست كونت " منذ بداية نشأة علم الإجتماع يؤمن بأن الظواهر الإجتماعية يمكن أن تدرس بنفس الطريقة العلمية التى تدرس بها الظواهر الطبيعية ، مما جعله يرغب فى أن يطلق على هذا العلم الجديد الذي يدرس المجتمع اسم الفيزياء الإجتماعية " .

ويدلل بعض العلماء على علمية علم الإجتماع وإمكانية إستخدام المنهج أو الطريقة العلمية فى دراسة الظواهر الإجتماعية . بعدة أدلة منها : تزايد الأعتماد على الأسلوب الكمي والرياضيات فى البحث الإجتماعى . مما يجعل نتائجه صادقة وموضوعية . ويظهر هذا الموقف واضحاً فى كتابات أصحاب الأتجاه الرياضى فى علم الإجتماع الذين يرون أن القياس الكمى يعد ضرورياً . إذا آراد العلم أن يقدم وصفاً وتحليلا أكثر دقة للظواهر التى يدرسها . ومن العوامل التى أدت إلى هذا الأتجاه تزايد عدد العلماء الذين اقتفوا أثر المدرسة الوضعية.

ومما زاد من تدعيم الألتجاء إلى الرياضيات والأسلوب الكمى تعقد الحياة فى المجتمع الحديث وتعقد المواقف

الإجتماعية ، مما جعل من الصعب الأعتماد على طريقة الملاحظة فقط فى دراسة الظواهر الإجتماعية . ومن ثم كان لابد من الالتجاء إلى لغة الكم والاعتماد على الاحصائيات فى شتى اشكالها والأستفادة من التطور السريع الذى طرأ على تكنولوجيا الآلات الحاسبة ، كما هو الحال فى العلوم الطبيعية التى سبقت فى الأفادة منها أعظم فائدة ، وفى هذا الصدد ، ذهب " هربرت سيمون " إلى ان الرياضيات يمكنها التغلب على صعوبة دراسة الظواهر الإجتماعية المعقدة . فقد اصبحت الرياضيات هى اللغة السائدة فى العلوم الطبيعية ولا يرجع ذلك إلى أنها كمية فحسب . وإنما لأنها تسمح بإيجاد صيغة واضحة ودقيقة تعبر عن الظواهر المعقدة التى يتعذر تناولها بالأسلوب الكيفى ، وهذه الصفة التى تتميز بها الرياضيات وتجعلها متفوقة على اللغة العادية يمكن الأفادة منها فائدة كبيرة فى دراسة الظواهر الإجتماعية المعقدة التى تهتم بدراستها العلوم الإجتماعية .

وعلى الرغم من التقدم الذى حققه إستخدام الأسلوب الكمي والرياضيات فى دراسة الظواهر الإجتماعية إلا أن الإتجاه نحو استخدام مثل هذه الأساليب لم يسلم من النقد . ويذكر " تيماشيف " ان النقد الأساسى الذى يمكن أن يوجه إلى هذا الأتجاه يتمثل فى نقد تلك المسلمة التى تذهب إلى ان كل الظواهر الإجتماعية تمثل ميداناً يمكن أن يخضع للأساليب الرياضية التى تتميز بدرجة عالية من الصدق . فقد خضعت هذه المسلمة لهجوم عنيف من جانب كل من "سوروكين " و " دون مارتنديل " ويذهب " تيماشيف " إلى أن نقد المسلمة السالفة الذكر . لا يعنى أن استخدام الرياضيات فى الدراسات السوسيولوجية . يعد أمر غير مرغوب فيه . ويدلل على ذلك عن طريق الاستشهاد بميدانين من ميادين البحث العلمى هما . ميدان علم الإجرام وبحوث علم السكان . فكل من

هذين الميدانين يعتمد إعتماداً اساسياً على التحليلات الإحصائية والرياضية .

وأخيراً يجدر بنا أن نشير إلى انه على الرغم من هذه الاعتراضات التى آثارها بعض العلماء حول صعوبة إستخدام المنهج أو الطريقة فى دراسة الظواهر الإجتماعية . إلا أننا نعتقد أن ذلك ليس مستحيلا . ولا يشكك فى علمية علم الإجتماع التى يصعب دراستها حاليا باستخدام الأساليب العلمية، فقد يمكن دراستها فى المستقبل بفضل الجهود المتواصلة لعلماء الإجتماع ونتيجة أبتكارهم لمناهج وأدوات جديدة اكثر دقة تتفق مع طبيعية الظواهر الإجتماعية(١٥) .

مسألة العامل الرئيسى فى تفسير الظواهر الإجتماعية :

إن النقاش حول العامل الرئيسى فى تفسير الظاهرة الإجتماعية من أهم ما يميز علم الإجتماع فى القرن التاسع عشر ، فقد حاول علماء الإجتماع تحليل الحقيقة الإجتماعية إلى عوامل منفصلة فافقدها بذلك صفتها " الاجتماعية " التى تقوم على أنها حقيقة مركبة ، وتألفت المدارس الإجتماعية حول المناداة بأهمية أحد هذه العوامل ، فنشأت المدارس الجغرافية ، والبيولوجية ، والتكنولوجية – والسيكولوجية والروحية .

(أ) المدرسة الجغرافية فى علم الإجتماع ، ومن أنصار هذه المدرسة " راتزال " و " جان برون " ، " لوبلاى " ، وهذه المدرسة تحاول تفسير الحقيقة الإجتماعية بالرجوع إلى العوامل الطبيعية : كطبعية الأرض والقرب أوالبعد عن البحار . وثروة التربة وباطن الأرض وتأثير المناخ الخ .

وهى ترتب وتصف وسائل الحياة الإجتماعية بتقسيمها بحسب المناطق فهناك نماذج للحياة الإجتماعية فى البلاد الحارة. وأخرى فى البلاد الصحراوية وثالثة فى مناطق القطبية وهكذا .

وقد ثار ضد هذا المبدأ الخاطىء بعض علماء الجغرافيا البشرية فى العصر الحديث من أمثال " فيدال دلابلاشي " و"ديمانجون" . وأثبتوا على العكس أن العامل الجغرافى نفسه يخضع لتاثير الطاقة البشرية ويتغير تبعاً لأتجاه النشاط الجمعى.

<u>(ب) أما المدرسة البيولوجية</u> فقد تفرعت إلى :

<u>١- المدرسة العضوية</u> . وهى التى تقوم على تشبيه المجتمع بالكائن الحى ، وأول من فصل هذه النظرية " سبنسر" ثم جاء بعده من نسجوا على منواله " دى جريف " وشيفلى " و " فورمس " .

<u>٢- المدرسة الأنثروبولوجية العنصرية</u> . ويهتم انصارها بدراسة المميزات العنصرية للشعوب المختلفة ويخلقون من هذه الدراسة الأساس الهام الذى تقوم عليه الحياة الإجتماعية . وقد أتجه هذا الإتجاه بعض علماء الإجتماع فى ألمانيا أيام النازية . وذلك لخلق فكرة مثالية يبثونها فى الشباب عن تفوق العنصر الألمانى ، وما يترتب على هذا التفوق من ضرورة سيادته .

<u>٣- مدرسة أتباع داروين</u> . وكانت تحاول أن تنتهى من دراسة الحقائق الإجتماعية إلى فكرة واحدة . وهى فكرة الكفاح الغاشم من أجل الحياة . تلك الفكرة التى جعلت الأقوياء يسحقون الضعفاء ، وقسمت العالم إلى فئتين فئة الغزاة وفئة المستضعفين . وقد صادفت هذه الفكرة . كسابقتها رواجاً بين علماء الألمان الذين يعشقون القوة ، ومن هؤلاء "راتسنهوفر" و " أوبنهايمر" .

<u>(جـ) المدرسة الديموجرافية :</u>

وكانت الحقيقة الإجتماعية فى نظرها تقتصر على حركات السكان وكثافتهم ، ويعبر " مالتوس " أول باعث لهذه النظرية .

وهو عالم إقتصاد إنجليزى . ومن علماء القرن الثامن عشر . وآثار ضجة كبيرة حين قدم نظريته المشهورة فـــى السـكان . ومن دعاة هذه الفكرة فى العصر الحـــديث " كـــورادوجينى " الأستاذ بجامعة روما .

(د) المدرسة التكنولوجية :

أرادت هذه المدرسة أرجاع الظواهر الإجتماعية وتفسيرها عن طريق عامل واحد هو مجموعة الوســائل الفنيــة والآلات التى يستخدمها مجتمع معين فى تحقيق أوجه نشاطه المختلفــة ولا يهتم كثيراً بمعرفة الظروف الإجتماعية التى صاحبت نشأة هذه الوسائل وجعلتها تتجه وجهة معينة وأنصار هذه المدرســة كثيرون منهم نذكر عالم الإجتماعى الأمريكـــى. " أوجبـــرن " وعالم الأنثولوجية الفرنسى " لرواجوران" و " لويس ممفورد " الذى أكد فى كتابه " الوسائل الفنية والحضارة " ١٩٣٤، أهمية الوسائل الفنية والصناعية فى توجيه التاريخ والنظم الإجتماعية.

(هـــ) المدرسة السيكولوجية :

جعلت هذه المدرسة الظواهر النفسية أساساً للمجتمـــع -حيــث يهتم علم الإجتماع النفسى بدراسة البعد النفسى للحقيقة الإجتماعية ويهتم هذا الميدان بدراسة كيفية انفعال الفرد إزاء المجتمـــع الـــذى يعيش فيه ، ونريد أن نضيف هنا ملاحظتين مكملتين " الأولى " فيما يتعلق بعلم النفس الفردى وسيكولوجية ما بين العقول حيث نضيف إلى أسم "تارد" "وفرويـــد" والســـلوكيين مـــن أنصـــار واطسون مجموعة من علماء الأمريكـــان أمثـــال ، " وارد " "الوود " " وروس " .

والثانية : أنه إلى جانب المدارس السيكلوجية التى ترجـــع الحقيقة الإجتماعية إلى علم النفس الفردى . توجـــد مـــدارس أخرى تهتم بدراسة نفسية الجماعات . " جوستاف لوبـــون " أو

نفسية الشعوب " فرندت " والعيب الأساسى عند هذه المدارس هو الخلط وعدم تحديد المنهج ومفاهيم بعض المصطلحات فقد خلط " فرندت" مثلا بين " نفسية الشعوب وبين تاريخ الحضارة ".(١٦) .

ويذهب " جيد نجز" إلى أن الشعور بالنوع هو الركيزة الأساسية التى تقوم عليها طبيعة المجتمع ، وتتحد بها طبيعة العلاقات بين أعضاءه من الأفراد ، وهو بذلك يؤكد على أن المجتمع ما هو إلاّ حقيقة نفسية ، وأن العلاقات المتبادلة بين أعضاءه من الأفراد ذات طبيعة نفسية أيضا ، وذلك لأن كل فرد في المجتمع يدرك من خلال شعور متبادل نحو النوع ، وبصورة تلقائية مشاركة الأفراد من بنى جنسه لنفس مشاعره ، ويؤكد " ماكدوجال " على الغرائز الأساسية بأعتبارها مقومات النفس البشرية ، ودعامة الظواهر الإجتماعية التى ترتكز عليها فى نشأتها وطبيعتها وأدائها لوظيفتها ، ولذلك نجده يرجع الظواهر الإقتصادية إلى غريزة التملك والاقتناء ، وكثافة السكان ونمو المدن إلى غريزة التجمع والمقاتلة ، واتساع العمران وإنتشاره إلى غريزة التقليد والمحاكاة ، وبذلك يعطى للغرائز قوة وتأثير واضحا على الحياة الإجتماعية وظواهرها .

وبذلك نجد أن المدرسة النفسية تنطلق من المتغيرات النفسية بصورة أو بأخرى ، فى تفسيرها للظواهر الإجتماعية من حيث طبيعتها ونشأتها وتطورها ، وكذلك تأديتها لوظائفها ، وعلاقتها بغيرها من الظواهر الإجتماعية (١٧) .

(و) المدرسة العقلية والروحية :

وهذه المدرسة تضع فى المقام الأول دراسة المظاهر العقلية للمجتمع كالنظم والعقائد الدينية والأحكام الخلقية . وقد

كان " كونت " أول من شق الطريق فى هذا الأتجاه حين أعطى أهمية كبرى لتطور المجتمعات حسب أنتقالها من مرحلة التفكير اللاهوتى . إلى مرحلة التفكير الميتافيزيقى " إلى مرحلة التفكير الوضعى .

ويعد " سوروكين " أحد أتباع هذه المدرسة البارزين فى العصر الحديث . وهو يعتقد أن الحياة العقلية فى المجتمع تتنازعها أنواع ثلاثة من المعرفة . : المعرفة الصوفية التى تعتمد على الحدس والاستشفاف والمعرفة العقلية التى تعتمد على تحكيم العقل والاستنباط المنطقى . والمعرفة التجريبية – الحسية التى تعتمد على التجارب والمشاهدات الحسية – وهذه الأنواع الثلاثة يمتزج بعضها ببعض ولكن هذا لا يمنع من ظهور أحدها ظهوراً واضحاً حسب الظروف التى يمر بها المجتمع .

ولعلنا نستطيع أن نتبين وسط هذه المدارس التى يهتم كل منها بتحديد " عامل رئيسى " يؤثر فى حدوث الظواهر الإجتماعية وتطورها ، إتجاهين قد أستطاعا أن يتخلصا إلى حد ما من هذه الفكرة التى عرقلت الدراسة الإجتماعية ، وأن ينظر إلى الظواهر الإجتماعية نظرة تنم عن فهم لحقيقتها المركبة . وهذا الإتجاهان هما إتجاه "دوركايم وماركس" أما دوركايم فقد كرس مجهوداً كبيراً لأثبات ذاتيه الظاهرة الإجتماعية وعنى بتحديد خواصها التى تفصل بينها وبين الظواهر النفسية والظواهر البيولوجية وأكد كذلك أن الظواهر التى تنشأ فى المحيط الإجتماعى ككل أو كوحدة لا تستطيع تفسيرها إلا عن طريق الخواص الذاتية لهذه الوحدة. ومعنى ذلك أن الظواهر الإجتماعية . لا تفسرها إلا ظواهر إجتماعية أخرى . فقضى بذلك على النظريات الفاسدة التى سادت فى القرن التاسع عشر. وعلى كل محاولة لتفسير الحقائق الإجتماعية بالرجوع إلى حقائق أخرى تنتمى إلى علوم غير علم الإجتماع .

وقد إزدادت فكرة دوركايم وضوحاً عندما بدأ يميـز بـين المستويات المختلفة والتدرج الذى نسير فيه للتعمق فى دراسة الظاهرة الإجتماعية من جميع نواحيها .

فهناك أولاً القاعدة المورفولوجية التى يجب أن نبدأ بهـا ، ومعنى ذلك أنه يجب ، حين نقوم بدراسة أى نظام إجتماعى . أن نبدأ بدراسة الشكل الخارجى أو البيئة الطبيعية التى نشأ بها هذا النظام . ثم نتدرج بعد ذلك إلى دراسة سلوك الأفراد فـى المجتمع . وهذا السلوك يحدده العرف ، التقاليد ، ونتدرج بعـد ذلك لدراسة القيم المثل العليا . وهى تظهر فى العقائد والإنتاج الفكرى وإتجاهات الجماعة نحو تحقيق غايات معينة . وأخيراً نستطيع تحديد التيارات الحرة التى يسير فيها الضمير الجمعى.

ونسطيع أن نلخص طريقة دوركـايم بأنهـا تجمـع بـين "المورفولوجيا الإجتماعية " و " الفسيولوجيا الإجتماعية " وعلم النفس الإجتماعى . وهذه الفروع الثلاثة لعلم الإجتماع يتـداخل بعضها فى بعض ويتعاون كلاً منها مع الآخر مما يظهر فـى وضوح فساذ النظريات القائمة على العامل الرئيسـى ، وقـد ظهرت قيمة هذه الطريقة فى عدد من الدراسات الهامة التـى قامت بها المدرسة الإجتماعية الفرنسية نذكر منها . " الأشكال الأولية للحياة الدينية " لدوركايم – ونظرية السـحر ، ونظـام الهدايا الملزمة، " لمارسيل موسى " والأطر الإجتماعية للذاكرة " لموريس هالفاكس" ففى هذه الدراسة يظهر تأثير القيم الجمعية والإتجاهات التى يحددها الضمير الجمعى (١٨) .

أما النظرية الماركسية فقد كانت ترمى فى الحقيقـة إلـى تخطى النظريات القديمة التى كانت تعتمد على عامل رئيسـى واحد فى تفسيرها للظـاهرة الإجتماعيـة ، حيـث تعرضـت النظرية الماركسية للتفسير الخاطىء مرجعة " فردريك إنجلز " حيث لم يستطيع التعبير عما أراده "ماركس " عن ذاتيه الظاهرة وخواصها المركبة ووضعها تحت إسم المادية الإقتصـادية أو

المادية التاريخية ، وذلك حينما رأى البعض أنها تقوم على العامل الاقتصادى كعامل رئيسى ، وكما كان ينظر دوركايم للظاهرة الإجتماعية على أنها حقيقة لها صفاتها الذاتية ، كان ماركس ينظر إلى المجتمع على أنه كل لا يتجزأ تتداخل جميع عناصره ويؤثر كل منها فى الآخر ، وقد أجمل " مارسيل موسى " ما عبر عنه ماركس ودوركايم فى عبارة موجزة ، وهى أن " الظواهر الإجتماعية ظواهر كلية ، ومعنى ذلك أن المظاهر المختلفة للحياة الجمعية تفقد معناها إذا حاولنا دراسة كل منها على إنفصال .

وكل ما كان يعوز ماركس ودوركايم فى محاربة فكرة " العامل الرئيسى " هو إدخال مبدأ " النسبية " فى تقدير قيمة العناصر المختلفة للظاهرة الإجتماعية ، فالقاعدة المورفولوجية، والنظم الثابتة ، والرموز، والقيم الجمعية ، كل هذه تختلف العلاقة بينها وتختلف قيمتها بحسب نماذج المجتمعات ، فالمجتمعات ، كما نعرف فى حركة دائمة ، والظواهر الإجتماعية قوى ديناميكية .

ولا شك أن نظرية " العامل الرئيسى " تقضى على فكرة الحركة والتنوع فى الظواهر الإجتماعية ، وعلم الإجتماع الحديث إذ يحارب هذه النظرية ، يهتم بدراسة ذلك التنوع ، كما يهتم بدراسة العناصر المختلفة التى تتألف منها الظاهرة الإجتماعية ، وعلاقة كل من هذه العناصر بالمجموع ، ويبدأ عادة بالمظاهر السطحية أو الشكل الخارجى ثم يتدرج منها إلى دراسة النظم والعرف حتى يصل آخر الأمر إلى دراسة المعتقدات والآراء والقيم الجمعية .

<u>ويتمثل اهتمام علم الإجتماع الحديث فى :</u>

١- دراسة العلاقات الإجتماعية فى مظاهرها المختلفة ، وهى علاقات تقوم على التأثير المتبادل بين الإجتماعى والفردى ، وبين الذات والغير والمجموع .

٢-دراسة أنواع التجمعات المختلفة بسيطة كانت أو مركبة، ومعرفة مظاهر التعاون أو مظاهر الصراع فيما بينهما .

٣-دراسة التقاليد الجمعية ، ومعرفة مقدار ملاءمتها للتطور الإجتماعى العام .

٤-دراسة التأثيرات الفكرية ، ومعرفة تأثيرها على إتجاهات المجتمع وتحوله من حالة إلى حالة " - التغير الإجتماعى " - .

٥-الإفادة من الدراسة النظرية لحالة المجتمعات فى إستنباط التطبيقات العلمية ، وإذا كان علم الإجتماع فى بداية عهده قد عنى بفصل الناحية النظرية عن الناحية العملية، فما ذلك ، إلا لتيسير البحث وتحقيق المنهج العلمى ، أما الآن فإن علم الإجتماع لا يستطيع أن يقف مكتوف الأيدى أمام المشاكل المختلفة التى تنشأ فى العصر الحديث ، هذه المشاكل التى نجمت عن الهوة السحيقة بين التقدم الفنى والصناعى - والتكنولوجى - والتأخر فى إستنباط التنظيم الإجتماعى الذى يقوم على أسس سليمة تحقق العدالة والرفاهية للمجموع[١٩] .

وقد لخص الدكتور مصطفى الخشاب أسس الدراسة العلمية للظاهرة الإجتماعية فى الجوانب التالية : -

- ضرورة دراسة الظاهرة الإجتماعية باعتبارها أشياء ، مؤكداً أهمية دراستها بنفس لبطرف التى تدرس بها العلوم الطبيعية الوضعية لظواهرها .

- الشك فى صحة أى حكم حول الظاهرة الإجتماعية وعدم التسليم بصحة أى رأى حتى نصل إلى حقيقة الظاهرة عن طريق التناول الموضوعى لها سواء أكدت هذه الحقيقة الرأى السابق أو رفضه .

- وذلك يقضى بأن نتحرر من أى فكرة سابقة حول الظـاهرة الإجتماعية والاتجاه لدراستها .
- تخلص الباحث من تأثير مشاعره او تجاربه الشخصية عنـد دراسته للظاهرة الإجتماعية .
- أن يعتمد الباحث فى دراسته للظاهرة الإجتماعية على فكرتى التحليل التركيب أى أنه يحلل الظاهرة لعناصرها البسيطة ثم يتجه فى دراستها لإيجاد العلاقة والروابط بين تلك العناصر.
- أن تكون الغاية من البحث واضحة وجلية بما يعين الباحـث على تحديد موضوعه وأهدافه من دراسته للظاهرة .
- تماسك أجزاء البحث وترابطها وخلوها من التناقض وذلك ما يؤكد على أهمية الأستناد لأجراءات منهجية سليمة وملائمة لطبيعة الموضوع المطروح للدراسة .
- أستبعاد أى تعريفات لا تنتمى للبحـث ولا تخـدم دراسـتنا للظاهرة وفهمها .
- معرفة الأحكام والقوانين التى تصل إليها العلوم الإجتماعيـة الأخرى مثل السياسة – الأقتصاد – الأخلاق – الخ ، لأنهـا تفيد فى فهم الروابط القائمة بين مختلف النظم وتكشف عـن عوامل أستقرارها وتغيرها .
- تكامل الأجراءات المنهجية للدراسة مؤكداً عـدم الأقتصـار على منهج واحد . على أن تكـون الأجـراءات المنهجيـة المستخدمة مناسبة لطبيعة الموضوع الذى يتناوله الباحـث ، بالدراسة ، والهدف فى دراسته "[٢٠].

الفصل الثالث

١ – ميادين علم الإجتماع .

٢ – النظم الإجتماعية .

(أ) تعريف النظم الإجتماعية .

(ب) خصائص النظم الإجتماعية .

(جـ) أشكال النظم الإجتماعية .

(د) النظم الإجتماعية البارزة فى المجتمع .

ميادين علم الاجتماع

قسم عالم الاجتماع المعاصر " سروكين " علم الإجتماع إلى قسمين هما : علم الإجتماع العام ، وعلوم الإجتماع الخاصة ، ويرى أن علم الإجتماع العام هو العلم الذى يدرس الخصائص المشتركة بين الظواهر الإجتماعية والثقافية فى نواحيها الدينامية والبنائية ، ومن ثم ينقسم علم الاجتماع إلى قسمين : أولهما علم الإجتماع البنائى العام ، الذى يدرس بناء وتكوين الظواهر الإجتماعية والثقافية ، أما القسم الآخر ، فهو علم الإجتماع الدينامى العام الذى يدرس العمليات الإجتماعية المتكررة ، مثل التفاعل والتنشئة الإجتماعية والتوافق الإجتماعى وما إلى ذلك من العمليات الإجتماعية .

أما علوم الإجتماع الخاصة – أى ميادين الدراسة فى علم الإجتماع – فهي تقوم بنفس ما يقوم به علم الإجتماع العام ، إلاّ أن كل منهما يتناول دراسة مجموعة خاصة من الظواهر الإجتماعية الثقافية التى تم إختيارها لإجراء دراسة مركزة عليها، ذلك مثل دراسة السكان ، والمجتمع الحضرى والأسرة ، بالإضافة إلى علوم الإجتماع الخاصة التى بدأت تظهر حديثاً مثل علم الإجتماع الإقتصادى .

ويذكر " ميتشل " أن هذه الميادين المتخصصة التى ظهرت فى علم الإجتماع ، إنما نتجت عن نمو المعرفة والمزايا الواضحة التى تترتب على تقسيم العمل العلمى ، ومن ثم فقد ظهر فى علم الإجتماع كثير من الميادين المتخصصة التى تختلف من حيث قدمها وتاريخ نشأتها ، فهناك ميابن لها أصول قديمة مثل علم الإجتماع الأسرى وهناك فروع أخرى حديثة كعلم الإجتماع الصناعى ، الذى نشأ نتيجة لنمو علم الإجتماع ، وحاجة أصحاب العمل إلى إسهام العلوم الإجتماعية فى حل مشكلات العمل الصناعى(٢١) .

ونجد أن بعض ميادين الدراسة فى علم الإجتماع قد تخصصت فى دراسة أنماط معينة من المجتمعات والعلاقات الإجتماعية داخل هذه المجتمعات .

١ – علم الإجتماع النظرى :

يعرف " لستر وارد " علم الإجتماع النظرى بأنه الدراسة الموضوعية والعلمية غير المتحيزة للمجتمع من أجل المعرفة الخاصة والتقدم النظرى ، ولا يهتم علماء الإجتماع النظرى بالتطبيق العملى لحل مشكلات معينة أو حتى إتخاذ إجراءات التقدم الإجتماعى .

٢ – علم الإجتماع التطبيقى :

ويقصد به تطبيق المبادىء السيوسيولوجية لتحليل وفهم المواقف الإجتماعية أو أنساق العلاقات الإجتماعية .

٣ – علم الإجتماع الريفى :

يدرس المجتمعات المحلية الريفية فى المجتمعات الزراعية والصناعية ، وتؤكد هذه الدراسات أهمية الوصول إلى مبادىء إجتماعية هامة ، وتطبيق هذه المبادىء الهامة لحل مشكلات المجتمعات الريفية .

٤ – علم الإجتماع الحضرى :

فرع من علم الإجتماع يهدف إلى دراسة الحياة والتنظيمات الإجتماعية فى المدينة أو الحياة الريفية المترسبة فى الحياة الحضرية .

٦ – علم الإجتماع الصناعى :

يدرس التنظيمات السياسية وعلاقة هذه النظم بالأنظمة الإجتماعية ، ويهتم علم الإجتماع السياسى بالحركات السياسية والايديولوجيات المتباينة ، ويدرس الظواهر السياسية باعتبارها أجزاء هامة من بناء المجتمع والعمليات الإجتماعية ، وهذا ما يميز علم الاجتماع السياسى عن العلوم السياسية التقليدية .

٧- علم الإجتماع التاريخي :

يدرس المادة التاريخية للوصول إلى تعميمات سوسيولوجية ويتضمن المدخل التاريخي محاولة الكشف عن النزعات العامة فى تطور أو تغير المجتمعات أو الحضارات ، وقد يحاول هذا المدخا التاريخى إختبار فرض محدد عن السلوك الإجتماعى مستخدماً معلومات إستمدها من الماضى .

٨- علم الإجتماع التربوى :

مجال هام من مجالات علم الإجتماع يدرس النظم التربوية والتعليمية وعلاقة هذه النظم بالأنظمة الأخرى .

٩- علم الإجتماع الطبى :

ميدان هام من ميادين علم الإجتماع ، يدرس المظاهر الإجتماعية للمرض ، ويهتم بدراسة الاتجاهات نحو المرض وتوزيعات المرض فى مناطق معينة وعلاقة المرض بتنظيم المجتمع ، كما يدرس البناء التنظيمى للمستشفى والادوار الإجتماعية التى يؤديها الطبيب والممرضة .

١٠- علم الإجتماع المهنى :

يهتم بتطبيق مبادىء علم الإجتماع عند تحليل المهن والأعمال والحرف المختلفة ، ومن أهم دراسات علم الإجتماع المهنى دراسة أنماط الوظائف .

١١- علم الإجتماع الفنى :

يدرس تأثير المجتمع على الفن ، ودور الفن وتأثيره على المجتمع ، ويتضمن تحليل الفنون بأعتبارها أنظمة إجتماعية تحليل شبكة الادوار والمعايير الإجتماعية المتضمنة فى إبداع وتقييم واستخدام وانتشار الفن فى المجتمع(٢٢) .

١٢- علم الإجتماع النفسى :

هو ميدان من ميادين الدراسة فى علم الإجتماع ، يهتم بدراسة البعد النفسى للحقيقة الإجتماعية[٢٣] .

١٣- علم الإجتماع القانونى :

يهدف إلى دراسة النظم التشريعية فى إطار المفهومات الإجتماعية ، وتعد دراسة المعايير الإجتماعية وتحليل القوانين الإجتماعية موضوعين هامين فى علوم الإجتماع القانونى ، وكذلك يدرس الادوار الإجتماعية للمجرمين والمحامين والقضاه وكيفية إرتباط هذه الادوار بالبناء العام للمجتمع .

١٤- علم اجتماع الأدب :

ويهدف دراسة الأدب دراسة سوسيولوجية سواء لمعرفة رؤية الكاتب إزاء المجتمع ، أو لربط العمل الأدبى بالبناء الإجتماعى - إذ يساعدنا الأدب أن نتعلم شيئاً ما عن المجتمع إستناداً على أساس التحليل الإجتماعى المقارن ، كما تعكس الأعمال الأدبية التغيرات الإجتماعية التى طرأت على المجتمع ولكن من وجهة نظر الأديب .

١٥- علم الإجتماع الدينى :

ويتضمن التحليل الإجتماعى للأنظمة الدينية ودراسة الدين كظاهرة إجتماعية ، ويدرس الدين فى إطار التفاعل الإجتماعى كما يعطى إهتمام لدور القيادة الدينية ، والعلاقات بين الدين والتنشئة الإجتماعية[٢٤] .

١٦- علم الإجتماع الاقتصادى :

أحد فروع علم الإجتماع العام ، يطبق الأسس النظرية والمنهجية فى دراسة النشاطات والعمليات الاقتصادية المختلفة كالإنتاج ، والتوزيع ، والتبادل ، والاستهلاك[٢٥] .

١٧- علم الاجتماع العائلى .

١٨- علم اجتماع العمل (اجتماعيات العمل) .

١٩- علم اجتماع التنظيم .

٢٠- علم اجتماع المعرفة .

٢١- علم الاجتماع اللغوى(٢٦) .

ويتضح مما سبق ، أن علم الإجتماع علم واسع مركب يقوم بدراسة الخصائص العامة لكل أنواع الظاهرة الإجتماعية ، بالإضافة إلى دراسة العلاقات المتبادلة بين. هذه الظواهر ، كما يتضح لنا أن علم الإجتماع يتضمن عدداً كبيراً من الميادين المتخصصة ، وعلى الرغم من وجود التداخل بين هذه الميادين المختلفة ، ألاّ أن لكل من هذه الميادين استقلاله النسبى ، كما أن هناك درجة من الاعتماد المتبادل بين هذه الميادين التى ترتبط فيما بينها فى إطار النظرية السوسيولوجية(٢٧) .

النظم الاجتماعية

إن النظام الإجماعى لا يخرج عن كونه نسقا يربط أجـزاء المجتمع بعضها ببعض ويربط تلك الأجزاء فى الوقـت نفسـة بالمجتمع بطريقة مقصودة تتمثل فى الوظـائف التـى تؤديهـا الأجزاء المتعددة نفسها والجمع الذى توجد فية ، وإن الجماعات لانخرج عن كونها تجمعات للكائنات البشرية يتجمع عن طريقها الناس فى تفاعل دائم ، ثم يتبلورهذا التفاعل فى طرق للعمـل تهدف إلى بقاء وإستمرار الجماعة .

وهذة الوظائف التى تؤديها الأجزاء المختلفة للمجتمع تتجه أساسا إلى إرضاء عدد من الدوافع الإنسانية ، نفسية وصحية ، فهى نفسية كتلك التى تدفعنا إلى الآمن والإسـتجابة.والتجربـة والخبرات الجديدة ، وجمية كتلك التـى تـدفعنا إلـى الطعـام والمأوى والنوع الأخر ، وعلى الرغم مما يلاحظ علـى هـذة الدوافع من قلة عددها ، الآن أنها تتميز مع ذلك بـأن وسـائل إرضائها متعددة ومتشعبة ، ويمكن أن نلمس ذلك فـى حاجـة الانسان إلى الطعام وحيث لايتمثل تحقيقها فى مجرد الحصـول علية ، وإنما تتمثل آيضا فى ظهور هـذة النمـاذج المتشـعبة للتصرف فى وسائل طهوة ومواعيد تناولة ،فى تلك المظـاهر الأقتصادية المعقدة التى تتعلق بإنتاجة وتوزيعة وإستهلاكة كمـا تشاهد فى المجتمعات الحديثة بنوع خاص . وكذلك الحال فيمـا يتعلق بإرضاء الدافع الجنسى ، وحيث نجد ذلـك يـدعو إلـى ظهور تلك النماذج المتعددة للتصرف ، والتى تتصل بالأسـرة والخطبة والزواج والطلاق ، والبغاء وغيرها من نظم ، ولقـد آتجهت كل حضارة إنسانية إلى وضع عدد لاحصر لـة مـن نماذج التصرف التى تتميز بأنها جمعية ومقننة ومعترف بهـا ، تتحقق عن طريقها الدوافع الآنسانية الأساسية بطريقة معتـرف بها أيضا ويوافق عليها المجتمع ، هذة النماذج المقننة هى مـا

أصطلح على تسمية بالنظم الأجتماعيـــة وتقـــوم هـــذة الـــنظم بوظائفها داخل التنظيم الأجتماعى (٢٨).

تعريف النظام الإجتماعى :

على الرغم من شيوع مصطلح "النظام الإجتمـــاعى" فـــى دراسات علمى الإجتماع والأنثروبولوجيا، إلا أن العلمـــاء لـــم يتفقوا بعد على تعريف واحد لهذا المصطلح . ومن ثـــم نجـــد أنفسنا أمام عدد هائل من التعريفات التى تتفاوت فى البســـاطة والتعقيد ، ونكتفى بالاشارة إلى بعض هـــذة التعريفـــات التـــى وضعت لمفهوم النظام الأجتماعى كي نتبين مـــدى الآتفـــاق أو الأختلاف بين العلماء حول هذا المفهوم .

يرى "ادوارد رويتر" أن النظام الإجتماعى هو ذلك النســـق من الممارسات والأدوار الإجتماعية التى تدور حول قيمة معينة أو مجموعة من القيم ، وتلك الآداة التى تنظم هذة الممارســـات وتشرف على تنفيذ قواعد التعامل .

كما يرى "موريس جنزبرج أن الـــنظم الإجتماعيـــة هـــى الأساليب الموضوعية والمعترف بها والتى تحكم العلاقات بـــين الأفراد أو الجماعات ".

ويعرف "روبرت ماكيفر" النظام الأجتماعى بأنة "الصـــور أو الأشكال الثابتة التى يدخل الناس بمقتضـــاها فـــى علاقـــات أجتماعية" .

كما يعرف وليام آوجبرن النظم الإجتماعية ، علـــى آنهـــا "الطرق التى ينشئها وينظمها المجتمع لتحقيق حاجات أنســـانية ضرورية " .

أما "البرت ستيوارد" فقد عرف النظام الإجتماعى بأنة "نمط منظم من السلوك والأفكار ، والعادات ، يصمم من أجل مقابلة أحتياجات أساسية معينة للمجتمع (٢٩) ."

أن معظم علماء الإجتماع قد أتفقوا علـــى تعريــف واحــد وأساسى للنظم الإجتماعية هى أنماط من العلاقات الإجتماعيــة يقبلها أعضاء الجماعة ، حيث يرى "مــوريس جينزبــرج" أن النظم الإجتماعية -كما سبق الاشارة - أســاليب متســلم بهــا ومعترف بها وراسخة تحكم العلاقات بين الأفراد والجماعات ، ومن ثم فالنظم الإجتماعية ليست مجرد تعبيرعما يحــدث فــى مجتمع معين ، فهى تعمل لتحديد ماينبغى أن يؤدى ، ومن ثــم فالنظم الإجتماعية تعد جزءاً من النظام المعيــارى للمجتمــع ، ولهذا تعتبر النظم الإجتماعية وسائل للضبط الإجتماعى (٣٠).

خصائص النظم الإجتماعية :

للنظم الإجتماعية عدد من الخصائص العامة البارزة والتى يمكن أن نجملها فيما يلى :

١- يتميز النظام الإحتماعى بأنة يقوم بوظيفتة كوحدة فى النسق الحضارى كل ، ذلك لأن النظام لايخرج عنة كونه تنظيماً لنماذج التفكير والتصرف ، التى تظهــر خــلال النشــاط الإجتماعى وما يتصل به من إنتاج مادى ، وهــو بالتــالى عبارة عن تجميع القواعد الإجتماعية السائدة فى المجتمــع والتى تتكون من العادات ، والتقاليــد والقــيم والصــفات الأخلاقية المنظمة بوعى أو بدون وعي كوحدة وظيفيــة ، وقد تنجح بعض هذه العناصر الحضارية فتتحول إلى نظام .بينما لاتنجح الآخرى فى أن تكون نظاماً ، فإذا ماحــدث ونجحت بعض العناصر الحضارية وتحولت إلى نظام آتجة آلى التوحيد بين آجزائة كما يتجة إلــى أن يكيــف نفســة كوحدة من وحدات النسق الحضارى ككل فى المجتمع الذى يوجد فية، كما يتجة فى الوقت نفسة إلى مساندة هذا النسق الكلى .

٢- يتميز النظام الإجتماعى بدرجة نســبية مــن الأســتقرار والدوام، فأنساق العقائد وطرق العمل وغيرهــا لاتصــبح

نظماً إلا بعد أن تصل إلى مرحلة القبول بصفة عامة خلال فترة مناسبة من الزمن ، ففي مجتمعنا مثلا نجد أن نظام الملكية الفردية أو نظام الزواج سواء أكان مونوجاميا أو بوليجينيا أو نظام سائد آخر لابد وقد مر بمرحلة طويلة الأمد مارسه الناس خلالها قبل أن يصبح نظاماً معترف به وموافقاً عليه . ويمكننا أن نقرر على هذا الأساس أن أى نظام لابد أن يكون قد مر قبل إقراره بفترة زمنية معينة يمكن أعتبارها فترة تمرين وتعويد على ممارسة النظام . وقد يستمر النظام قروناً طويلة كما هو الحال بالنسبة للنظم الدينية ونظم الزواج والملكية . وقد يندثر بعد فترة من الزمن – كما أندثر نظام الإقطاع الذى كان سائداً فى أوربا فى القرون الوسطى . أو نظام السخرة الذى كان موجوداً فى مصر حتى القرن التاسع عشر أو نظام الطوائف الحرفية الذى ظل معمولاً به فى مصر أيضاً حتى نهاية القرن التاسع عشر . ولكن على الرغم من أن أى نظام إجتماعى معرض للزوال إلا أنه على أى الحالات يميل دائماً إلى أن يوصف بثباته واستمراره نسبياً .

٣- يتميز أى نظام إجتماعى بأنه له هدفاً أو عدداً من الأهداف الواضحة ، إلا أن الهدف كثير ما يتعارض بمرور الزمن مع الوظيفة التى يؤديها النظام ، ويمكن أن نمثل لذلك بنظام الرق حيث كان يهدف فى أول أمره إلى الحصول على الأيدى العاملة الرخيصة ولكنه لم يعد يهدف إلى ذلك فيما بعد حين أصبح النظام مكلفاً من هذه الناحية . كذلك الحال أيضاً فيما يتعلق بالمذهب الإقتصادى الفردى المعروف بالمذهب الحر والذى كان يتخذ له الشعار المعروف : – أترك الطبيعة تعمل وأترك الأمور تسير ، وذلك حينما كان يهدف فى أول أمره إلى جودة الإنتاج نتيجة للمصلحة الشخصية التى يحققها الفرد من وراء ذلك،

إلا أن المذهب أتجه فيما بعد إلى القضاء على حرية أغلب الأفراد فى الربح لأنه أتاح الفرصة إلى التلاعب وظهور الأحتكارات القوية التى قضت على مصلحة الأفراد أنفسهم، مما سبق نرى أنه مما يميز النظم الإجتماعية تعرضها لأن تختلف وظيفتها مع الهدف أو الأهداف التى وجدت لتحقيقها .

٤- تتميز النظم الإجتماعية بجمودها نتيجة لما تتميز به من إستقرار ودوام لفترة طويلة من الزمن حتى لتكاد فى بعض الأحيان أن تتحول إلى ما يشبه الطقوس ، ولهذا الجمود أثره فيما تتميز به النظم الإجتماعية من صعوبة التغير ، حتى أنها تقف دائماً عقبة أمام هذا التغير ، سواء أكان يتجه بها إلى التقدم أو التأخر .

٥- تعتبر النظم الإجتماعية من عوامل التوافق بين الأجزاء المختلفة للحضارة ككل ، فهى تميل دائماً إلى التوحيد بين أجزاء النظام الإجتماعى الكلى وهى تتميز بذلك بأنها غير مستقلة عن بعضها ، وإنما على العكس من ذلك فهى ترتبط ببعضها فى نسق حضارى موحد ، وذلك حين نجد أن كل نظام فى النسق يميل إلى مساندة النظام الآخر ، فالخطبة مثلا تسبق الزواج وتسانده ، وهذا بدوره يسبق الأسرة ويساندها وبذلك نجد أن النظم الثلاثة ترتبط ببعضها وتعتمد على بعضها . علاوة على أننا نجد نظام الأسرة يرتبط بالنظم الأقتصادية السائدة فى المجتمع رعوية كانت أم زراعية أو صناعية ، والنظم الإجتماعية بذلك تتميز بأنها تعمل فى الوقت نفسه على الإستمرار الإجتماعى فى المجتمع[٣١] .

وسواء كانت النظم الإجتماعية موضوعه بطريقة تلقائية أو متعمدة ، فإنها تخضع لنوع من الاتفاق على وجودها ، وهذا

الاتفاق يجعلها ذات طبيعية موضوعية لأنها تخدم مصالح المجموع ولا تخضع لمصلحة فردية معينة .

وبذلك تتسم النظم الإجتماعية بالعمومية أى أنها توجد فى مختلف النماذج الإجتماعية للمجتمعات البشرية ، ورغم ذلك لا يمكن أن نغفل نسبيتها من حيث نمط تنظيمها ودرجة تعقيدها التى ترتبط بظروف المجتمع ومظاهر تطوره ، التى تنعكس على طابع النظم الإجتماعية ودرجة تعقيدها والأهداف التى تسعى لتحقيقها وبذلك فإن النظم الإجتماعية تخضع لعمليات تغير وحراك إجتماعى سواء بالنسبة لبنيتها ، أو بالنسبة للوظائف التى تؤديها ، والتى تتسع دائرتها باتساع دائرة الإحتياجات فى ظروف المجتمعات المعاصرة ، التى تزداد الحياة فيها تقيداً وتمارس ضغوطاً معينة على الإنسان وأسلوب معيشته ، ونظراً لظروف الحياة المعاصرة وتعقيدها وأتساع دائرة الإحتياجات فيها ، فإن النظام الإجتماعى الواحد يقوم بوظائف متعددة ، وذلك لأننا لو حصرنا دور النظام فى وظيفة واحدة تزايد عدد النظم بشكل غير عادى فى المجتمع نظراً لكثرة الأحتياجات فى المجتمعات المعاصرة . فكل هيئة من الهيئات الإجتماعية تقوم بالعديد من الوظائف المترابطة ومن ثم تصاغ نظمها بما يخدم هذه الوظائف ويساعد على تحقيقها . وذلك ما يضفى على النظم الإجتماعية فى المجتمعات المعاصرة طابع التعقيد ، ومع ذلك فإن هناك نظماً عامة لها أداء وظيفى متخصص وذلك مثل النظام السياسى والنظام الإقتصادى والنظام التربوى وما شابه ذلك ، أن هذه النظم ينحصر دورها فى أداء وظائف معينة ولكن بالنسبة للروابط والجماعات داخل المجتمع فإنها تصيغ نظمها بالصورة التى تغطى جوانب متعددة من مطالب الإنسان ولكن على نطاقات معينة ، فمثلا المؤسسة الدينية نجدها تقوم بوظائف أخلاقية وتربوية وخدمات إجتماعية وطبية بالأضافة لوظيفتها الدينية(٣٢).

وتجدر الإشارة إلى أنه عند دراسة النظم الإجتماعية الكبرى ، السياسية والاقتصادية والأسرية والدينية ، فإننا نهتم بجوانبها السوسيولوجية ... وتشمل الجوانب السوسيولوجية المسائل التى تكون موضوعاً للبحث العلمى ، وخاصة عندما تستخدم لأغراض المقارنة ، وبيان مدى تحقيقها للاشباع أو الأهداف التى قامت هذه النظم من أجلها ، كما أن علم الإجتماع لا يهتم بنظم خاصة فى مجتمع معين بل يهتم بشكل عام بالجوانب العامة نسبياً فى النظم الإجتماعية أينما وجدت(٣٣) .

أشكال النظم الإجتماعية :

أن موضوع تصنيف النظم الإجتماعية ، كان من أهم المشكلات الإجتماعية التى شغلت علماء الإجتماع والانثربولوجيا ، نظراً لأهمية هذا الموضوع بالنسبة لفهم البناء الإجتماعى ومكوناته ، بالإضافة إلى أن دراسة النظم الإجتماعية تمكننا من إجراء الدراسة المقارنة للمجتمعات المختلفة ، مما يؤدى إلى فهم المجتمع الإنسانى بأسره (٣٤) .

ويمكننا أن نميز بين الأشكال الآتية للنظم الإجتماعية :

١- نظم تلقائية . ونظم مقننة ، والأولى هى تلك التى نشأت دون قصد أو وعى إستجابة للقيم الخلقية السائدة . ويمكن أن نمثل لهذا النوع بنظم الزواج والدين والملكية وهى التى نشأت أصلاً لتنظيم نواح خلقية معينة . أما النظم المقننة فتتميز بأنها جاءت نتيجة تنظيم واع ومقصود لتحقيق أهداف معينة كنظم التعليم والصناعة . وأغلب النظم الإقتصادية كالإدخار والتأمين والمصارف.

٢- نظم أساسية ونظم مساعدة أو فرعية . والأولى هى التى نشأت لتحقيق الضبط فى المجتمع ، وفى مجتمعنا الذى نعيش فيه نجد من هذا النوع نظماً كالملكية الفردية والدولة والدين . وحيث لا يمكن للمجتمع أن يعيش

بدونها . وأما النظم المساعدة أو الفرعية فتقل أهميتها للمجتمع كثيراً عن الأولى كالنظم الترفيهية بأنواعها ، ويتوقف أعتبار النظام أساسياً أو فرعياً على الحضارة السائدة والتى هو جزء منها ، فما هو ضرورى فى حضارة معينة قد لا يكون كذلك فى حضارة أخرى فالنظم التعليمية مثلاً تختلف أهميتها من مجتمع لآخر حتى فى وقتنا الحاضر . ونظام السيرك كانت له فى روما القديمة أهمية تختلف تماماً عن أهميته فى روما الحاضرة .

٣- نظم مشروعة ونظم غير مشروعة . فالنظم التى تتعلق بطرق العمل المختلفة صناعية وزراعية وتجارية تعتبر نظماً مشروعة ومتفقاً عليها . بينما تجد هناك نظماً تتميز بعدم شرعيتها كنظام البغاء ، وكذلك الحال فى نظم كالتهريب والرشوة والقمار ، وتتميز أغلبية النظم فى المجتمعات الموفقة فى أداء وظيفتها بأنها مشروعة، وإن كان أى مجتمع لا يخلو فى العادة من إنحرافات غير مشروعة تنبثق عن النظم المشروعة ، وتعتبر خروجاً على القيم الخلقية السائدة فى المجتمع . ويجب أن نميز هنا بين هذه القيم وبين القيم السائدة بين أجزاء النظام غير المشروع كتلك القيم التى تتعلق بشرف المهنة مثلاً عند طبقة اللصوص أو المهربين .

٤- نظم عامة الإنتشار ونظم محدودة الإنتشار ويمكننا أن نميز بين هذين النوعين بمدى إنتشار كل منهما بين أفراد المجتمع فالدين فى مجتمعنا مثلاً وفى أغلب المجتمعات الإنسانية . إن لم يكن كلها يعتبر نظاماً عاماً لارتفاع نسبة الأشخاص الذين يدخلون فى نطلقه ، بينما يعتبر نظام الكشافة نظاماً محدوداً .لا ينتسب إليه سوى فئة ضئيلة من السكان .

٥- نظم عاملة ونظم ضابطة ، وتتميز النظم العاملة بـأن وظيفتها الأساسية هى تنظيم نماذج التصرف التى تعتبر ممارستها ضرورية لتحقيق ما يسعى إليه النظـام مـن أهداف . بل لبقائه أيضاً ، كالنظم الصناعية مثلا ، بينما تتميز النظم الضابطة بأنها وجدت لضـبط عـدد مـن العادات ونماذج التصرف التى لا تعتبر فى حد ذاتهـا جزءاً من النظام نفسه كما هو الحال فى النظم القانونية وحيث لا تحتل الجرائم والمخالفات جزءاً مـن النظـام القانونى وذلك بعكس العمليات الصناعية التى تنظمهـا النظم الصناعية التى هى فى الوقت نفسه جـزء مـن النظام(٣٥).

❖ إن النظم الإجتماعية تخضع لعمليات تغير وحراك إجتماعى سواء بالنسبة لبنيتها أو بالنسبة للوظائف التى تؤديها ، والتى تتسع دائرتها باتسـاع دائـرة الاحتياجـات فـى ظـروف المجتمعات المعاصرة ، التى تزداد الحياة فيها تقيداً وتمارس ضغوطاً معينة على الإنسان وأسـلوب معيشـته ، ونظـراً لظروف الحياة المعاصرة وتعقيدها وإتساع دائرة الاحتياجات فيها فإن النظام الإجتماعى الواحد يقوم بوظائف متعـددة ، وذلك لأننا لو حصرنا دور النظام فى وظيفة واحدة تزايـد عدد النظم بشكل غير عادى فـى المجتمـع نظـراً لكثـرة الاحتياجات فى المجتمعات المعاصرة ، فكـل هيئـة مـن الهيئات الإجتماعية تقوم بالعديد من الوظائف المترابطـة ، ومن ثم تصاغ نظمها بما يخدم هذه الوظائف ويساعد علـى تحقيقها . وذلك ما يضفى علـى الـنظم الإجتماعيـة فـى المجتمعات المعاصرة طابع التعقيد ، ومع ذلك فـإن هنـاك نظماً عامة لها أداء وظيفى متخصص وذلك مثـل النظـام السياسى والنظام الإقتصادى والنظام التربوى وما شابه ذلك، إذ أن هذه النظم ينحصر دورها فى أداء وظائف معينة ولكن

على مستوى المجتمع بشكل عام ، إما بالنسبة للروابط والجماعة داخل المجتمع فإنها تصيغ نظمها بالصورة التي تغطي جوانب متعددة من مطالب الإنسان ولكن على نطاقات معينة ، فمثلا المؤسسة الدينية نجدها تقوم بوظائف أخلاقية وتربوية وخدمات إجتماعية وطبية بالإضافة لوظيفتها الدينية (٣٦) .

النظم الاجتماعية البارزة فى المجتمع :

تبدو أهمية أى نظام إجتماعى فى مدى ما يقوم به من نشاط والوظائف التى يؤديها ، ولقد وجد كل نظام ليؤدى وظيفة اساسية . فوجد النظام الزراعى لإنتاج الغذاء والملبس من الأرض . ووجدت الأسرة لتربية الصغار ، والدولة لتحكم ، والنظام الدينى للعبادة ، وعلى ذلك فالوظيفة الأساسية لأى نظام هى التى تحدده وتميزه وتبرز أهميته . ولما كانت رغبات الإنسان متعددة ونشاطه متنوعاً لتحقيق هذه الرغبات أصبح محتاجاً لعدد كبير من هذه النظم لكى يتمكن من تحقيق رغباته . ولكننا مع ذلك يمكننا أن نجمل النظم الإجتماعية الهامة فى حياة الإنسان فى النظم الأربعة الرئيسية الآتية ، وهى هنا مجرد نظم رئيسية نظراً لما ينبثق عنها من نظم فرعية كثيرة العدد فى العادة مثل ذلك العدد الكبير من النظم الذى يتفرع من النظام الإقتصادى مثلا .

والنظم الأربعة الرئيسية هى : —

١— النظم الإقتصادية . وحيث نجد أن كل مجتمع إنسانى فى حاجة إلى نظم إقتصادية لسد حاجة أفراده التشابكة والتى لا يمكن أن تتحقق إلا عن طريق هذه النظم ، فإنتاج السلع والمواد المختلفة التى يحتاج إليها أفراد الجماعة ركن هام فى النظام الإقتصادى . إلا أنه ليس أهم الأركان ، إذا أن إستخدام فنون الصناعة فى زيادة الإنتاج لا يعنى وحده بإقامة إقتصاد المجتمع . بل لا بد أيضاً من أعتبار لتوزيع الإنتاج توزيعاً منظماً عادلاً بين أفراد الجماعة . وتتمثل

النظم الإقتصادية فى المجتمع الحديث ، فيما وضعه المجتمع لنفسه من نظم صناعية ، وزراعية ، ومالية ، وتجارية ، متنوعة تقوم على سد إحتياجات الإنسان من هذه النواحى . وكانت هذه النظم فى الأزمنة القديمة محدودة إلى درجة كبيرة ، بل كان أغلبها يتركز فى الأسرة ، والنظام الإقتصادى من أهم النظم التى تشكل المجتمعات الحديثة ، وأصبح النظام بذلك مجالاً لتدخل الدول ورقابتها لحماية مصالح الناس وحقوقهم ، وبخاصة فيما يتعلق بعدالة التوزيع وعدم الاستغلال والملكية والتعاقد (٣٧) .

ويهتم علماء الإجتماع بالكشف على المتغيرات السوسيولوجية المرتبطة بالعمليات الاقتصادية الثلاث : الإنتاج والتوزيع والاستهلاك ، إذ أننا لا نستطيع أن ننكر الاتصال الوثيق بين الأهداف الاقتصادية والأهداف الإجتماعية فى المجتمع ، مما جعل علماء الإجتماع يهتمون بدراسة الجانب الاقتصادى للحياة الاجتماعية ، حيث أن هناك قدر من التساند بين المتغيرات الإقتصادية والسوسيولوجية (٣٨) .

٢- النظم الإجتماعية التى تتركز حول تنظيم العلاقات الجنسية ، وهى نظم قديمة مارستها كل المجتمعات الإنسانية لما لتنظيم هذه العلاقة من أهمية كبرى فى الجماعات قديماً وحديثاً بدائية ومتحضرة ، وأظهر هذه النظم نظم الأسرة والزواج والتي تختلف فى تفصيلاتها من مجتمع لآخر ومن وقت لآخر .

٣- النظم الدينية : وتتركز حول العقيدة وتبدو أهمية هذه النظم فى تنظيم الظواهر التى تتعلق بالعبادة والسحر وطقوس الميلاد ، والموت والزواج والحروب ، والنظم الدينية موجودة فى كل المجتمعات الإنسانية لأنها تسد حاجات إجتماعية هامة .

فالدين يدفع الأفراد إلى تغليب مصـــلحة الجماعـــة علـــى مصلحة الفرد . كما يساعد على تكامل شخصـــية الفـــرد وتقوية روحة المعنوية ، فيدفع عنه الخوف ويحـــي فيـــه الأمل بما يبثة فيه من قوى خارقة تتمثل فى قوة الإله الذى يقدر على مساعدته ، وللنظم الدينية دور هام فـــى تكامـــل المجتمع عن طريق شعائره التى تؤدى وظيفـــة العاطفـــة الجماعية المشتركة ، والتى تـــذكر الفـــرد وهـــو غـــارق فىحياتة المادية بولائة لجماعتة ولقيمها العليا.

٤- النظم الإجتماعية التى تعمل للصالح العام للمجموع ، وهذة تتمثل فى الوقت الحاضر فى الدولة وحيث نجدها مسـئولة عن تأمين المجموع ضد العدوان الخارجي والداخلى كمـــا تعمل على نشر العدالة بين الناس وحماية الضـــعيف مـــن القوى ، ومعاقبة كل من يعمل على حـــدوث إضـــطراب للمجموع . والدولة نظام سياسى يؤدى وظـــائف داخليـــة وخارجية للمجتمع ، ولايمكن لغيرة من النظم أن يؤديهـــا ولذلك كان نظاماً ضروريا لأستمرار كيان المجتمع .

وهذة النظم الإجتماعية الأربعة هى أكثر الـــنظم إنتشـــاراً وبروزاً. فلم توجد أية حضارة تخلو من الأسرة كمـــا لـــم توجد أية حضارة تخلو من تنظيم إقتصادى . كمـــا نجـــد للأغلبية العظمى من المجتمعات نوعاً من الحكومة وعقيدة دينية معينة . وتختلف كل هذة النظم من مجتمع لآخر ، من ناحية الإتساع ودقة التنظيم ، وأن هذة النظم الأربعة تتركز حول الحاجات الإنسانية الضرورية وهى الغذاء ، والجنس، والعقيدة ، والأمن ، وتحديدنا لهذة النظم الأربعة لايمنع من وجود عدد من النظم الهامة الأخرى ، ولكنها تـــأتى فـــى الأهمية بعد النظم الأربعة السابقة ، ومن أمثلة هذة الـــنظم الأخرى مايقوم منهـــا علـــى شـــئون التربيـــة والتعلـــيم والمواصلات والترفية والفنون والصحة وغيرها مما يحتاج إلية المجتمع ، وتشرف الدولة فى المجتمعات الحديثة على أغلب هذة النظم أيضاً (٣٩).

المراجـــــع

(١) فادية عمر الجولانى : مبادىء علم الإجتمـــاع ، مؤسســـة شـــباب الجامعـــة ، الأسكندرية ١٩٩٣ ص ٧ .

(٢) طلعت إبراهيم لطفى : مبادىء علم الإجتماع ، مؤسسة الأنوار للنشر والتوزيع الرياض المملكة العربية السعودية ١٩٨٤ ن ص ٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣ .

(٤) محمد عاطف غيث : علم الإجتماع ، دار المعرفة الجامعية ن الأســكندرية ١. ٩٨٣ ص ص ب – د .

(٥) محمد سعيد فرح : ما علم الإجتماع : منشأة المعارف ، الأسكندرية ١٩٨٧ ص ص ٩ –١٢ .

(٦) طلعت لطفى ، مرجع سابق ص ٨ .

(٧) فادية الجولانى ، مرجع سابق ص ٣٠٤ .

(٨) المرجع السابق ص ٣٠٧ .

(٩) طلعت لطفى ص ص ٩ – ١٠ .

(١٠) عبد الحميد لطفى : علم الإجتماع دار المعارف ، القاهرة ط ٨، ١٩٧٨ص ٤٤.

(١١) طلعت إبراهيم لطفى ، مرجع سابق ص ص ١٣ ، ١٤ .

(١٢) فادية الجولانى ، مرجع سابق ص ص ٢١٣ – ٢١٥ .

(١٣) طلعت لطفى : مبادىء علم الإجتماع ، مرجع سابق .

(١٤) السيد بدوى : الأسس المنهجية لعلم الإجتماع الحديث ، المجلـــة الإجتماعيـــة القومية ، المركزالقومى للبحوث الإجتماعية والجنائية القاهرة ، ١٩٦٦ المجلـــد الثالث ، ص ٨٧.

(١٥) طلعت إبراهيم لطفى ؛ مرجع سابق ص ص ٣٣ – ٣٥ .

(١٦) السيد بدوى : الأسس المنهجية لعلم الإجتماع الحـــديث ، مرجـــع ســـابق ص ١٠٥.

(١٧) السيد على شتا : نظرية علم الإجتماع ، المكتبة المصرية الأسكندرية بـــدون ص ٢٦٦.

(١٨) السيد بدوى : الأسس المنهجية لعلم الإجتماع الحـــديث ، مرجـــع ســـابق ص ١١٠.

(١٩) المرجع السابق ص ١١٣ .

(٢٠) فادية الجولانى : مبادىء علم الإجتماع ، مرجع سابق ص ٣٦٨ ص ٣٦٩ .

(٢١) طلعت لطفى : مرجع سابق ص ١٩ .

(٢٢) نقلا عن المصدر التالى : محمد سعيد فرح وما علم الإجتماع ، مرجع سابق ص ص ١٤٧ – ١٥٠ .

(٢٣) طلعت لطفى ، مرجع سابق ص ٤٦ .

(٢٤) محمد سعيد فرح ، مرجع سابق ص ١٥٠ .

(٢٥) محمد الجوهرى وآخرون : ميادين علم الإجتماع ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ ص ٧ .

(٢٦) طلعت لطفى ، مرجع سابق ص ٢١ .

(٢٧) المرجع السابق .

(٢٨) عبد الحميد لطفى ، علم الإجتماع ، مرجع سابق ص ٦٧ .

(٢٩) طلعت لطفى – مبادىء علم الإجتماع ، مرجع سابق ص ١٦٥ .

(٣٠) محمد سعيد فرح ، ما علم الإجتماع ، مرجع سابق ص ٣١١ .

(٣١) عبد الحميد لطفى ، علم الإجتماع ، مرجع سابق ص ٦٩ – ٧٠ .

(٣٢) فادية الجولاني : مبادىء علم الإجتماع ، مرجع سابق ص ص ٣٧٦ – ٣٧٧.

(٣٣) محمد عاطف غيث : علم الإجتماع ، مرجع سابق ص ٢٩٥ .

(٣٤) طلعت لطفى : علم الإجتماع ، مرجع سابق ص ١٦٨ .

(٣٥) عبد الحميد لطفى : علم الإجتماع ، مرجع سابق ص ٧١ .

(٣٦) فادية الجولانى ، مبادىء علم الإجتماع ، مرجع سابق ص ٣٧٧ .

(٣٧) عبد الحميد لطفى ، مرجع سابق ص ٧٢ – ٧٤ .

(٣٨) طلعت لطفى ، مرجع سابق ص ١٩٤ .

(٣٩) عبد الحميد لطفى ، مرجع سابق ص ٧٣ – ٧٤ .

الفصل الرابع

علم الإجتماع والمنهج العلمى

١ – تعريف العلم ووظائفه .

٢ – أنواع المعرفة .

٣ – الطرق الأساسية فى البحث الإجتماعى .

٤ – مناهج البحث الإجتماعة .

٥ – العينات وإختيارها .

٦ – خطوات البحث العلمى .

علم الإجتماع والمنهج العلمى

أن رغبتنا فى الوصول إلـــى فهـــم لطبيعـــة المجتمعـــات البشرية، وما ستنطوى عليه من ظواهر ووقائع ، هـــى التـــى تدفعنا بالضرورة لتلك المحاولات الدائمة لفهم الطبيعة الأساسية للعلوم الإجتماعية عامة وعلم الإجتماع خاصة بأعتبارها النظم العلمية التى تساعدنا على الوصول لهذا الفهم وتوفير المعرفـــة العلمية ، وتحقيق تراكمها الدائم حول وقائع المجتمعات البشرية وظواهرها الإجتماعية والثقافية .

أن تنمية النظم العلمية للعلـــوم الإجتماعيـــة لا يتحقـــق الآ بفهمنا لبناء العلم واستراتيجيته فـــى معالجـــة وقـــائع العـــالم وظواهره من ناحية ، وتحديد طبيعـــة الظـــواهر الإجتماعيـــة والثقافية ومقتضيات معالجتها فى ضوء المبـــادىء الأساســـية لتنسيق التفكير العلمى ومنظوره من ناحيـــة أخـــرى ، وذلـــك للوصول باستراتيجية العلوم الإجتماعيـــة وكفاءتهـــا لمعالجـــة ظواهر الواقع الإجتماعى وتحقيق تراكم المعرفة العلمية حولها، وقدرتها على البرهنة على صحة تلك المعرفة ســـواء كانـــت مصاغة فى شكل نظرية مكتملة أو لم تكتمل بعد فـــى ضـــوء اسس ومبادىء إقامة البرهان العلمى .

* تعريف العلم :

يعتبر مصطلح العلم من أكثر المصطلحات التـــى لاقـــت إهتماما بالغا من قبل العلماء وذلك من أجل تعريفـــه وتحديـــد عناصره ووظائفه وأهدافه، ويعرف هنرى بوانكارية "العلـــم : بأنه " معرفة تتعلق بأدراك الروابط والعلاقـــات القائمـــة بـــين الظواهر ، ويعرف " لندبرج " العلم بأنه " وسيلة للحصول على المعرفة المضبوطة حول الظواهر ، وتطبيقها فى عملية التنبؤ " ويذهب " تيودور سافورى " إلى أن " العلم معرفة مـــن نـــوع

خاص محدد ، يتم فحصها بطرق منهجية مميزة – ومرتبطة بفروض نظرية وتجريبية[١] ،

ومن الشائع تعريف العلم بأنه تراكم المعرفة المنسقة ، وقد يعرف العلم أيضاً بأنه " الطرق المنسقة المنطقية التى يمكن عن طريقهما الحصول على المعرفة " ويوافق الكثير من العلماء الإجتماعيين المعاصرين على تعريف آخر للعلم – يجمعون عليه – بأنه " الدراسة الموضوعية المنطقية للظواهر الواقعية ، وما يترتب على ذلك من بناء المعرفة " . ويتضح من التعريفات السابقة أن مفهوم العلم ليس مرادفاً لمفهوم المعرفة ، نظراً لأن المعرفة العلمية ، تعد أحد أنواع المعارف التى تتكون منها ثقافة المجتمع ، كما يتضح من هذه التعريفات أن المعرفة العلمية هى نوع من المعرفة المنطقية المنظمة أو المنسقة التى يمكن الحصول عليها عن طريق إستخدام المنهج أو الطريقة العلمية[٢]. وتقوم التفرقة بين المعارف العلمية وغير العلمية على أساس المنهج وأساليب التفكير التى تتبع فى تحصيل المعارف ، فإذا إتبع الباحث قواعد المنهج العلمى فى التعرف على الأشياء والكشف عن الظواهر ، فإن المعرفة تصبح حينئذ معرفة علمية .

وللتفرقة بين المعرفة والعلم يرى عبد الباسط حسن فى مؤلفه " أصول البحث الإجتماعى " أن العلم هو " المعرفة المنظمة التى تم الوصول إليها باتباع قواعد المنهج العلمى الصحيح مصاغه فى قوانين عامة للظواهر الفردية المتفرقة " .

والعلم بالصورة التى حددناها يمثل مرحلة متأخرة فى تاريخ التفكير الإنسانى ، وقد حاول "أوجست كونت" أن يثبت أن المعرفة العلمية جاءت متأخرة فى تطور العقل البشرى ، فوضع قانونه المعروف بقانون الأدوار الثلاثة ، وإنتهى فيه إلى أن المعرفة العلمية كانت ثمرة لعملية بطيئة من النضج العقلى ،

إستطاع الإنسان بعدها أن يتخلص من التفسيرات الدينية والتفسيرات الفلسفية الميتافيزقية ، وأن يتجه إلى تفسير الظواهر تفسيراً علمياً يقوم على ربط الظواهر بعضها ببعض ربطاً موضوعيا بحتا(٣) .

*** أهداف العلم :**

ثمة إتفاق واضح على أن للعلم أهداف أساسية محددة تتمثل فى الفهم والتنبؤ والتحكم وأن تحقيق العلم لهذه الأهداف يعتمد على مدى أدائه لوظائفه الأساسية المتمثلة فى الوصف والتفسير للظواهر التى يتناولها ، باعتبار الوصف والتفسير وسائله الأساسية لبلوغ أهدافه .

*** الفهم كهدف للعلم :**

يجمع فلاسفة العلم على أن الفهم هدف أولى من أهداف العلم الأساسية ، حيث يعتبر الفهم العملية الأساسية التى تستند إليها للوصول إلى إدراك الظواهر إدراكاً واعياً وما يرتبط بها من وقائع ، ومن ثم يكون تحقيق هدف الفهم عملية متصلة تبدأ بالوصف مروراً بتحديد العوامل وصولاً إلى الكيفية التى تم بها حدوث تلك الظواهر .

وعليه لا يتحقق الفهم العلمى للظواهر إذا ما إقتصرنا على مجرد الوصف ، وذلك لأن التفسير مرحلة أساسية لإكتمال عناصر الفهم لتلك الظواهر ، وبتحقق الوصف والتفسير للظاهرة - ، يتحقق فهمها والوصول إلى القوانين التى تتحكم فى نشأتها وتطورها وعلاقتها بغيرها من الظواهر وأدائهما لوظائفها .

*** التنبؤ كهدف للعلم :**

يجمع العلماء على أن التنبؤ هدف أساسى للعلم ، إلا أن تحقيق هذا الهدف يرتبط بصورة أساسية بتحقيق الفهم كهدف

أولى ويرتبط بصورة مباشرة بالتفسير كمرحلة نهائية فى عملية الإدراك والفهم للظواهر ، وذلك ما جعل البعض يقيم العلاقة بين التفسير والتنبؤ ويعتبرهما وجهان لعملة واحدة ، وذلك لأن التنبؤ يهتم بما سوف يكون فى المستقبل ، لأنه بمثابة اختيار لمجموعة من العلاقات القائمة بين متغيرات أو ظواهر أو أحداث تقبل الملاحظة والمشاهدة ، ولهذا تكون تلك التنبؤات مصاغة فى شكل قانون أو نظرية علمية ، وبذلك يكون التفسير عملية متصلة نقيم عليها تنبؤاتنا ، وبتحقيق هدف التنبؤ يتوافر للإنسان فرصة السيطرة على الظواهر والتحكم فى العوامل المؤدية لحدوثها ، وتوجيهها بالكيفية التى تجعله لصالح الإنسان ومنفعته .

***وظائف العلم :**

يعتمد تحقيق العلم لأهدافه على مدى قيامه بوظائفه الأساسية ، تلك الوظائف المتمثلة فى الوصف والتفسير للظواهر الواقعة فى مجال عمله ... ، حيث أن التقدم العلمى لا يعتمد على الوصف فقط ، وإنما يعتمد على الوصف والتفسير حيث يذهب " شرشمان " إلى أن الوظيفة المبدئية للنموذج العلمى تفسيرية أكثر منها وصفية ، ويرجع التأكيد على الوظيفة التفسيرية للعلم إلى العلاقة المباشرة بين التفسير والتنبؤ كهدف للعلم ، وذلك ما جعل البعض يهتم بإبراز الوظيفة التفسيرية فى العلوم الإجتماعية لكى تحتل مكانتها العلمية ، بين العلوم الطبيعية الأخرى .

وقد إعتبر " كينث بايلى " الوصف والتفسير وظيفتين اساسيتين للعلم لتحقيق الفهم كهدف أولى للعلم ، يعتمد عليه تحقيق العلم لهدفه النهائى المتمثل فى التنبؤ(٤) .

*** المعرفة العلمية وأنواعها :**

المعرفة عبارة عن مجموعة المعانى والمعتقدات والأحكام والمفاهيم والتصورات الفكرية التى تتكون لدى الإنسان نتيجة لمحاولاته المتكررة لفهم الظواهر والأشياء المحيطة به ، وهى بهذا المعنى لا تقتصر على ظواهر من نوع معين ، وإنما تتناول جميع ما يحيط بالإنسان وكل ما يتصل به ، فمن المعارف ما يتصل بتكوين الإنسان البيولوجي والنفسى ، وكل ما يتصل بعناصر بيئته الطبيعية والإجتماعية والثقافية ، ولم تكن هذه الألوان جميعا هدفا لدراسات المفكرين والباحثين فى مختلف العصور ، بل انصرفوا إلى دراسة بعض جوانبها دون البعض الآخر(٥) .

ويكسب الإنسان المعرفة بعدة طرق مختلفة ، فمن المعارف ما يكتسبه الإنسان بطرق موضوعية ، عن طريق إستخدام المنهج أو الطريقة العلمية ، ومنها ما يكتسبه الإنسان بطرق شخصية أو ذاتية ، تعتمد على تصور الفرد نفسه للمجتمع . وقد إستخدم العالم الألمانى " ماكس فيبر" مصطلح " الفهم " ليشير إلى طريقة خاصة فى الحصول على المعرفة تتمثل فى عملية التبصر أو الفهم الأساسية التى يمكن الحصول عليها عن طريق مشاركة الأخرين لوجهة نظرهم تجاه العالم ، وبتعبير آخر إستخدم " ماكس فيبر" مقولة " الفهم " ليشير إلى عملية عقلية حدسية تمكننا من إكتساب المعرفة عن طريق التوحد بالفاعلين وتحليل مقاصدهم ودوافعهم ، إلا أنه مهما كانت دقة تطبيق عملية الفهم ، فقد لا تمكننا من اكتساب كثير من المعرفة حول الأنساق الكبرى أو حول عمليات التغير الإجتماعى الواسعة النطاق التى تحدث داخل المجتمع(٦) .

وتتضمن كل ثقافة مجموعة من المعرف التى يمكن أن تنقسم إلى ثلاثة أنواع على النحو التالى :

١ – المعرفة الحسية :

يطلق هذا الأسم على المعرفة التى تقتصر علـــى مجـــرد ملاحظة الظواهر ملاحظة بسيطة تقف عند مســـتوى الإدراك الحسى العادى دون أن تتجه إلى إيجاد الصلات أو تسعى إلـــى إدراك العلاقات القائمة بين الظواهر ، هذا بالإضافة إلى أنها لا تتم بفرض الكشف عن حقيقة علمية، أو تحقيق غاية نظرية(٧) .

٢ – المعرفة الفلسفية :

تعتبر المعرفة الفلسفية المرحلة التالية من مراحل التفكير ، فهى نوع من المعرفة يقوم فيها الإنسان بتفسير ظواهر الكـــون بقوى فوق طبيعته ، فوراء الأمـــور المكتســـبة بالملاحظـــة ، مسائل أهم ، ومطالب أبعد ، تعالج بالعقل وحـــده ، وتتنـــاول الفلسفة هذه المسائل بالدراسة والبحث ، ولا تقتصر على العالم الطبيعى وحده ، بل ترتقى إلى العالم " الميتافيزيقى " ونجد أن مسائل الفلسفة يتعذر الرجوع فيها إلـــى الواقـــع ، وحســـمها بالتجربة ، كما أنها دقيقة يتعذر إستيعاب وجهاتها المتعـــددة ، والتأكد من صحتها ومن ثم يجتهد الفلاسفة فى حلها ، كل على قدر طاقته ، وتبعاً لمزاجه ونشأته ومواهبه وغير ذلـــك مـــن المؤثرات الذاتية أو الشخصية التى تكيف العقل وتوجه النظر ، ولا يهتم البحث الفلسفى بالجزيئات ، وإنما يهـــتم بالمبـــادىء الكلية ، كما يحاول تفسير الأشياء بالرجوع إلى عللها ومبادئها الأولى(٨).

٣–المعرفة العلمية :

تقوم المعرفة العلمية على الأسلوب الأسنقرائى الذى يعتمد على الملاحظة المنظمة للظواهر ، وفرض الفروض وإجـــراء التجارب وجمع البيانات وتحليلها للتثبت من صحة الفـــروض أوعدم صحتها ، ولايقف العلم عند المفردات الجزئيـــة التـــى

يتعرض لبحثها ، بل يحاول الكشف عن القوانين والنظريات العامة التى تربط بين هذة المفردات بعضها ببعض ، والتى تمكن من التنبؤبما يحدث للظواهر المختلفة تحت ظروف معينة(٩).

وتقوم الطريقة العلمية على سلسلة من الإجراءات تتضمن أولا: الإعتماد على الملاحظة الموضوعية ، أى القدرة على رؤية العالم بعيداً عن التأثير. بخبراتنا المباشرة ، كما تتضمن الطريقة العلمية ضرورة إستخدام القياس الدقيق لإلتزام الموضوعية فى البحث والحصول على نتائج صادقة وثابتة ، وأخيراً تتضمن الطريقة العلمية واجب علمي يتمثل فى ضرورة الكشف الكامل عن نتائج البحث وجعلها فى متناول الأخرين(١٠).

والاستقراء نوعان أحدهما تام ، والآخر ناقص ، وفى الاستقراء التام يقوم الباحث بملاحظة جميع مفردات الظاهرة التى يبحثها ، ويكون حكمه الكلى مجرد تلخيص للأحكام التى يصدرها على مفردات البحث ، أما فى الاستقراء الناقص يكتفى الباحث بدراسة بعض النماذج ، ثم يحاول الكشف عن القوانين العامة التى تخضع لها جميع الحالات المتشابهة والتى لم تدخل فى نطاق بحثه ، وبفضل هذه القوانين يستطيع الباحث أن يتنبأ بما يمكن أن يحدث للحالات المتشابهة ، والتى لم تدخل فى دائرة بحثه ، وأن ينتقل بأحكامه من الحالات المعلومة إلى الحالات المجهولة ... ، ومن ثم فإن العلم يصطنع منهج الإستقراء الناقص فى الوصول إلى المعارف العلمية(١١) .

وتتكون المعرفة العلمية من جانبين : أحدهما جانب حسى يسمى بالمعرفة الحسية وتعتمد فيه على الخبرة الحسية التى تزودنا بها أعضاء الحس ، أما الجانب الآخر فهو جانب عقلى أو منطقى يسمى بالمعرفة العقلية أو المجردة ، وتعتمد فيه على العقل ، ولا يوجد أى إنفصال بين هذين الجانبين للمعرفة ،

وهما يمثلان حلقتين متصلتين فى سلسلة المعرفة العلمية ، ومن خلال تفاعلهما تتقدم وتتطور المعرفة .

كما أن للمعرفة العلمية خصائص أو معايير تجعلها تختلف عن غيرها من أنواع المعارف غير العلمية ، وقد قام " جيبسون " فى مؤلفه (منطق البحث الإجتماعى) بتحديد بعض الخصائص أو المعايير العلمية وهى : التجديد والعمومية ، والواقعية ، والحياء الأخلاقى ، والموضوعية[١٢] .

الطرق الأساسية فى البحث الإجتماعى

طرق البحث الإجتماعى :

إزداد إستخدام طرق عديدة فى البحث الإجتماعى ، عند دراسة مجتمعات محددة أو مناطق معينة ، أو عند إجراء دراسات محلية أكثر تحديداً .

وطرق البحث المستخدمة فى علم الإجتماع لا تختلف إختلافاً ملحوظاً عن الطرق المستخدمة فى العلوم السلوكية الإنسانية الأخرى . وتهدف طرق البحث الإجتماعى المختلفة إلى جمع المعلومات والبيانات ، وتفسيرها وتقييمها . وتلك مهمة أساسية لعلم الإجتماع ، فعلم الإجتماع يقوم على وصف الظواهر الإجتماعية ، ثم إجراء المقارنات بينها ، وأحيراً التفسير . أما إصدار أحكام قيمية على النتائج التى جمعها عالم الإجتماع فتلك مهمة الفيلسوف الإجتماعى .

والمنهج العلمى هو المنهج المستخدم فى الدراسات السوسيولوجية ويتمشى منهج البحث فى الإجتماع مع المبادىء التى تحدد نظرتنا إلى المعلومات وما نبحث عنه فيها . وطبيعة هذه المعلومات . والمقصود بالمنهج هنا . المنطق الذى يقوم عليه البحث بجانب الأدوات التى تمكننا من الوصول إلى المعلومات أو ملاحظتها عن قرب .

ونثار دائماً مشكلة هامة مؤداها مدى إمكانية تطبيق المنهج العلمى .كما تصوره علماء الفيزياء والأحياء . — على دراسة السلوك الإنسانى .

ويجب أن نشير فى البداية إلى " أوجست كونت" مؤسس علم الإجتماع و" كوتلية " مؤسس علم الإحصاء . وقد سميا

العلم الجديد " الفيزياء الإجتماعية " ثم إستبدل " أوجست كونت" بالفيزياء الإجتماعية مصطلح علم الإجتماع .

وقد أدرك بعض علماء الإجتماع صراحة أو ضمنا أن علم الإجتماع له موضوعاته المختلفة . وعليه أن يستخدم مناهج أخرى غير تلك المستخدمة فى العلم الطبيعى .

إلا أن أغلبية علماء الإجتماع يهتمون بايجاد علم متميز عن علم التاريخ وعلم الأخلاق . وثمة شروط ثلاثة أساسية لازمة لوجود علم الإجتماع : —

١- مادام الإنسان ملاحظ وملاحظ فى الوقت نفسه تثار دائما مشكلة الموضوعية عند دراسة السلوك الإنسانى .

٢- يستطيع الملاحظ أن يتصل بموضوعاته . ويفتح لنا مجالات جديدة للبحث مما يعرض لنا مشكلات كثيره ومعقدة عن مناهج البحث .

٣- أن السلوك الإنسانى سلوك معقد بدرجة إنه يصعب إعادة بنائه تحت ظروف مسيطرة عليها . سواء عند أجراء الملاحظة أو المقارنة أو التجريب .

ولم يقتنع أغلب علماء الإجتماع بترك المنهج العلمى . والعدول عن تطبيقه عند دراسة السلوك الإنسانى . ولكن المشكلة الأساسية هى كيف نسترشد بالمعايير العلمية عند :

١- صياغة فروض مثمرة فى البحث الإجتماعى .

٢- إستعمال منهج موضوعى للتحقق من صدق الفرض أو كذبه .

ولم يعد إستخدام المنهج العلمى عند دراسة السلوك الإنسانى موضوع جدل الأن . ولكن المهم لكل علم إكتشاف الأدوات المناسبة لدراسة ظواهره فنجد فى علم الفلك التسكوب.

وفى الكيمياء أنبوبـــة الأختبـــار والميـــزان وفـــى البيولوجيـــا الميكروسكوب .

وهناك فئة من العلماء تؤمن أن التقدم الخطير فـــى علـــم الإجتماع وكل العلوم السلوكية ينتظر إكتشـــاف أدوات مماثلـــة لملاحظة السلوك الإنسانى ودراسته وتفسيره .

ويعتقد بعض علماء الإجتماع أن التلسكوب الإجتماعى قـــد إكتشف ويتطلب الأمر التحسين . وإكتشـــاف أدوات مســـاعدة أخرى . وهذا التلسكوب الإجتماعى هو الوثيقة الشخصية . أى دراسة تاريخ حياة الأشخاص . أو إستمارة الأستبيان أو المقابلة أو الملاحظة أو دراسة الحالة أو المسح الإجتماعى .

وإذا كان هدف التلسكوب . هو التكبير أو التضـــخيم . أى تعظيم الأشياء غير المرئية وإدراكها أدراكاً واضـــحاً . فإنـــه يتضح لنا أهمية دراسة ، الوثيقة الشخصية أى تاريخ الحياة فى علم الإجتماع والاستعانة بأدوات مساعدة مثـــل الأســـتبيان أو الملاحظة أو المقابلة .

ونحن فى علم الإجتماع أحوج ما نكون إلى التعمـــق عمـــا وراء السطح الظاهر فعلا عند دراسة السلوك الإنسانى . ولـــذا فإن أداة واحدة لا تكفى فى البحث الإجتماعى[١٣] .

<u>الاستبيان :</u>

أحد الوسائل المباشرة والأكثر سهولة لجمع البيانات عـــن تجارب الناس وإتجاهاتهم أو جمع المعلومات عن جماعة معينة فى موقف معين ، وتشير كلمة الاستبيان إلى وسيلة من وسائل جمع البيانات قوامها الإعتماد على مجموعة من الأسئلة ترسل إما بطريق البريد لمجموعة من الأفـــراد ، أو تنشـــر علـــى صفحات الجرائد أو المجلات على شاشات التليفزيون ، أو عن طريق الإذاعة ، أو تسلم باليد ليقوم الأفراد بملئها ثـــم يتـــولى الباحث جمعها ، ويستفاد من الاستبيان ، إذا كان أفراد البحـــث

منتشرين فى أماكن متفرقة ، بالإضافة إلى أنه قليل الجهد والتكلفة ، وأنه يعطى أفراد البحث حرية كافية للإجابة على الأسئلة ، بالاضافة إلى أنه يساعد على جمع بيانات حساسة ، غير أنه من عيوب الاستبيان أنه لا يصلح إلا لمن يعرفون القراءة والكتابة ، بالاضافة إلى أن إستمارة الاستبيان تتطلب عناية فائقة فى الصياغة والوضوح ، بالاضافة إلى أنها ينبغى أن تكون مختصرة حتى لا يشعر المبحوث بالملل ، بالإضافة إلى عدم الثقة فيما إذا كان المبحوث هو الذى قام بالإجابة عليها أم لا ، يضاف إلى ذلك أن العائد من صحف الاستبيان يكون قليلاً حتى لا يتجاوز ٢٠% من العينة الإجمالية[١٤] .

ويتعين على الباحث أن يعرف بالتحديد ما يريد أن يبحث عنه ، فمثلا إذا كان يريد أن يدرس أوقات الفراغ عند المراهقين ، عليه أن يعرف كل الأنشطة المفضلة وغير المفضلة ، فليس مجدياً أن نسألهم ماذا يفعلون فى أوقات الفراغ.

ولا ينبغى أن يكون السؤال غامضاً أو مبهماً ، بل يتعين أن يفهمه المبحوث بسهولة ، ومن الضرورى أن نتجنب التحيز عند صياغة الأسئلة ، وخاصة الأسئلة الحساسة ، فمن الأفضل أن نسأل هل تتجنب مشاهدة الأفلام التى يعلن عنها بأنها ممنوعة لأقل من ١٦ سنة بدلاً من سؤاله : هل تشاهد أفلام الجنس ؟ أو هل تحب أفلام الجنس ؟ .

وينبغى أن نتجنب الأسئلة التى ترتبط بالأحكام الخلقية وأفعال الضمير فإذا ما سألنا المبحوث هل توافق على حكم الأعدام ؟ ، فإن هذا السؤال لا يعرف حداً أو قيداً ويتضمن اجابات متعددة ، يصعب أن نجيب عليها بنعم ، إذ أنه يتطلب تفكيراً عميقاً وقوياً[١٥] .

المـلاحظـة :

تتميز الملاحظة عن غيرها من أدوات جمع البيانات بأنهـا تفيد فى جمع بيانات تتصل بسلوك الأفراد الفعلى فـى بعـض المواقف الواقعية فى الحياة ، بحيث يمكن ملاحظتها دون جهد كبير ، وتفيد ايضاً فى جمع البيانات فى الأحوال التى يبدى فيها المبحوثين نوعاً من المقاومة فـى الإجابـة عـن الأسـئلة ، والملاحظة يمكن الاستفادة بهـا فـى الدراسـات الكشـفية أو الوصفية أو التجريبية .

وللملاحظة أساليب متعددة منها : **الملاحظـة البسـيطة** ، وهى لا تحضع للضبط العلمى ، وبغير إستخدام أدوات دقيقـة للقياس ، **والملاحظة المنظمة** : التى تخضع للضـبط العلمـى والتحديد الدقيق ، والملاحظة البسيطة تشمل طـريقتين همـا : والملاحظة بدون المشاركة فى أى نشاط تقوم بـه الجماعـة موضوع الملاحظة ، والملاحظة بالمشاركة وهى التى تتضمن إشتراك الباحث فى حياة الناس الذين يقوم بملاحظاتهم[١٦] .

وتتميز الملاحظة عن غيرها من طرق جمع البيانات أنهـا تسجل السلوك بما يتضمنه من مختلف العوامل وقت حدوثـه ، وتزداد قيمة الملاحظة فى الحالات التى يزداد إحتمال مقاومـة الأفراد لما يوجه إليهم من أسئلة ، أو عدم تعاونهم مع الباحـث أثناء المقابلة كما تزداد قيمة الملاحظة فى الحالات التى يتعذر فيها استخدام غيرها من طرق القياس ، مثل ملاحظـة سـلوك الأطفال ، وأهم عقبة تواجه الملاحظة ، هى تحديد موضـوع الملاحظة ، لأنه لن يستطيع ملاحظة كل شىء ، وقد لا تتطلب الدراسة ذلك ، وكيفية تسجيل الملاحظة ومـا الفـرض مـن الملاحظة[١٧] .

المقابلة :

هى محادثة موجهه يقوم بها شخص مع شخص آخـر ، أو مجموعة من الأشخاص شفها إسـتثارة أنـواع معينـة مـن

المعلومات لاستغلالها فى بحث علمى ، أو للاستعانة بها فى التوجيه أو التشخيص والعلاج ، ومن مزايا المقابلة أنها تفيد فى المجتمعات التى تتسم بارتفاع نسبة الأمية ، حيث أن الباحث هو الذى يقوم بتوجيه الأسئلة ، وأنها تجمع بين الباحث والمبحوث فى موقف مواجهه ، بالاضافة إلى أنها تمكن الباحث من إقناع المبحوثين ، وحصوله على جميع الإجابات .

ومن عيوب المقابلة أنها تتعرض إلى العديد من الأخطاء ترجع إلى التحيز وتزييف الإجابات بما يتفق مع الباحث ، بالاضافة إلى أنها تتطلب عدداً كبيراً من الباحثين المدربين كما تتطلب جهوذ وتكاليف كبيرة .

والمقابلة أنواع كثيرة وتصنيفات متعددة ، فهى تتقسم من حيث الفرض إلى ثلاث أنواع : المقابلة لجمع البيانات ، والمقابلة الشخصية ، والمقابلة العلاجية ، وتتقسم من حيث عدد المبحوثين إلى نوعين هما : المقابلة الفردية والمقابلة الجماعية، وتتقسم من حيث المرونة إلى نوعين هما : المقابلة المقننة والمقابلة غير المقننة(١٨) .

<u>إستمارة البحث :</u>

وتستلزم عملية جميع البيانات بطريقة الاستبيان أو المقابلة، إعداد خطة مفصلة للإهتداء بها عند جمع البيانات ، وتكون هذه التفاصيل مكتوبة فى شكل أسئلة ، ويقوم الباحث بتدوينها بناءاً على ملاحظاته الخاصة ، أو على ما يدلى به المبحوثين من بيانات ، وتجمع هذه البيانات ، فيما يسمى باستمارة الاستبيان أو استمارة المقابلة أو استمارة البحث .

ولإعداد إستمارة البحث ينبغى أن يلتزم الباحث بإتباع خطوات رئيسية منها :

تحديد نوع المعلومات التى يرغب الباحث فى الحصول عليها ، وتحديد شكل الأسئلة والاستجابات والصياغة وتسلسلها

واختبار الاستمارة قبل تطبيقها ثم تنسيق الاستمارة وإعـدادها فى صورتها النهائية(١٩) .

البيانات الموثقة :

مصدر هام للبيانات ، هو المواد الموثقــة ، إبتــداء مــن الخطابات الشخصية والأحكام المكتبية ، والمذكرات الشخصية، وبرامج الراديو والتليفزيون والأعمدة اليومية ، وبتحليل هــذه البيانات ، يمكن الكشف عن الاتجاهات الأساسية والقيم وطبيعة العلاقات السائدة .

وقد درس " توماس ، وزينانكى " مجموعة من الفلاحــين المهاجرين إلى أمريكا وفى بحثهما " الفلاح البولنــدى " كونــا نظرية الرغبات الأربعة كأساس لتفسير العمل الإجتماعى ، وقد قامت هذه النظرية على طريقة جديدة لدراسة الحــالات هــى تحليل الوثائق الشخصية وعلى الأخص التاريخ الــذاتى لحيــاة الأفراد(٢٠) .

مقاييس العلاقات الإجتماعية والاتجاهات والرأى العام :

وهناك إيضا مقاييس العلاقات الإجتماعيــة والاتجاهــات والرأى العام ، حيث تعد مقاييس ضرورية لمعرفة ما يحــدث بين الأفراد والجماعات من جذب وتنافر ، وإتفاق وإخــتلاف ، وتعاون وتنافس ، وصراع وتكيف ، وفــى قيــاس إتجاهــات الأفراد نحو مختلف الموضوعات لتحديد درجة إعتناقهم لرأى إجتماعى معين ومدى تقــبلهم لأحــد البــرامج الإجتماعيــة ، ولدراسة الرأى العام للوقوف على ما يسود الجماعة مــن آراء وإتجاهات جماعية .

وهناك وسائل أخرى لجمــع البيانــات كأســلوب **تحليــل المضمون** ، ويستخدم فى تحليل محتوى المادة التــى تقــدمها وسائل الاتصال الجمعى ، كالمجلات والكتب وأفــلام الســينما وبرامج التلفزيون ، ويهدف هــذا الأســلوب إلــى الوصــف

الموضوعى المنظم للمحتوى الظاهر للإتصال ، ولضمان دقة النتائج ينبغى التأكد من صفتى الصدق والثبات ، فالمادة التى تخضع للتحليل يجب أن تكون صادقة فيما تشمل عليه(٢١) .

الأساليب والسجلات الأحصائية :

أما عن السجلات الأحصائية ، فإنها توفر على الباحث كثيراً من الوقت والجهد والمال الذى ينفقه فى جمع البيانات ، كما أنها تفيد فى دراسة الظواهر المختلفة ، وما يطرأ عليها من تغيرات خلال الأزمنة المختلفة ، كما أنها تفيد فى صياغة الفروض المتعلقة بالظاهرة ، وفى اختيار عينات البحث وفى التأكد من صحة البيانات التى سبق جمعها بوسائل أخرى كالملاحظة والمقابلة والاستبيان ولتكملة هذه البيانات(٢٢).

وتهدف مرحلة التحليل الأحصائى إلى توضيح البيانات التى يجمعها الباحث ووصفها وصفاً دقيقاً ، فهى تتطلب أولا أن يجمع الباحث بياناته بطريقة يعتمد عليها بحيث تكون على مستوى كبير من الدقة ، ويلجأ الباحث بعد جمع بياناته إلى تصنيفها إلى أنواع متميزة يسهل له إستنتاج ما بينها من علاقات، ثم يقوم بحساب النتائج إبتداء من النسب المئوية والمتوسطات والمعلومات المختلفة وإجراء المقارنات المختلفة، وبيان ما إذا كانت هناك فروق ذات دلالة أم لا ، ثم ينتهى الباحث بتفسير النتائج ، وهى مرحلة تحتاج إلى دراية كافية بالمسائل حتى لا يندفع الباحث إلى إستنتاج أو تعميم لا تؤدى إليه الطرق الإحصائية التى يستخدمها ، ويتطلب التحليل الإحصائى مهارة خاصة فى الرياضيات وخاصة عند تحليل الأرقام(٢٣) .

ومن وسائل جمع البيانات ايضاً : الاعتماد على الأخباريين من كبار السن والمسئولين الرسميين والسياسيين وكبار العلاقات فى الحصول على بيانات ومعلومات تخص مجتمع الدراسة .

مناهج البحث الإجتماعى :

١ – المسح الإجتماعى : –

أحد المناهج الرئيسية التى تستخدم فى البحوث الوصفية ، ويعرف بأنه : الدراسة العلمية لظروف المجتمع وحاجاته بقصد تقديم برنامج إنشائى للإصلاح الإجتماعي ، ويعرف أيضاً بأنه دراسة الظروف الإجتماعية فى مجتمع معين بقصد الحصول على بيانات ومعلومات كافية يمكن الإستفادة بها فى وضع وتنفيذ مشروعات إنشائية للإصلاح الإجتماعى .

وتعتبر المسوح الإجتماعية ذات فائدة نظرية حيث يستفاد بها فى عمليات التخطيط القومى ، وفى قياس إتجاهات الرأى العام ، وفى دراسة المشكلات الإجتماعية القائمة .

وهناك أنواع عديدة للمسح الإجتماعى ، المسوح العامة : وهى التى تعالج عدة أوجه من الناحية الإجتماعية ، والمسوح الخاصة : وهى التى تهتم بنواحى خاصة محددة فى الحياة الإجتماعية ، والمسوح الشاملة : وهى التى تقوم بدراسة شاملة لجميع مفردات المجتمع ، والمسوح بطريقة العينة ، وهو الذى يكتفى فيه الباحث بدراسة عدد محدود من الحالات فى حدود الوقت والامكانيات ، ويستعين المسح الإجتماعى بمعظم الأدوات المستخدمة فى البحوث الإجتماعية كالملاحظة والمقابلة والاستبيان وتحليل المضمون(٢٤) .

٢ – منهج دراسة الحالة :

منهج دراسة الحالة هو المنهج الذى يتجه إلى جمع البيانات العلمية المتعلقة بأى وحدة سواء كانت فرداً أو مؤسسة أو نظاماً إجتماعياً أو مجتمعاً محلياً ، ويقوم على أساس التعمق فى دراسة مرحلة معينة أو دراسة جميع المراحل التى مرت بها من أجل الوصول إلى تعميمات علمية بالوحدة المدروسة وبغيرها من الوحدات المشابهة .

وقد استخدم منهج دراسة الحالة فى كثير من الميادين ومختلف الأغراض ، وتستخدم لدراسة المواقف المختلفة دراسة تفصيلية فى محيطها الإجتماعى والثقافى بما تشمله الثقافة من عادات وقيم وآراء وأفكار وإتجاهات ، وتستخدم أيضاً لدراسة التاريخ التطورى لشىء أو لشخص أو لموقف ، كما تستخدم للحصول على حقائق متعلقة ، أو معارف عن العوامل المتشابكة التى يمكن إستخدامها فى وصف وتحليل العمليات الإجتماعية التى تقوم بين الأفراد لحدوث التفاعل بينهم كالتعاون والتنافس والتوافق والتكيف ، يضاف إلى ذلك أنه ليس هناك تعارض بين دراسة الحالة والإحصاء فى البحث الإجتماعى .

٣- المنهج التاريخى :

يقصد بالمنهج التاريخى الوصول إلى المبادىء والقوانين العامة عن طريق البحث فى أحداث التاريخ الماضية وتحليل الحقائق المتعلقة بالمشكلات الإنسانية والقوى الإجتماعية التى شكلت الحاضر ، من أجل ربط الماضى بالحاضر ، ولفهم القوى الإجتماعية التى شكلت الحاضر بقصد الوصول إلى قوانين عامة متعلقة بالسلوك الإنسانى للأشخاص والجماعات والنظم الإجتماعية (٢٥) .

وتنقسم المصادر التاريخية : عدة أقسام :

(أ) مصادر أولية : وتشمل الآثار والوثائق أو أحداث وقعت فى الماضى .

(ب) مصادر ثانوية : وهى ما نقل أو اشتق أو أخذ عن المصادر الأولية .

(جـ) مصادر ميدانية : إذا كانت المعلومات المطلوبة لدى بعض الأفراد أو الهيئات ، أو مشاهدات غير مدونة ، فإن الباحث يقوم بجمعها عن طريق توجيه بعض الأسئلة للأفراد أو

الحصول عليها عن طريق المشاهدة المباشرة أو دراسة الاثـار وبقايا الحضارات القديمة والتراث التاريخى لبعض الثقافات عن طريق مشاهدات الرحالة(٢٦) .

٤ – **المنهج التجريبى :**

المنهج التجريبى هو المنهج الذى تتمثل فيه معالم الطريقـة العلمية بصورة جلية واضحة ، فهو يبـدأ بملاحظـة الوقـائع الخارجية عن العقل ، ثم يتلوها بـالفرض ويتبعهـا بتحقيـق الفرض بواسطة التجربة ، ثم يصل عن طريق هذه الخطـوات إلى معرفة القوانين التى تكشف عن العلاقـات القائمـة بـين الظواهر .

والمنهج التجريبى عبارة عن إجراء بحثى يقوم فيه الباحث يخلق الموقف بما يتضمنه من شروط وظروف محددة ، حيث يتحكم فى بعض المتغيرات ، ويقوم بتحريك متغيرات أخرى ، حتى يستطيع إظهار تـأثير هـذه المتغيـرات المسـتقلة فـى المتغيرات التابعة ، أى أن المنهج التجريبى محاولـة لتحقيـق العلاقة السببية بين متغيرات محددة(٢٧) .

العينات واختيارها

من أهم المشاكل التى يصادفها الباحث مشكلة إختيار العينة التى يجرى عليها البحث ، لأنه يتوقف على هذه العينـة كـل قياس أو نتيجة يخرج بها ، ويضطر الباحث لإجراء بحثه على عينة محدودة العدد لا على المجتمـع الأصـلى بأكملـه ، لأن إجراء البحوث على المجتمع الأصلى بأكمله يكلف الباحث قدراً كبيراً من الوقت والجهد والمال ، والباحث عند إختيار العينة لا يقوم بهذا الاختيار دون التقيد بنظام أو وسيلة علمية خاصـة ، بل أن هناك شروط خاصة ينبغى توافرها فـى العينـة حتـى نستعيض بها عن المجتمع الأصلى الكبير ، .

ومن أهم شروط العينة :

١– أن تكون العينة ممثلة للمجتمع الأصلى .

٢– أن تكون لوحدات المجتمع الأصلى فرصاً متساوية فى الاختيار وغالباً ما يكتفى الباحث بالشرط الثانى ، لأن فيه عادة ضمان لاستيفاء الشرط الأول ، فإذا ضمنا تساوى فرص الاختيار لجميع الأفراد حصلنا عادة على عينة ممثلة للمجتمع الأصلى [٢٨] .

أنواع العينات :

١– العينة العشوائية :

يقصد بالعينة العشوائية تلك العينة التى لا تتقيد بنظام خاص أو ترتيب معين مقصود فى الاختيار ، وبذلك نضمن لجميع أفراد العينة فرصاً متساوياً ، وفى هذه الحالة توصف العينة بأنها غير متحيزة .

٢– العينة الطبقية :

العينة الطبقية هى تلك العينة التى يتم إختيارها على مرحلتين :

١– مرحلة تحليل المجتمع الأصلى .

٢– مرحلة الاختيار العشوائى فى حدود صفات المجتمع الأصلى ، فالباحث فى هذه الطريقة يبدأ بدراسة المجتمع الأصلى ، فيعرف الأوصاف المختلفة المشتمل عليها ، والنسب التى تتمثل بها كل صفة فى هذا المجتمع ، وبعد هذه الدراسة يتبع نظاماً عشوائياً متقيداً بنتائج تحليله فى الخطوة الأولى[٢٩] .

خطوات البحث العلمي

١- تحديد البحث - " مشكلة البحث " :

لا يختلف البحث العلمي فى خطواتــه كثيــراً عــن حــل المشاكل اليومية العادية التى تعترضنا دائماً . فكل منها يحتــاج إلى خطوات منطقية متسلسلة فى التفكيــر والقيــاس ، وكلمــا إنحرفت طريقة الحل عن الأساليب المنطقية الصــحيحة كلمــا بعدت النتائج عن الصواب ، لهذا كان تعلم المنطق مفيداً لكــل باحث . ليستعين باسسه فى الوصول إلى الاســتنتاج والقيــاس للوصول إلى نتائج بحوثه ، ومن الطبيعى ألا يوجد بحث بدون مشكلة*فالشعور بوجود مشكلة هو الحافز الطبيعى الذى يحفــز العقل البشرى على البحث والاستقصاء .

ومن المهم أن يحدد الباحث لنفسه عناصر المشــكلة قبــل بحثها . ومن أهم الأشياء التى يجدر بالباحث تحديدها المفــاهيم والألفاظ العلمية التى يتناولها الباحث ، ففــى ذلــك توضــيح للمشكلة فى ذهن الباحث نفسه وذهن القــارىء الــذى يتــابع البحث، ويفضل كثيراً من الباحثين الحــديثين الإلتجــاء إلــى التعريف الإجرائى حتى لا يكون هناك أى خلاف على المقصود من كل مفهوم يستخدمونه فى البحــث ، ويقصــد بــالتعريف الإجرائى تعريف الشىء بأستخدام ما يتبــع فــى ملاحظتــه أو قياسه أو تسجيله ، فكتلة الشىء مثلاً هى العدد الــذى نحصــل عليه إذا وزناه فى ميزان دقيق ، والذكاء ما تقيسه أختبــارات الذكاء وهكذا ، وبديهى أن تعريفاً كهذا لا تنطبق عليه الشروط المنطقية فى التعريف ، ولكنه يصل بالمفاهيم إلى أقصــى مــا يستطيعه الباحث من الوضوح فى ذهنه وذهن الذى يتتبع البحث وسواء أتبع الباحث هذا الأسلوب من التعريف أو أتبع غيره فإن من الخطوات الهامة تحديد عناصر المشكلة تحديداً واضــحاً لا يترك مجالاً للبس أو الغموض (٣٠) .

٢ - الفروض :

ويسير أغلب البحوث على طريقة فرض الفروض من البداية وتقوم هذه الطريقة على أن يبدأ البحث بفرض علمى يضعه الباحث على أساس ملاحظته أو على أساس منطقى ، ويصمم تجربته ويرسم خططه لهدف هو قبول الفرض الذى وضعه لنفسه أو رفضه ، وطريقة الفروض تساعد الباحث على تحديد بحثه والعوامل التى يشتمل عليها . كما تكون موجهاً مفيداً له يرسم خطة البحث على اساسه . إلا إن هذه الطريقة تلقى بعض الأعتراض لسببين أساسين .

١- إذا بدأ الباحث بفرض معين فليس من السهل عليه التخلى عنه بعد ذلك .

٢- أن تحديد وجهة النظر منذ البداية توجه أدراك الباحث وتفكيره إلى ناحية معينة مع إهمال باقى النواحي الأخرى المحتملة .

لذا كان نجاح هذه الطريقة يحتاج إلى تدريب الباحث على طرق البحث العلمى . وتعود على الحرص فى الملاحظة والاستنتاج حتى يبتعد عن التحيز الشخصى لكل ما يؤيد الفرض الذى وضعه(٣١) .

- ويقول كلودبرنارد فى هذا المقام أن الباحث الناجح هو الذى يستطيع أن يترك الفرض الذى يعتقد هو فى صحته بسهولة إذا تعارض معه الحقائق . فلا يجب أن تتسلط علينا الفكرة التى تسعى لتحقيقها .
- وقد تبدو عدم صحة الفرض منذ بداية البحث ، فعندما تتطابق نتائج التجربة الأولى أو الملاحظات التى جمعت مع الفروض التى بدأ بها الباحث كان هناك مبرر لبدء البحث التجريبى لتحقيق هذه الفروض ، إلا أنه حتى بعد تحقيق الفروض بالتجربة فإن النتيجة التى يخرج بها

الباحث ينبغى أن تكون محددة بظروف التجربة ، وقد ينتهى الباحث عند هذا الحد ، أو قد يكون هذا حافزاً له لتصميم تجربة أعم واوسع . أى أنه يصبح أختبار مدى صحة الفرض الأول أساساً يبنى عليه خطة واسعة المدى فى ميادين أخرى متعددة حتى إذا إتضح بعد ذلك أن الفرض صحيح فى كل الظروف والملابسات أرتقى الفرض لمرحلة النظرية والقانون .

❖ أما إذا ثبت من التجربة الأولى أو البيانات أو الملاحظات التى جمعت خطأ الفرض الذى بدأ به الباحث كان من المفيد عادة إلا يلغى هذا الفرض إلغاء تاماً ، بل كثيراً ما يكون من الممكن تعديله أو حذف جزء منه أو إضافة جزء جديد ، وهناك قول شائع : أن الفرض لا يعتقد فيه الإ صاحبه . بينما لا يشك أحد فى صحة التجربة أكثر من القائم بها ، ذلك لأن الفرض الذى يضعه الباحث يكون عادة نتيجة لخدمة شخصية أو ملاحظات خاصة ، بينما تكون التجربة عادة أكثر قابلية لاقناع كل من يراها.

فى حين أن الباحث نفسه يكون هو الشخص الوحيد الذى يدرك فقط ضعفها وما كانت قد تؤدى إليه لو حدث تغيير ولو طفيف فى العوامل المؤثرة فيها .

ولما كان الفرض ناتجاً عن إقتناع شخصى منذ البداية لذلك قد يكون أداه فاشلة للبحث إذا لم يحسن إستخدامها ، وإذا لم يكن الذى يستخدمها مدرباً تدريباً كافياً عليها (٣٢) .

٣- التجريب :

وتهدف التجربة إلى التعرف على ما يحدث فى جانب أو متغير معين من جوانب الظاهرة التى ندرسها بدلالة جانب أو متغير آخر فى حالة ثبات سائر المتغيرات ، ويعد التجريب إحدى الدعائم القوية التى تعتمد عليها العلوم ، وبفضله وصلت كثير من العلوم إلى درجة كبيرة من التقدم والرقى(٣٣) .

والتجريب هو جعل ظاهرة من الظواهر تحت ظروف معينة يضعها ويرسمها الباحث قبل التجربة ويبدأ التجريب عادة بأسلوب كهذا إذا لوحظ ... من الظواهر أمكن إستنتاج ... من النتائج . أو بسؤال يوجهه الباحث لنفسه مثل " هل يتبع الزيادة في المستوى العلمي للفرد تحرر فى الإيمان الديني . ويعمل الباحث بما يتبعه من خطوات تجريبية منظمة على إجابة السؤال فى النهاية . وفى كثير من الأحيان لا يستطيع الباحث أن يجد الإجابة المؤكدة على سؤاله . ولكنه يستطيع أن يستشف من نتائجه ما يرجح كفه على أخرى . وعند ذلك يعتبر البحث الذى قام به خطوة أولى لبحث آخر أشمل وأعم وأكثر إحتياطاً ودقة. وهكذا يسير البحث العلمي فى حلقات متصلة لا تنتهى تؤدى كل حلقة إلى زيادة الوضوح عن الحلقات التى قبلها .

وبالرغم من أن بعض البحوث العلمية لا تشمل على التجريب أو الدراسات العلمية . كالبحوث التاريخية مثلاً . إلا أن التجريب يعد أحدى الدعائم القوية التى ساعدت على رقى العلوم وبلوغها ما وصلت إليه من تقدم علمى فى عهدها الحاضر . فهو يتيح للمجرب من الفرض مالاتتيحه الملاحظة العابرة(٣٤) .

- ومن الضرورى عند إجراء التجارب العلمية إلا يختبر الباحث أكثر من فرض واحد فى الوقت نفسه ، وإلاّ ينتقل من فرض إلى آخر ، إلاّ إذا تأكد من خطأ الفرض الأول ، ومن الضرورى أيضاً ألا يقنع الباحث بالأدلة الموجبة التى تؤيد الفرض ، لأن دليلاً واحداً يتنافى مع الفرض كفيل بنقضه ولو أيدته مئات الشواهد .

ومن الضرورى أيضاً إلا يتحيز الباحث لفروضه ، بل يكون على إستعداد تام لأن يستبعد جميع الفروض التى لا تؤيدها التجارب والملاحظات العلمية .

وإذا وجد الباحث أمامه فرضين متناقضين ، فعليه أن يبرهن على خطأ أحدهما حتى يتأكد من صدق الآخر ، وإذا وجد الباحث أن التجارب تؤيد صحة الفرض الذى وضعه ، فعليه أن يقوم بإحصاء جميع الفروض المرتبطة بالفرض الأول ثم يتأكد من صدقها ، تمهيداً لاكتشاف القانون الذى يفسر الظاهرة التى يقوم بدراستها ،

ويشترط فى التجارب أن تكون موضوعية غير متأثرة بذات الباحث وأهوائه ، وأن يتوخى الدقة فى التعبير عن النتائج التى يحصل عليها[٣٥] .

<u>٤- الوصول إلى تعميمات علمية :</u>

إذا ايدت التجارب والملاحظات العلمية صحة فرض من الفروض دون أن يوجد فرض آخر يناقضه أو يتعارض معه ، فإن الفرض الصادق ينتقل إلى مرحلة القانون ، وكثيراً ما توحى عدة فروض صحيحة بتكوين قانون واحد ، كما توحى فروض غيرها بتكوين قانون ثان وثالث وهكذا .. ، وكلما تقدم علم من العلوم كلما حاول الإقلال من عدد القوانين المستقلة فيه، ومد نطاق العلاقات القائمة بينها ، وذلك بالربط بينها فى قانون عام واحد يطلق عليه قانون القوانين ، ويتميز عن غيره من القوانين الجزئية بأنه أكثر عمومية وأكثر تجديداً ، وقد إقترب علم الفيزياء شيئاً ما من هذا الكمال ، وبلغ مرحلة من النمو تسمو على ما بلغه علم آخر ، وذلك لتقدم وسائل القياس فيه ، ولأن العلماء توفروا على تهذيب قوانينه منذ زمن طويل[٣٦] .

المراجع

(١) سيد شتا : المنهج العلمى والعلوم الإجتماعى ، مكتبة الإشـعاع الفنيـة ، الأسكندرية ١٩٩٧ ص ١٠ .

(٢) طلعت إبراهيم لطفى : مبادىء علم الإجتماع ، مؤسسة الأنـوار للنشـر والتوزيع المملكة العربية السعودية – الرياض ص ١٩٨٤ ص ٢٨ .

(٣) عبد الباسط حسن : أصول البحث الإجتماعى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧١ ص ١٧ .

(٤) سيد شتا : المنهج العلمى والعلوم الإجتماعية مرجع سـابق ص ص١٢ – ١٥ .

(٥) عبد الباسط حسن : أصول البحث الإجتماعى ، مرجع سابق ص ١٦ .

(٦) طلعت إبراهيم لطفى : مبادىء علم الإجتماع ، مرجع سابق ص ٢٥ .

(٧) عبد الباسط حسن : مرجع سابق ص ١٩ .

(٨) طلعت إبراهيم : مرجع سابق ص ٢٦ .

(٩) عبد الباسط حسن ، مرجع سابق ص ٢٥ – ٢٦

(١٠) طلعت لطفى : مبادىء علم الإجتماع ، مرجع سابق ص ٢٩ .

(١١) عبد الباسط حسن ، مرجع سابق ص ٢٥ – ٢٦ .

(١٢) طلعت لطفى ، مرجع سابق ص ٢٩ .

(١٣) محمد سعيد فرح : ما علم الإجتماع ، منشأة المعـارف ، الاسـكندرية ١٩٨٧ ص ص ٢١٦–٢١٨ .

(١٤) عبد الباسط حسن ، مرجع سابق ص ٤٨٠ .

(١٥) محمد سعيد فرح ، ما علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٢١٩ .

(١٦) عبد الباسط حسن ، مرجع سابق ص ٤٨٠ .

(١٧) محمد سعيد فرح ، ما علم الإجتماع ، مرجع سابق ص ٢٢٠ .

(١٨) عبد الباسط حسن : إصول البحث الإجتماعى ، مرجع سابق ص ٤٨٠.

(١٩) المرجع السابق .

(٢٠) محمد سعيد فرح ، مرجع سابق ص ٢٢٠ .

(٢١) عبد الباسط حسن : مرجع سابق ص ٤٨١ .

(٢٢) المرجع السابق .

(٢٣) محمد سعيد فرح ، مرجع سابق ص ٢٢١ .

(٢٤) عبد الباسط حسين ، مرجع سابق ص ٣٢٦ .

(٢٥) المرجع السابق .

(٢٦) محمد عاطف غيث ، غريب سيد أحمد ، المجتمع الريفى ، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ١٩٨٦ ص ٦٨ .

(٢٧) عبد الباسط حسن ، مرجع سابق ص ٣٦٦ .

(٢٨) السيد محمد خيرى : الإحصاء فى البحوث النفسية والتربوية والإجتماعية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ص ٣٢٩ .

(٢٩) السيد محمد خيرى ، مرجع سابق ص ٣٣٤ .

(٣٠) السيد محمد خيرى ، المرجع السابق ص ص ١١ ، ١٥ .

(٣١) المرجع السابق .

(٣٢) نفس المرجع .

(٣٣) عبد الباسط حسن ، مرجع سابق ص ٣٩ .

(٣٤) السيد محمد خيرى ، مرجع سابق ص ١٧ – ١٨ .

(٣٥) عبد الباسط حسن ، مرجع سابق ص ٤٢ .

(٣٦) المرجع السابق ص ٤٣ .

الفصل الخامس

العمليات الإجتماعية

١ – التنشئة الإجتماعية .

٢ – عملية التكيف الإجتماعى .

٣ – عملية التوافق الإجتماعى .

٤ – عملية الصراع الإجتماعى .

٥ – عملية التمثيل .

٦ – التغير الإجتماعى .

العمليات الإجتماعية

يقصد بالعملية مجموعة من الأحداث التـــى تكـــون نمطـــاً معروفاً أو يحدث دائماً ، وإن الشخص يلاحظ هذا النمط مرات كثيرة ، ويغرف "ثيورود سن" العملية بأنها نمط متكـــرر مـــن السلوك ، وتعبر العملية الإجتماعية عن مجموعة من المتغيرات أو التفاعلات التى تؤدى إلى ظهور نمط متكرر مثل التعاون أو الصراع أو التنافس أو التوافق ولاتوجد عملية إجتماعية يمكـــن أن نطلق عليها إنها خير فى ذاتها أو شر فى ذاتها ، ولا تقـــوم العملية الإجتماعية أيا كان نوعها إلا فى الموقف الذى تحـــدث فيه كما تقدر بالنسبة لمجموعة القيم أو المعـــايير ، والعمليـــات الإجتماعية مثل كل العمليات هى تغيرات فى البناء الإجتمـــاعى ويلاحظ أن الكلمات التى تدل على العمليات الإجتماعية تستخدم لوصف المواقف التى تحدث فيها العمليات فـــى مكـــان معـــين وزمان محدد وتتخذ العمليات عادة أربعة أشكال :-

١- يحدث التفاعل بين مجموعة من الأشخاص .

٢- أو بين شخص وآخر .

٣- أو بين جماعة وجماعة .

٤- بين شخص وجماعة .

ويرى بعض علماء الإجتماع بأن كل موضـــوعات علـــم الإجتماع تهدف إلى دراسة التفاعل الإجتماعى أى إلى دراســـة العمليات الإجتماعية إذ يعد مفهوم التفاعل الإجتماعى مفهومـــاً أساسياً فى البناء الإجتماعى والإقتصادى ويعنى عملية متبادلـــة بين قوتين إجتماعيتين أو أكثر .

ويقصد من أن العملية الإجتماعية عملية متبادلة أنة يؤخـــذ فى الحسبان سلوك الأخرين فكل فاعل يأخذ فى الأعتبار سلوك

الأخرين وأغراضهم ، وكذلك فالعملية الإجتماعية عملية رمزية وتعنى بذلك أنها تعتمد على اللغة والرموز الأخرى .

ويتم التفاعل فى صورة التعاون أو التوافق أو التنافس أو الصراع عند أداء الأدوار داخل الأسرة أو المدرسة أو فى دور العبادة أو فى المصنع أو فى أماكن العمل أو النقابات أو المباريات الرياضية أو فى السوق أو بين الحكومات .

ونحن بالرغم من إهتمامنا بالعمليات الإجتماعية لانستطيع أن نتجاهل الأوضاع البيئية للوحدات الإجتماعية التى تؤثر فى ظهور نمط معين من السلوك وإختفاء نمط آخر فمثلا تتزايد عمليات التنافس والحراك فى المجتمع الحضرى من أجل تحسين المستويات الإجتماعية الثقافية لتحقيق مستوى أفضل ، فسكان المدن يتحركون داخل المجتمع ويتنافسون لشغل مراكز أفضل ، كذلك أنهم أحياناً ، مايتصارعون إذا ماضاقت بهم سبل الرزق ، ولكن الصراع لايذهب إلى آخر مدى إذا سرعان مايتوافقون ويتمثلون الجديد [١].

أنواع العمليات الإجتماعية :

١ – التنشئة الإجتماعية Sociolization

تأتى عملية التنشئة الإجتماعية Socialization من حيث وظيفتها ضمن عمليات التطبيع والتهيئة للفرد بما يحقق تكامله مع جماعاتة ومجتمعة .

- وقد نظر علماء الإجتماع إلى التنشئة الإجتماعية بإعتبارها ظاهرة إجتماعية تقتضى أن نأخذها فى الأعتبار عند دراستنا للعمليات الإجتماعية . ولذا أولاها بعض علماء الإجتماع مزيداً من إهتمامهم فى هذا المجال إلى حد أنهم إعتبروها إحدى العمليات الإجتماعية .

❖ وبذلك فإن مفهوم التنشئة الإجتماعية يستخدم بدلالتين عند بعض علماء الإجتماع وخاصة عند "صامول كوينج" الذى عالجها بإعتبارها عملية إجتماعية حيث تشير دلالتها الأولى للعملية التى تساعد الفرد علـــى إكتســـاب معـــايير وقـــيم إتجاهات الجماعة التى يولد فيها الفرد ، والتى تساعد الفرد وتهيئة لكى يكون عضوافى جماعتة . وتشير دلالتها الثانية للعملية التى تشكل الفرد وتوحدة مع جماعاتة عن طريـــق تنمية الشعور بالأنتماء ، وهنا تكون دلالة مفهوم التنشـــئة مرتبطة بالوظيفة التى تلعبها كعملية فى حياة الفرد وتكوين شخصية بما يجعلة مكتملاً ومنتميـــاً لجماعاتـــة، فالدلالـــة الأولى تشير لإكتساب الفرد لما يدعم تكاملة الإجتماعى مع جماعاتة ومجتمعة ، والدلالة الثانية تشـــير لتوجـــد الفـــرد وتنمية الشعور بالإنتماء للجماعة .

❖ وبالنسبة للمعنى الأول للتنشئة الإجتماعية والـــذى يشـــير لإكتساب الفرد لمستويات الجماعـــة وقيمهـــا وأتجاهاتهـــا وأسلوب حياتها تكون التنشئة بمثابة العملية التـــى تـــؤدى لتكامل الفـــرد مع جماعاتة : ثقافياً بإكتساب قيم جماعاتة ، وإجتماعياً بإكتساب أسلوب حيـــاه الجماعـــة وأهـــدافها ، ووظيفياً يتمثل فى ، الدور الـــذى تعـــدة الجماعـــة لـــه ، وشخصياً بإكتساب أتجاهات الجماعة ومعايير سلوكها .

وبالنسبة للمعنى الثانى للتنشئة الإجتماعيـــة والـــذى يشـــير لإكتساب الفرد وإنتمائة لجماعاتة فإنة يضيف للتنشئة الإجتماعية كعملية وظيفة أخرى تتمثل فى : تنمية الشعور "بنحنWe" لدى الفرد والتى تدعم تكاملة مع الجماعة وتنمية قدراتة ورغبتة فى التفاعل مع الأخرين ومشاركتهم عواطفهم بما تجعـــل طريقتـــة وأستجاباتة فى المواقف متوافقـــة مـــع توقعـــات الأخـــوين إذا

ماحققت عملية التنشئة وظيفتها للفرد ، ويكون مهيئا للإندماج والإرتباط والإنصهار مع الجماعة والمجتمع (٢).

٢- عملية التكيف الإجتماعى :

يعتبر التكيف الإجتماعى من العمليات الإجتماعية التى تساعد على إندماج الفرد وإرتباطه بالبيئة الإجتماعية ، وبهذه العملية يندمج الفرد مع بيئة الإجتماعية التى يعيش فيها بحيث يصير منسجماً مع أوضاعها ونظمها وبذلك يتم التكيف الإجتماعى من الأنسان بأن يبحث عن البيئية التى تلائمة أو أنة يسعى لخلق البيئة التى تناسبة وبذلك فالإنسان يحاول دائماً أن يطور بيئتة ويعدل منها بما يجعلها ملائمة له . وهذه العملية تعتمد كثيراً على عمليات التنشئة والتربية والتثقيف التى تستهدف تنشئة الفرد وإعدادة وتهيئتة ليصير منسجماً ومتكيفاً مع أوضاع ونظم بيئتة الإجتماعية . والتكيف الإجتماعى بذلك يختلف عن التكيف البيئى الذى يشير للعملية . التى تتم بين الكائنات الحية وبيئتها الطبيعية والتى تسمح البيئة بمقتضاها للكائن الحى لأداء وظائفة والحفاظ على بقائة .

وإذا كانت التنشئة الإجتماعية تلعب دوراً أساسياً فى عملية تطبيع الفرد . وترسيخ أوضاع نظم مجتمعة . وتمثل معاييرة وقيمة وإتجاهاتة ، فإن التربية كعملية تسهم فى تعميق هذه الجوانب بالصورة التى تدعم تكاملة وتخلق لدية الشعور بالإنتماء لمجتمعة وتمثل الأدوار التى يتوقعها المجتمع منة ، وتأتى عملية التثقيف ضمن العمليات المهيئة لتكيف الفرد مع أوضاع ونظم مجتمعة المتغيرة وهى عملية يسهم فيها المجتمع بشكل إيجابى عن طريق وسائل إعلامة بحيث تساعد الفرد على تمثل الأوضاع الإجتماعية والثقافية المتجددة فى مجتمعة لكى لايشعر بوطأتها وبذلك يعتبر التثقيف خطوة أولية للتمثيل ، الذى تتوحد بقتضاة الأهداف والمصالح ومواقف الأفراد بالنسبة

للمستحدثات الثقافية والأوضاع والظروف المستجدة فى حياة الأفراد والجماعات ، ويتم هذا بصورة بطيئة وتدريجية ، وفى ذلك يؤكد كل من "أوجبرن" "ونيمكوف" أن عملية التمثيل تتم بصورة طبيعية إذا لم يكن هناك تنافر بين العناصر الثقافية للثقافات المتفاعلة أوالتى يحدث بينها إتصال وإحتكاك (٣).

٣- التوافق الاجتماعى :

يمكن تعريف التوافق بأنة أحد العمليات الإجتماعية التى تعنى بتقليل الصراع وإستعادة التفاعل السلمى ، وبنظر إلى التنافس والصراع من أى نوع على أنهما أمور طبيعية فى الجماعات ، وتبعاً لذلك تستخدم كلمة "التوافق" لتشير إلى الحلول السلمية أو الإتفاقيات التى يلجأ الناس إليها ليتخلصوا من الإرهاق والتوتر الذى نجم عن التوتر والصراع ، والصور السلوكية التى يلجأ إليها الناس ليتوافقوا مع ظروف الحياة هى : المهادنة أو التوفيق والتحكيم والتسامح :

١- فالمهادنة هى ببساطة إتفاق الكف عن الصراع الدائر على الرغم من عدم حل المشاكل موضع الخلاف .

٢- والتوفيق عبارة عن ترتيب معين يتنازل فيه أحد الطرفين عن بعض مطالبة فى مقابل موافقة الطرف الآخر على التنازل عن بعض مطالبة أيضاً وفى نفس الوقت يحدث تسليم بمطالب الطرفين نتيجة لهذا التوفيق ، ولعل هذا النمط من التوافق من أهم الوسائل التى تلجا إليها الجماعة للإبقاء على تكاملها إزاء المواقف المتعددة التى تعرض لها، وقد تكون مثار خلاف فى الرأى بين الأعضاء .

٣- والتحكيم نوع من التوفيق . ولكن ربما كان له طابع رسمى ولذلك كان التحكيم عبارة عن قبول الطرفين المتنازعين حكم طرف ثالث فى موضوع الصراع ، وقد يكون التحكيم

وديا أو تلقائيا . أو قد يكون "نظاميا" أى يخضع لإجراءات معينة تقوم به هيئة منظمة أو قد يكون ذا طابع إجبارى .

٤- أما التسامح فهو نوع من التوافق حيث تقرر الأطراف المتنازعة أن يكفوا عن الإستمرار فى النزاع دون محاولة من أى طرف للتغلب ، أو تعديل أوقبول أى نمط من أنماط سلوك الجماعات الأخرى التى بدأت بالعدوان أول الأمر ، هذا وقد ينطوى التسامح فى نفس الوقت على قبول أمور صعبة أو غير ملائمة ، لأن قبول عكسها ربما كلف الجماعة مشقة كبرى ، ولذلك تفضل أن تقبل الأمر على علاتة مهما كان فيه من مسائل منفصة .

ونلاحظ أن المجتمعات المختلفة ذات الطوابع الثقافية العامة المتمايزة تختلف من حيث أخذها بأنماط التوافق . فبعضها يميل إلى السير فى النزاع حتى آخر حدودة ، وبعضها الأخر يميل إلى الوقوف موقف الوسط ، كما أن هناك مجتمعات أخرى تميل إلى التسامح والسلام ، ولايقتصر الأختلاف فى التوافق على المجتمع ، بل إنه يمتد إلى المجتمع الواحد ذى الطوابع الثقافية المتعددة ، فالتوافق فى المجتمع الحضرى يختلف عن التوافق فى المجتمع الريفى .

كما أن التوافق عند بعض أقسام السكان يختلف عن التوافق عند أقسام أخرى وفى هذا الصدد تظهر الإختلافات الثقافية والإقتصادية والمهنية والعقائدية والأيديولوجية العامة ، ومع ذلك يمكننا أن نقول بأن التوافق يميل إلى أن يصبح أمرا منظما له إجراءات معروفة وتختص به هيئات محدود كلما تغير المجتمع من البساطة إلى التعقيد (٤).

٤- عملية الصراع الإجتماعى :

كان الإتجاه الرئيسى للتفكير الإجتماعى فى القرن ١٩ يقلل من أهمية الدور الذى يلعبه الصراع الإجتماعى ، ومنذ

" أوجيست كونت " إهتم علماء الإجتماع ببيان النظم الضرورية لتحقيق التكامل الإجتماعى والتجانس ، وأدى ذلك إلى ظهور نظريتين تقومان على فرضين متعارضين ، وقد إفترض الأتجاه المؤيد " لهوبز " أن ثمة حالة إجتماعية أولية يعم فيها حرب الجميع على الجميع ، وقد عزز هذا الأتجاة الفكرة عن الدارونية عن الصراع من أجل البقاء ، أما الماركسيون فيرون أن ثمة صراعاً جذرياً بين المصالح فى المجتمع ينبثق عن علاقات الناس المختلفة مع وسائل الإنتاج يؤدى إلى الصراع الطبقى الدائم (٥).

ولقد إهتم كثير من علماء الإجتماع بدراسة الصراع لتفسير التغير والتقدم الإجتماعى وأشاروا إلى أن الصراع صفة أساسية للإنساق الإجتماعية وجزء أساسى من تركيب التنظيم الإجتماعى ، ورأى أصحاب هذا الأتجاه أن النظرة التى تغفل الصراع عند دراسة العلاقات فى المجتمع ، وعند تفسير التغير الإجتماعى نظرة قاصرة ، فالصراع يولد الشعور باضطرّاد السلوك ويدعم الشعور بالذات . ويبرز حقيقة أن السلوك قائم على دعامة عقلية وبهذا يحقق الصراع التكامل والسيطرة أو التبعية بين الجماعات المتصارعة .

وقد أتجه الإجتماعيون فى دراساتهم للصراع إتجاهات متباينة فالإتجاه بين أن الصراع منبعة إقتصادى . وهو يدور بين الطبقات المختلفة . أما الإتجاهات الغربية فى علم الإجتماع فقد ذهبت إتجاهات أخرى .

- ويرى الماركسيون أن الصراع الطبقى هو أهم صور الصراع ، وينشأ هذا الصراع بين الطبقات الكادحة والطبقات المستغلة فى ظروف تتنافس فيها ملكية وسائل

الإنتاج مع طبيعة نظام الإنتاج وإلى تفاوت توزيع الثروات فتحتكر فئة الربح العائد من العمل لصالح الأقلية ، وتحرم أغلبية من نتاج عملها ، ويدفع نظام الملكية الخاصة المستغلة لوسائل الإنتاج جماهير الكادحين إلى التمرد والنضال والعنف ضد الطبقات المستغلة ، والشعور نحوهم بالكراهية والمقت ، كذلك يشعر أصحاب رؤوس الأموال المستغلين بنفس الشعور تجاه طبقة الكادحين مما يؤدى إلى إيقاف التقدم الإجتماعى ، ويصير نظام الملكية الرأسمالية عقبة دون التقدم الإجتماعى والتكولوجى مما يؤدى إلى تفكك المجتمع ، وقد أعطى الماركسون أهمية خاصة للصراع . فاظهروا وظيفته الإيجابية عندما بينوا أن الطبقة تعرف نفسها من خلال الصراع . كذلك أشار الماركسون إلى التناقض بين مصالح الطبقات الكادحة والفئة المستغلة تناقض جذرى يحل بالصراع الدموى . وثمة تناقضات ثانوية تكمن فى المجتمع يمكن حلها حلاً سليماً(٦) .

❖ بيد أن علماء الإجتماع الغربيين قد أنكروا وجود الصراع الطبقى الناشىء عن الظروف الإقتصادية السيئة ويرون أن الصراع كعملية تنشأ بين عناصر البناء الإجتماعى أى مجموعة العلاقات الإجتماعية المتضمنة بين أعضاء المجتمع وبين البناء الثقافى ، أى مجموعة القيم المعيارية التى تحكم السلوك – وبلغة " ميرتون " يحدث الصراع عند الإصطدام بين الوسائل التنظيمية للبناء وبين الأهداف الثقافية . إذاً إن البناء قد يقف عقبة أمام تحقيق المطالب الثقافية والقيم لبعض الأفراد الذين يشغلون مراكز إجتماعية فى البناء ، والبناء الإجتماعى يؤدى إلى إجهاض القيم الثقافية السائدة ، وبالتالى إلى إنهيارها ، وتسهل الظروف البنائية أداء السلوك لبعض الذين يشغلون مراكز معينة فى

البناء ، أو تعثر أداء أدوار معينة لبعض الذين يشغلون مراكز أخرى أو تجعل أدائها مستحيلا ، ولا يحدث هذا إلاّ فى المجتمع الذى يتسم بالتنافر وعدم التكامل بين البناء الثقافى والبناء الإجتماعى ، حيث يدعو البناء الثقافى إلى مجموعة من القيم والإتجاهات ، ويؤيد نماذج من السلوك يرفضها البناء الإجتماعى .

ويكشف لنا الصراع بين الجماعات عن مجموعة من الأهداف الخاصة بكل جماعة ومجموعة خاصة من الأساليب لتحقيق هذه الأهداف ، ويستمر هذا الصراع الداخلى بين الجماعات ، بلا حل مادامت الجماعات المتصارعة توجه أفعالها وتمتدح أنماط السلوك والقيم والمصالح والأهداف الخاصة بها ، دون إهتمام بمدى توافقها وإنسجامها مع قيم وأهداف الجماعات الأخرى .

وقد إستمر هذا الخلاف حول دور الصراع داخل الانساق الإجتماعية فى علم الإجتماع المعاصر ، سواء فى علم إجتماع الوحدات الصغرى الذى يدرس الأدوار الإجتماعية والعلاقات أم فى علم إجتماع الوحدات والمجتمعات الكبيرة الذى يتسع ليدرس الأنساق الإجتماعية والثقافية(٧) .

أشكال الصراع :

يأخذ الصراع أشكالا مختلفة يمكن أن نميز بينها فقد يتخذ الصراع صوراً شتى ، ويجوز أن يكون محدوداً منظماً ، فعندما يتنافس فردان تنافساً سلمياً للسيطرة على مصادر محدودة ، فإننا نتحدث عن التنافس بدلاً من أن نتحدث عن الصراع ، وعندما يتنازع فردان لهما مصالح متضاربة فى نطاق التبادل فإننا نتحدث عن المساومة ، وحينما توجد المساومة والمنافسة الحرة فى وقت واحد فإننا نتحدث عن

موقف السوق ، ولكن موقف السوق يتحطم إذا وضع قيد المنافسة وشرعت أطراف المساومة فى السوق فى إجبار الغير بالقوة على الخضوع لمصلحتهم الشخصية بفرض العقوبات ، وفى تلك الحالات يفسح موقف السوق مجالاً لموقف الصراع ، ولا يحل هذا الصراع إلاّ بتوازن القوى[٨] .

(أ) الصراع الشخصى :

وهو ما نراه عندما يكره شخصان أحدهما الآخر ، وقد يكون لهذه الكراهية سبب واضح وقد لا يكون ، إذ أن هناك من الأشخاص من يكره شخصاً آخر لمجرد النظرة الأولى ، وقد تنقلب هذه الكراهية إلى صراع يظهر تدريجياً على شكل إدعاءات أو تبادل الشتائم والتهديد ، وقد تنتهى بالأشتباك فى بعض الحالات ، والشائع أن يكون لهذا النوع من الصراع سبب واضح ، ويمكن أن نمثل له بأشكال العداء المتعددة التى نلمسها بين بعض الناس نحو آخرين[٩] .

(ب) الصراع السياسى :

وهو شكل شائع من أشكال الصراع، ويبدو فى مظهرين : أولهما قومى فى داخل المجتمع الواحد ، والثانى دولى بين مجتمع وآخر أو دولة وأخرى ، ويمكن أن نمثل للنوع الأول بما يحدث فى بعض الأحيان بين الأحزاب السياسية ، ويبدو ذلك فيما يتبادله أعضاء الأحزاب المتصارعة من قذف ، أو فيما يستخدمونه من عنف واشتباكات ومهاجمه أماكن الإجتماعات ، أما المظهر الدولى للصراع فيبدو واضحاً فيما تتبادله الدول المتصارعة من إتهامات وتهديد ونقد لسياسة الأخرى ، وقد يكون كل هذا تمهيداً إلى أعمق صور الصراع بينهما ، حتى تعلن إحداها الحرب على الأخرى .

(جـ) الصراع الطبقى :

ويحل هذا الصراع فى المجتمع الواحد كما قد يظهر على نطاق دولى ، وهو يأتى فى العادة نتيجة لشعور إحدى الجماعات بأنها أرقى من الأخرى ، ومحاولة السيطرة عليها لتحقيق مصلحة معينة قد تكون نفوذاً إجتماعياً أو سياسياً أو إقتصادياً ، وقد يأتى هذا الشعور بالرقى على أثر غزو شعب لشعب آخر كما حدث فى الهند عندما غزاها الأوربيين ، وقد كونوا من أنفسهم طبقة حاصة ، وإعتبروا المواطنين الهنود طبقة أخرى – فى مرتبة أدنى – وكان نفس الشيىء يحدث بعد غزو الأوربيين لمستعمراتهم فى أفريقيا وأسيا حيث كانوا يعتبرون أنفسهم الطبقة العليا فى المجتمع ، ويمكن أن تمثل لهذا النوع أيضاً بموقف الطبقة الرأسمالية من الطبقة العاملة ومحاولة إستغلالها ، وما يقوم نتيجة لذلك من صراع بين هاتين الطبقتين يتمثل فى العادة فيما ينشأ من إضطرابات وثورات ، ومن أشهر الأمثلة على ذلك ما جاء فى نظرية كارل ماركس حول ما سينتهى إليه الصراع بين هاتين الطبقتين(١٠) .

٤– الصراع الدينى :

وهو شكل من أشكال الصراع عرفته المجتمعات الإنسانية منذ أقدم العصور ، ولا تزال تعرفه حتى اليوم ، ومن أقدم أشكاله ما عرفته مصر الفرعونية بين عبادة أمون وعبادة أتون فى عهد أمنحتب الرابع ، وذلك حينما حاول معتنقوا العبادة الجديدة القضاء على العبادات القديمة بكل الطرق ، وما قام حول ذلك من صراع بين أبناء الوطن الواحد ، ومن أظهر أشكال الصراع الدينى الصراع الذى قام بين كاثوليك أسبانيا ويهودها فى عهد الملكة إزابيلا ، إلى آخر ذلك مما عرفه التاريخ فى مراحله المختلفة من صراع دينى .

(هـ) الصراع الجنسى : (الأجناس)

وهو شكل من الصراع يحدث عادة بين الجماعات عندما تتصل الأجناس المختلفة بعضها ببعض ، وما يصاحب هذا الإتصال من وضوح الاختلاف بينها ، وأوضح هذه الأختلافات ما تعلق منها بالصفات الجسمية كلون البشرة وشكل العين والشفاه وطول القامة وعرض الرأس ، كما تبدو هذه الإختلافات فى النواحى الحضارية التى تتمثل فى العادات والتقاليد وإختلاف نماذج التصرف إجمالاً ، ولما كان الإنسان ميالاً بطبعه إلى الاستجابة والشعور بالراحة إلى من يشبهونه جسمانياً وحضارياً ، نجد أن هذا الشكل من الصراع كثيراً ما يحدث وبنوع خاص فى الوطن الواحد ، ويكون ظهوره فى العادة نتيجة مباشرة للإختلاف حول المصالح أو نتيجة للشعور بأفضلية أو سمو جنس على آخر، ونلمس هذا الشكل من الصراع فيما يحدث بين حين وآخر بين البيض والسود فى الولايات المتحدة الأمريكية ، نتيجة لشعور البيض أنهم أرقى من السود ، وما يصاحب هذا الشعور من صراع بين الجنسين، كما يمكن أن نمثل لهذا الشكل من الصراع أيضاً بما كان يدور بين سكان أمريكا الشمالية الأصليين من الصفر وبين مستوطنيها من البيض[١١] .

٥- عملية التمثيل :

يستخدم مصطلح " التمثيل " ليشير إلى عملية التكيف المتبادل ، التى من خلالها تقلل الجماعات المختلفة ثقافياً بالتدريج إختلافها إلى الحد الذى لاتصبح معه هذه الإختلافات ذات أهمية إجتماعية ملحوظة ، والتمثيل بهذة المثابة ، مسألة درجة ، فمن ناحية ناحية معينة قد تعتنق جماعة كل ثقافة جماعة أخرى دون أى تعديل ملحوظ فى ثقافة الجماعة الأخيرة ومن ناحية أخرى قد تتبادل جماعتان التأثير بثقافة كل منهما

الأخر ، مما يترتب علية نمط ثالث من الثقافة يختلف تماما عن نمط الثقافة فى كل من الجماعتين المتفاعلتين ، وبنفس الطريقة قد يحدث مثل هذا التفاعل بين أكثر من جماعتين ، وتكون النتيجة ظهور ثقافة مختلفة تماماً عن ثقافات الجماعات المتفاعلة جميعاً .

وبين هذين الطرفين اللذين أشرنا إليها فى التمثيل تكمن كل دراجاتة المختلفة ، ويظهر ذلك عندما لايكون التمثيل كاملا ، فيترتب عليه ظهور كل العمليات السابقة بصورة أو بأخرى (١٢).

إن عملية التمثيل تعد من العمليات الإجتماعية الأساسية فى المجتمع وذلك لأنة يساعد على تحقيق الوحدة بين أعضاء المجتمع من الأفراد والجماعات من حيث الأغراض والأهداف والمصالح ، ويظهر التمثيل بشكل أوضح فى حالة المهاجر من ثقافة إلى ثقافة أخرى غربية عنة ، مثل حالة المهاجر من بيئة عربية إلى ثقافة أخرى غريبة عنة ، مثل حالة المهاجر من بيئة عربية إلى ثقافة أمريكية ، فإنة يواجة مشقة كبيرة فى ظروف الثقافة الجديدة لأنها غريبة عنة ، وعندما يختلط بالثقافة الأمريكية ويمتزج معها يمكنة بالتدريج أن يتمثل الثقافة الأمريكية ، ولاتقتصر عملية التمثيل على حالات الإختلاط بثقافات أجنبية ، بل تحدث أيضاً فى حالات الزواج ، إذ أن الزوجين قد يواجهان بعض الصعوبات فى بداية حياتهم لإختلاف الطباع وأنماط السلوك ، وبعد فترة من إختلاطهما واندماجهما فى حياتهما المشتركة يتم تماثلهما ويتحقق التفاهم فيما بينهما ، وبذلك تكون عملية التمثيل نتيجة نهائية للإحتكاك (التفاعل) الإجتماعى ، إلا أن ذلك يعتمد على عمق (التفاعل) الإحتكاك الإجتماعى والثقافى (١٣).

٦ – التغير الإجتماعى :

يعتبر موضوع التغير الإجتماعى أهم الموضوعات التى شغلت علماء الإجتمـاع ، بالإضافة إلى تعـدد النظريـات (السوسيولوجية) التى تحاول تفسير أسباب التغير الإجتماعى . ومن العلماء من يعرف التغير الإجتماعى بأنة " التحول فـى أنماط البنـاء الإجتمـاعى والـنظم الإجتماعيـة ، والسـلوك الإجتماعى على مر الزمن " كما يعرفه علماء أخـرون بأنـه " التحول فى البناء الإجتماعى فى إتجاه معين " بينما نجد أن هناك من يعرفه بأنه " التغير فى حجم وتكوين وتنظـيم المجتمـع ، بالإضافة إلى التغير فى العلاقات بين الأفراد والجماعـات " . ويتضح من التعريفات السابقة ، أن التغير الإجتماعى يشير إلى العمـلية التى عن طريقها يحدث تحول أو إختلاف أو تطـور، سواء فى البناء الإجتماعى أو العلاقات الإجتماعية ، خلال فترة من الزمن ، ونلاحظ أن هذا التغير الإجتماعى ليس إلا جـزءاً من عملية أكبر وأوسع من عمليات التغير فى المجتمع ، وهـى تلك التى يطلق عليها إسم التغير الثقافى ، والتـى تشـير إلـى التغير فى المجتمع .

ومن الملاحظ أن المجتمع الإنسانى شأنه فى ذلـك شـأن الأفراد ومظاهر الطبيعة الأخرى ، فى تغير دائم ، إذ أن التغير سنة من سنن الوجود ، ولا يأخذ التغير صورة واحدة فى جميع الأحوال ، فتارة يكون هادئاً ، يحدث تدريجياً بشكل يكاد يكـون لا شعورياً ، وتارة يكون عنيفاً جارفاً ، وقد يكون التغير شاملاً عاماً ، وقد يقتصر على ناحيـة أو عـدة نـواح مـن الحيـاة الإجتماعية .

وقد شغلت حقيقة التغير الإجتمـاعى عقـول كثيـر مـن المفكرين ، ولا تزال تثير عدداً كبيراً من المسائل والتسـاؤلات التى لم يجد لها علماء الإجتماع حتى الآن إجابات شافية ، ومن

أمثلة هذه التساؤلات : ماهو الإتجاه الذى يسير فيه التغير الإجتماعى ؟ وهل يتجه نحو هدف معين ؟ وماهو الشكل أو الأشكال التى يتشكل بها التغير الإجتماعى ؟ وهل التغير فى عصرنا الحالى أسرع مما كان عليه فى الماضى ؟ وهل سيكون التغير فى المستقبل أكثر سرعة مما هو عليه الآن ؟ وما هو مصدر التغير الإجتماعى (١٤) ؟ .

ولا يمكن دراسة التغير الإجتماعى دراسة صحيحة إلا فى علاقته بجماعة إجتماعية محددة ، أى أن الدراسة يجب أن تتم على مستوى معين من المستويات الإجتماعية ، فالشئ الذى يعد ثورته ، قد لا يعد على مستوى آخر سوى ظاهرة شاذة أو طارئة قليلة الشأن محدودة المخاطر ، فالتغير الذى يحدث على مستوى الأسرة (مثل : نمو الأطفال ، والآثار المترتبة على ذلك بالنسبه لسائر أفراد الأسرة) لايعد تغيراً بالمعنى الصحيح بالنسبة للقبيلة أو بالنسبة للمجتمع الكبير ، ويجب أن نحرص عند تحليلنا للأنساق الإجتماعية الكبرى والصغرى على أن نوضع علاقات الإعتماد المتبادل بين مكونات النسق الإجتماعى(١٥).

ويوصف أحد أجزاء النسق الإجتماعى بأنه وظيفى (أى يؤدى أداءً وظيفياً سليماً) عندما يساهم فى أداء النسق كله لوظيفتة فى المجتمع ، أما الإختلال الوظيفى فيحدث عندما يعمل أحد أجزاء النسق الإجتماعى على تعويق أداء هذا النسق لوظيفتة ...، وإذا كنا نحلل الأداء الوظيفى لجزء من أجزاء النسق الإجتماعى من جوانبه الإيجابية والسلبية أو المحايدة ، فعلينا أن ننتبه إلى ملاحظة الوظائف الظاهرة والوظائف الكامنة، فلا نكتفى بتسجيل الوظائف الظاهرة فقط ، والوظائف الظاهرة هى تلك الوظائف المستهدفة (أى المقصودة) والمعترف بها علناً من الجميع ، أما الوظائف الكامنة فهى تلك

التى ليس معترفا بها صراحة ، وقـد لاتكـــون مقصـودة بـوعى [١٦] .

أن التغير فى القيم والمعايير الثقافية يمثل أهم أنواع التغير الإجتماعى ، وهذا النوع من التغيير يتم ببطء شـديد ، وكثيراً ما لا يلاحظة أفراد المجتمع ، بل أنهم ينكرونه أحيانا ، والقـيم مفاهيم فضفاضة غير محددة تحديداً دقيقـا مثـل : الحريـة ، والإخاء والمساواة ، وإحترام الإنسان والعلم ....، ويختلف فهم كل قيمة من تلك القيم من عصر إلى عصر ومن جماعة إلـى أخرى ....، أما تغير النظم الإجتماعية يمكن أن نتعرف عليـه من خلال التغيرات التى تطرأ على الأبنيـة الواضـحة علـى مستوى المجتمع كالنظم السياسية والإقتصادية والعائلية والتـى تكون محددة فى قوانين أو نظم مقررة ، ذلك أن تغيـر الـنظم الإجتماعية يتصل بالفرد من حيث أنه ينطوى على تغيير قواعد الدور أو تعليمات أداء الدور [١٧].

إن التحول فى النظام الإجتماعى يعتبـر صـورة مميـزة للإنسان وحده ، ولهذا السبب تعد المجتمعات الإنسانية أنسـاقا إجتماعية ، لأن الأنساق الإجتماعية ينبغـى أن تتطـابق مـع مواقف جديدة تخلقها عناصر نشطة داخل الأنساق نفسها ، ومن خلال تلك العملية تصل الأنساق إلى مرحلة جديدة أو مسـتوى جديد يختلف عن المراحل الأولى ، وهذا يصـدق علـى كـل مجتمع إنسانى [١٨].

ويذكر "روبرتسون" ، أن هناك مصادر كثيـرة متداخلـة ومتعددة للتغير الإجتماعى ، ومن أهم هذه المصادر :

١- **البيئة الجغرافية** : وما تتضمنة من مناخ وتضاريس ، وتربة ، ومواد أوليـة وجميعهـا تـؤثر فـى مـدى التغيـر الإجتمـاعى [١٩] ، فالتغير فى المناخ قد يؤدى إلـى تغيـرات هامة فى المجتمع ، كذلك أحدثت الهجرات التاريخية الكبـرى

تغيرات هامة فى البيئة أو استثمار مصادر الثروة والطاقة ، وكذلك تؤثر الهجرات على تركيب السكان فى المجتمع ، وما يترتب على ذلك من نتائج سياسية وإقتصادية وعسكرية [٢٠].

٢- **الأفكار** : إذا أنها يمكن أن تكون أحد مصادر التغير الإجتماعى عن طريق تفاعلها مع المصادر أو العناصر الأخرى المسببة للتغير .

٣- **التكنولوجيا** : فهى عادة السبب المباشر للتغيرات الإجتماعية والثقافية التى تحدث فى المجتمع ، وغالباً ما يترتب عليها حدوث تلك العملية الثقافية التى يطلق عليها الهوة أو التخلف الثقافى .

٤- **التجديد الثقافى** : الذى يأخذ أشكالاً متعددة مثل الإكتشاف والإختراع .

٥- **الفعل الإنسانى** : بمعنى أن أفراد الجماعات والهيئات (مثل الحكومة) تستطيع أن تؤثر تأثيراً كبيراً فى عملية التغير الإجتماعى .

ويتضح من مصادر التغير الإجتماعى السالفة الذكر ، أن هناك مصادر مختلفة للتغير الإجتماعى ، بعضها خارج عن نطاق الإدارة الإنسانية ، مثل البيئة الجغرافية ، وما تتضمنة من عوامل طبيعية مختلفة كالمناخ والتربة ، وبعضها الأخر يرجع إلى النشاط الإنسانى والعوامل الإجتماعية والثقافية المختلفة ، ويجب إدراك أن التغير يحدث فى المجتمع نتيجة لكثير من العوامل المتداخلة التى يؤثر بعضها فى البعض الأخر، من عوامل إجتماعية وثقافية وإقتصادية وسياسية [٢١].

المراجع

(١) محمد سعيد فرح : ما علم الإجتماع ، مرجع سابق ص ٢٣٧-٢٣٨ .
(٢) فادية الجولانى : مبادئ علم الإجتماع ، مرجع سابق ص٣٣٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٣٨ .
(٤) محمد عاطف غيث : علم الإجتماع ، دار المعرفة الجامعية الأسكندرية ١٩٨٣ ص ٢٠٨ .
(٥) محمد سعيد فرح : ما علم الإجتماع ، مرجع سابق ص ٢٤٤ .
(٦) محمد سعيد فرح : المرجع السابق ص٢٤٥ .
(٧) محمد سعيد فرح : المرجع السابق ص٢٤٦ .
(٨) المرجع السابق ص٢٤٦ .
(٩) عبد الحميد لطفى : علم الإجتماع ، دار المعارف القاهرة ١٩٧٨ ص١٤٠ .
(١٠) عبد الحميد لطفى : المرجع السابق ص١٤١ .
(١١) المرجع السابق : ص١٤٢ .
(١٢) محمد عاطف غيث : علم الإجتماع ، مرجع سابق ص٢١٠ .
(١٣) فادية الجولانى : مبادئ علم الإجتماع ، مرجع سابق ص٣٤٠ .
(١٤) طلعت إبراهيم لطفى : مبادئ علم الإجتماع ، مرجع سابق ص١٥٢ .
(١٥) محمد الجوهرى : علم الإجتماع-النظرية ، الموضوع ، المنهج ، دار المعارف الإسكندرية ١٩٩٧ ص١٩٠ .
(١٦) محمد الجوهرى : المرجع السابق ص ١٩١ .
(١٧) محمد الجوهرى : المرجع السابق ص ١٩٥ .
(١٨) محمد سعيد فرح : ماعلم الإجتماع ، مرجع سابق ص٢٦٠ .
(١٩) طلعت لطفى : مرجع سابق ص١٥٣ .
(٢٠) محمد سعيد فرح : مرجع سابق ص٢٥٩ .
(٢١) طلعت لطفى : مرجع سابق ص١٥٤ .

الفصل السادس

المفاهيم

١ – مفهوم الثقافة .

٢ – مفهوم القيم الثقافية .

٣– مفهوم التغير الثقافى .

المفاهيم الأساسية

أولا : ماهية الثقافة :

الحديث عن ماهية الثقافة Culture لم يهدأ بين المهتمين بالدراسات الاجتماعية منذ الشطر الأخير من القرن الماضي وحتى الوقت الحالي ، حيث لم يحظى حتى الآن بتعريف محدد يتفق عليه المتخصصون فى تلك العلوم ويشتمل على قدر ملحوظ من الاختلاف احيانا والتداخل أحيانا أخرى . والثقافة قد تكون مرادفا "للتراث الاجتماعى " عند بعض المهتمين بالدراسات الاجتماعية

Social Herdity ·والتى تعنى مجموعة الخصائص الاجتماعية المتوارثة فى مجتمع ما عبر العصور ، وقد تعنى الثقافة Culture الأشياء التى يتعلمها الناس حين يتدربون داخل مجموعة بشرية معينة ، كما تطلق الثقافة كذلك على محصلة المقومات التى تشكل وحدة نوعية متكاملة هى التى نعبر عنها بالفاظ مثل الاسكيمو أو الهند أو الزولو أو الفرنسيين أو غيرها [١] .

وهناك تعريفات ينظر اليها على أنها تجمع فيما بين الاتجاهات الرئيسية التى ظهرت فى صدد تعريف الثقافة ، فيحدد تايلور ماهية الثقافة بأنها ذلك الكل المركب That Complex Whole . الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والقانون والاخلاقيات والتقاليد وكل القدرات التى يكتسبها الانسان كعضو فى المجتمع [٢] .

ويذهب مالينوفلسكى Malinovski فى تعريفه لماهية الثقافة الى : أنها تضم الحرف المتوارثة والسلع والأساليب التقنية والعادات والتقاليد والأفكار والقيم ، ويلاحظ ان هذا التعريف يدور حول المقومات الفكرية والمشاعر وما ينتج عنهما من ممارسات [٣] .

ويعرف الان بيلز Alan Beals الثقافة بوصفها تعبير عن التراث الثقافى ليشير به الى الأفكار والمشاعر والممارسات التى يكتسبها الانسان

---

(١) Alan.R.Beals and others: Culture in Process stan-dfard unviersity (Uith Geary and lauis spinlder) New York. 1976.p.5.

(٢) Audrey I. Richarads: The concept of culture in Malinovzki , Worke op. cit.p: 16.

(٣) Alan.R. Beals and others : Culture in Process... op. cit. p.5.

كعضو فى انساق اجتماعية Social Culture System ·ويستخدم بيلز تعبير النسق الثقافى Culture system ليعنى به الصفات الدينامية الايجابية والفعالة للثقافة ·وذلك لأن الانساق الثقافية غير ثابته فهى فى حركة مستمرة تنمو وتتقلص وتمتزج ببعضها وتؤثر فى بعضها وذلك وفقا للتغيرات التى تطرأ على المجتمع كعمليات الانتقال من الريف الى المدينة والتطور التكنولوجى والاحتكاك بمجتمعات أخري وذلك حتى تتسق الثقافة مع المحيط الذي توجد فيه (١) .

ويذهب روبرت ردفيلد R.Redfield فى تعريفه للثقافة الى أنها المجموعة المنظمة من المفاهيم التقليدية التى تظهر فى الفن والحرف والتي عن طريق دراستها من خلال التقاليد تميز الجماعة الانسانية (٢) ·ومن ثم فان الثقافة عند ردفيلد — كما يذهب اوجبرن — كل له وجهان مادي وغير مادي ·ففى العائلة تكون المساكن والاثاث والطعام ممثلة فى الجانب المادي ، ويكون الزواج والسلطة الأبوية أو تعدد الزوجات مثلا عن الجانب اللامادي ·وأن هذين الجانبين مرتبطان ولا يمكن فصلهما الا لهدف الدراسة (٣) .

ويعرف كلاكهون Klluckhon الثقافة بأنها تعنى :

" كل أساليب الحياة التى انتجها الانسان خلال التاريخ ·الظاهرة والكامنة والرشيدة والتى توجد فى وقت معين بوصفها موجهات للسلوك الانسانى ،ويوضح هذا التصور للثقافة مدي تنوع السلوك الانسانى حينما ندرك ان لكل مجتمع ثقافته الخاصة أو اساليب الحياة التى يطورها وينقلها الى الأجيال المختلفة (٤)

(١) Alan.R.Beals, Culture in Process: op.cit. p. 246.

(٢) Ogburn, Nimkoff: Handbook of sociology London, 1955. pp.15.16.

(٣) Ibid : pp: 24.25.

(٤) International Eneyclopedia of the social science (Culture) Nol 3 pp:3-5.

وحينما نتناول مفهوم الثقافة ينبغى أن تشير الى التيار الثقافى العـــام الذي يتصف بالشمول ويتخلل كافة الثقافات المحلية الأخري ، حيث يتعيـــن أن نعترف بما يعرف اصطلاحا باسم " تعددية الثقافات المحلية بوصفها كيانـــات " وظيفية منظمة " وهذا هو الاستخدام الذي برز بعد ظهور تعريف تايلور Tylor كرد فعل نقدي لهذا التعريف عند المتأخرين من علماء الانثروبولوجيا الثقافية ، حيث امكن من خلال هذا الاستخدام اعادة النظر فى المسلمات الثلاث التى ارتكز عليها الفكر الاجتماعى فى القرن التاسع عشر والتى تزعم بان هناك وحدة نفسيـــة بين الجنس البشري ووحدة فى الثقافة ووحدة فى التاريخ البشري (١) .

واتجه الاهتمام بدلا من هذه العموميات، نحو الدراسة الحقلية المركـــزه والمقارنة لمجتمعات وثقافات بعينها ، وكان ذلك نتاجا مباشرا للثورة التـــى تزعمها فرانس بواس F.Boas فى ميدان الانثربولوجيا ، حيث أخذ الاهتمـــام بالنظريات العامة يبعث من جديد ، حيث تزعم رادكليف براون حركة تطـــور الانثربولوجيا ، ووضع الأساس الذي اقيم عليه الفصل بين الانثروبولوجيا الاجتماعية ، بوصفها تمثل الدراسة المقارنة للبناءات الاجتماعية ، وبين الاثنولوجيا والانتروبوجيا الاجتماعية التى تختص بدراسة الثقافة دراسة تاريخية ومقارنة (٢) .

ويعدّ رادكليف براون من أولئك الذين اهتموا بدراسة البناء الاجتماعـــى والمنتمين الى فرع الانثربولوجيا فى الوقت الذي ينظر فيه الى مالينوفسكـــى Malinowski على أنه يهتم بدراسة الثقافة Culture وينتمى الى تيـــار الانثربولوجيا الثقافية ، الا أن التعارض فى الولايات المتحدة بين الاتجاهيـــن كان متمثلا فى النشأة النظامية لكل من علمى الاجتماع والانثربولوجيا ، وظـــل

---

(١) محمد على محمد : المجتمع والثقافة والشخصية ، دار المعارف، الاسكندرية : ١٩٨٣ ، ص ص ٣٠٧ ـــ ٣١٠ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٠٧ .
(٣) المصدر السابق .

التنافس حتى اعترف عالم الاجتماع الامريكي بارسونز Parsons بأهمية العلاقة المتبادلة - التأثير والتأثر - بين الثقافة والمجتمع [١] وينظر بارسونز الى "الثقافة كنتاج من ناحية، وكعامل محدد من ناحية أخري لانساق التفاعل الانساني" وأن الثقافة تتناقل، وتتعلم وتصبح مشتركة بين الناس وهو ما يتمشى مع الاتجاه الانثروبولوجى التقليدي. [٢]

بيد أن بارسونز شأنه شأن كثير من علماء الانثروبولوجيا الثقافية، حيث يعتبر الثقافة انماطا أو انساقا منمطة من الرموز، وتمثل هذه الرموز موضوعات التوجيه عن الفاعلين، ولا تفسر الثقافة كنسق امبريقي - كما يصف كلا من الشخصية والمجتمع - وانما كنوع من التحديد لبعض عناصر هذه الانساق، بيد أننا لو رددنا الثقافة الى رموز لما تبقى للرموز الثقافية شيء ترمز اليه [٣] .

ويعتبر فلوريان زينانكي Florian Znanicki الثقافة مفهوما شاملا يتضمن الدين ، واللغة، والادب، والفن، والعادات ، والسنن، والقوانين ، والتنظيم الاجتماعى ، والانتاج الفنى والتبادل الاقتصادي والفلسفة والعلم ، اما المجتمعات فتعتبر كليات مستقلة ذات انتشار اقليمي محدود تتضمن كلا من الكائنات البشرية والثقافات المتكاملة، ويعين - زنانكى - شأنه شأن بارسونز " الفعل " كوحدة للتحليل السوسيولوجي ويعرف الفعل بأنه سلوك" واع" وهو رأي يتعارض مع الاتجاه السلوكي. [٤]

---

(١) Sehneider and Charles , Bongean, idea of Cultur in the social sciences,Cambridge unive- rsity Press.1973-pp: 115-118.

(٢) T.Parsons , The social system: the free Parsons 1951-38-53.

(٣) David Biendy, Thuaretical AnthropologyNew York Columbia University press,1953.p.157.

(٤) نيقولا تيماشيف: نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها ،مرجع سابق ص ٤٢٠.

ويذهب فيبر Weber الى أن الثقافة Culture تختلف عن الحضارة من نواح كثيرة فالعملية الثقافية تتميز بالابداعية والمنتجات الثقافية متميزة وفريدة ، والثقافة فى جوهرها تتألف من العالم والشخصية الفردية ، وتتضح فى الدين والفن والفلسفة وهى مجالات الفن أو الابداع الحقيقى . ولا تعرف هذه الميادين انماطا محددة سلفا ولا معايير لازمة وصادقة بالنسبة للجميع كما هو الحال بالنسبة لتكنولوجيا الحضارة ولا قوانين قابلة للتطبيق وانما تحكم عمليات النمو والافول " (١) .

والثقافة فى معناها العام تشير الى اساليب الحياة التى تنتشر فى كافة المجتمعات الانسانية خلال فترة زمنية محددة مع الأخذ فى الاعتبار الا تخلط بين الثقافة كمفهوم تجريدي للسلوك وبين الأنشطة والأفعال الفردية المادية والتى جاءت فى صورتها المصنعة نتيجة لانماط معينة من السلوك الانسانى فالانسان يحقق توافقا جمعيا من خلال الثقافة مع البيئة المحيطة والظروف التاريخية . الامر الذي يجعلنا نفهم الثقافة على أنها استجابات توافقية لمثل هذه الظروف (٢) .

بيد أن الثقافة من وجهة نظر الاتجاه الراديكالى ترتبط بالفلسفة الجدلية الشاملة التى صاغها الفكر الماركسى حول قضايا الانسان والمجتمع وعناصر البناء الاجتماعى والعوامل الحاسمة فى التغير الاجتماعى والعلاقة بين الوجود والوعى الاجتماعى ، وأن الثقافة تنطوي على كل الانجازات الابداعية

(١) R.M. Maciver and C,H page, society:An intraductory Analysis (New York) Riesehart 1949 Chepes XXI and XXII

(٢) Ralphe E.Beals, Fifty Years in Anthropology, in Annual rieviewof Anthropology .NOI.II, University of California. 1982pp:1-20.

التى قدمها الانسان عن طريق الممارسة التاريخية وتنعكس فى القيم الماديــــة والروحية والخبرات الاجتماعية والتقاليد وكل الأساليب التى يخلقها الانســـان وينقلها من جيل الى جيل ، وأن الثقافة تعد عنصرا من عناصر النشاط الانسانى ، وأنها أيضا نتيجة لهذا النشاط ، وأنها تتطور وتتحقق من خلال عملية العمـــل عبر عملية تاريخية (١) .

وتعد أفضل صياغة للموقف الماركسى فى جوهره الحقيقى من مسألــــة الجوانب المادية والثقافية ومدي ارتباط الأولى بنوع من الحتمية ، تلك الصياغـــة التى قدمها التوسير Althusser حيث يفترض تصورا للعلاقة بين البنـــاء التحتى والبناء الفوقى يرتكز على مبدأين اساسيين اولهما الاستقـــلال النسبى للبناءات الفوقية وتأثيرها أو نتائجها المحددة . وثانيهما أن التأثير الحتمـــى يكون عادة لأسلوب الانتاج الاقتصادي (٢) .

والمنطلق الاساسى لدي الماركسية يذهب الى أن الانسان يولد متعدد الملكات ، غير انه فى الاطار الرأسمالى يعانى من الاختزال الكامل لهويته . ومـــن ثم فان احد الأهداف الاساسية لماركس هو توضيح كيف ان البناءات الاجتماعيـــة المتباينة تقهر البشر وتفرض عليهم ان يتصرفوا باسلوب مختلف عن الآخـــر أن لم يتناقض معه وخاصة فى الانساق الرأسمالية ، حيث تفرض عليهم ان يتصرفوا بمـــا يخالف طبيعتهم الاساسية ، ومن ثم فان مهمة النسق الرأسمالى ان يحول الانسان من وجوده الكلى الى وحدة جزئية تابعة عبر عمليتين تتعلق الاولى بالطبيعـــة

---

(١) Marx , K: " Prefece to a Contribution to the critigue of palitical Economy " in: Marx:Engls, Lenin , one historical materialism: Collection ; p. 137.

(٢) Althusacr laus: for Marx, New York Vintage Books, 1970. p. 111.

البشرية والثانية بالعملية التاريخية ويكشف ذلك عن ان اساس الظواهر الثقافية يكمن فى الظروف الحياتية الاقتصادية التى يعيش الناس فى اطارها والتى تشكل اساليب حياتهم، ومن ثم فان الثقافة ترتبط بمراحل نمو المجتمع كما تذهب المادية التاريخية (١) . وبناء على ذلك فانه لكى نفهم الثقافة لا ينبغى ان نتناولها منفصلة عن طبيعة التكوين الاجتماعى والاقتصادي التى توجد فيه ، بل حيث يجب أن تنظر اليها فى علاقتها بالنشاط الانتاجى للأفراد وبالعلاقات الانتاجية بينهم . ولا يعنى ذلك انعكاسا اليا لأسلوب الانتاج السائد فى المجتمع فقد تمارس تأثيرا على سلوك الافراد فى المجتمع ، وقد يكون لها تأثير موجه أو معوقا للنمو الاقتصادي ، ولكنها لا تمثل العامل الحاسم او النهائى فى عملية التطور الاجتماعى .

ثانيا : القيم الثقافية :

مفهوم القيم الثقافية من اكثر مفاهيم العلوم الاجتماعية غموضا وارتباطا بعدد كبير من المفاهيم الأخري كالاتجاهات والمعتقدات والدوافع والرغبات ، ويرجع هذا الغموض الى أن المصطلح مرتبط بالتراث الفلسفى من جهة ، ويعبر عن أرض مشتركة بين مجموعة من العلوم من جهة أخري ، ومع ذلك فهناك اتجاه نحو التخصص فى دراسة القيم أصبح معروفا باسم نظرية القيمة Theory of value وهى حركة علمية تستهدف صياغة عدد محدد من القضايا والمشكلات التى تثيرها دراسة القيم (٢) ومن القيم التى تركز عليها الدراسة الراهنة قيمة الأرض وقيمة

---

(١) Atksinson, Dick: orthodox concensus and Radical Alternative, Astudy in sociological theory Heinman Educational Books, London 1972. pp: 35:38.

(٢) Stephen C.Pepper: The sources of value university California press, 1958, p:7.

الانتاج وقيم التعليم والزواج والقيم العائلية والقيم السياسية ، وتغير هذه القيم في ظل التغيرات التى حفل بها المجتمع فى حقبة السبعينات نظرا لتغير الجوانب الاقتصادية وتبعيتها وسيطرة نمط الانتاج الرأسمالي الذي أسهم فى تغير كثير من القيم القروية.

وأهمية دراسة القيم لا تقف داخل نطاق الفكر الفلسفي وحده بل تتعداه ، فالقيم من المفاهيم الجوهرية في جميع ميادين الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وهى فى العلاقات الانسانية فى كافة صورها. ذلك لانها ضرورة اجتماعية ، ولأنها معايير وأهداف لابد أن نجدها فى كل مجتمع منظم ، فهى تتغلغل فى الافراد فى شكل اتجاهات ودوافع وتطلعات، وتظهر فى السلوك والمواقف التى تتطلب ارتباط هؤلاء الافراد ، وتعبر القيم عن نفسها فى قوانين وبرامج التنظيم الاجتماعي والنظم الاجتماعية (١) .

ويكشف التراث الخاص بالقيم ان مفهوم القيم قد استخدم عموما ليشير الى معنيين رئيسيين ، أحد هذين المعنيين يتضح حينما نقول "أن شخصا ما له قيمة او لديه قيمة معينة" والآخر حينما نقول " أن موضوعا ما له قيمة " وهو ما يكشف أن التراث الخاص بالقيم ذو مدخلين احدهما يهتم بمسألة القيم من وجهة نظر الموضوعات وما تنطوي عليه من قيمة. واما المدخل الآخر فانه يركز على دراسة القيم كما يتبناها الأشخاص، وأن القيم بما يتبناها الأشخاص، ويفصحون عنها فى تعبيراتهم وانماط سلوكهم واختيارهم بين البدائل تمثل معايير اومستويات يتم فى ضوئها تقييم الأشياء او الموضوعات. (٢)

والقيم الاجتماعية التى يتبناها الأشخاص مصدرها الثقافة والمجتمع

---

(١) Hirtjler, j.o, social institutions, op,cit,p.311

(٢) Milton, Rokach: The nature of Human Value, the free press, op, cit, p.3.

وانظر عبد الباسط عبد المعطى : عرض تحليلى لمفهوم القيمة فى علم =

والخبرات والتغيرات التى تطرأ عليهم ، وأنه اثناء التغيرات الكبري تتفاعل الظروف بطريقة أو بأخري ، ويتأكد الدور الاجتماعى للصفوات المسيطرة فى دعم مجموعة من القيم وتحاول الجماعة المسيطرة أن تربط قيمها ومصالحها بقيم ومصالح المجتمع حتى يكسبها مزيدا من الدعم لوضعها المسيطر ، وهو ما يعنى انه من الضروري عند دراسة موضوع القيم الاجتماعية المرتبطة بالتغيرات البنائية ان نهتم اهتماما خاصا بالبناء الطبقى وبتحليل الدور الاجتماعى للطبقات المسيطرة فى صلته بمدي مرونة أو جمود نسق القيمة ووظائفه (١)

وقد نظر الفلاسفة التقليديون الى القيم من خلال علم الأخلاق بوصفه علما معياريا ، ومن ثم تصوروا ان مهمة علماء الاخلاق انما تنحصر فى وضع المثل الأعلى وبيان الكمال الاخلاقى ، وهو ما يتفق مع ما ذهب اليه "افلاطون" فى نظرته الثابته والمطلقة للقيم غير انهم اختلفوا فى تعيين مستوي الخيريه (٢) .

ويذهب رالف لنتون R.Linton الى أن القيمة قد تعرف باعتبارها أي عنصر يشيع فى سلسلة المواقف ، ويكون قادرا على اثارة استجابة مستترة فى الفرد ، الا أن هذا التعريف يخلط بين القيم والثقافة ، وأن القيم كما يذهب كلاكهون Kluckohn تتحدد بنماذج السلوك التفضيلى الذي يقوم على تصورات لما هو مرغوب فيه ، كما انها تنظر الى الفعل وخاصة الى الاختيارات التى تتم من جانب الأفراد الفاعلين (٣) .

= الاجتماع ، المجلة الاجتماعية والقومية ، المجلد السابع العدد الأول ، يناير ١٩٧٠ ص ١٠٢ .
— صلاح قنصوه : القيم بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية ،الفكر المعاصر يناير ١٩٧٠ ص ٣٠ .
— محمد على محمد :المجتمع والثقافة والشخصية مرجع سابق ص ٢٥٥ .

(١) المرجع السابق ص ٣٥٦ .

(٢) توفيق الطويل ، مصدر سابق ص ٦٥ ،زكريا ابراهيم ،الاخلاق والمجتمع ،مرجع سابق ص ص ٤—٨ .

(٣) C.Kluckohn, et, al., op.cit,pp:422,423.

واهتم روفيلد بالقيم الاجتماعية فى دراساته القروية التى اجراها على مجتمعات قروية فى المكسيك حيث يعتقد انه وجد مجموعة من القيم والاتجاهات القروية القديمة والحديثة وتتلخص فى ارتباط القروي بالارض الى حد قداستها وتبجيل العمل الزراعى والارتباط بالشعور الدينى واحتقار سكان المدن ،كما انهم غير قادرين على مزاولة العمل الشاق فى العمل الزراعى واحتقار الأعمال التجارية ، ويذهب روفيلد الى أن نموذج التفكير والشعور الذي ينبثق يبدو ممكن التطبيق ، فالقروي يبدو انه نموذج انسانى متعارف عليه منتشر ودائم [1] وتؤكد الدراسات التاريخية وجود هذه العقلية ، حيث انه هناك نموذجا لشخصية القروي (اسلوب الحياة) حيث توجد اتجاهات رئيسية تؤكد اتجاها محليا ونفعيا ازاء الطبيعة تعكس الارتباط بالارض والعمل الزراعى والاعتماد الكامل على البيئة التى يعيش فيها والتكيف معها [2] .

والقيم هى معتقدات مصدرها الثقافة والتفاعل الاجتماعى بين الأفراد ، وبين خبرات حياتيه ، حيث ميز ميلتون وركتش Milton. Rokeach بين ثلاثة من المعتقدات وهى المعتقدات الوصفية والمعتقدات التقويمية والمعتقدات الآمره الناهية ،والمعتقدات الوصفية قد تكون خاطئة او صحيحة ، والمعتقدات التقويمية وهى التى يتم على أساسها حكمنا على موضوع المعتقد على أنه حسن أم غير ذلك ، والمعتقدات الآمرة الناهية والتى يتم فيها الحكم على الوسائل أو الغايات على أنها مرغوبة أو غير مرغوبة ، والقيم تعد معتقدات من النوع الأخير حيث يتم تفضيل الأشخاص لأفعال معينة دون الأخري ، والقيم كالمعتقدات تنطوي على ثلاثة عناصر هى العنصر المعرفى : فهى معرفة لما يرغبه ويفضله الفرد ، والعنصر السلوكى وذلك من خلال متغيرات وسيطة تحفزه الى الاتيان

---

(١) R.Redfield : op.cit pp:112-114.

(٢) R.Redfield: The Primitve mind and its transformation (Gret scols books) Gornal Univ.Press 1957. pp.38-39.

بسلوك معين، والعنصر العاطفي حيث يستشعر الفرد مشاعر معينة ازاء هـــذه القيمـة (١) .

وثمة تمييز وتصنيف للقيم أولها : حيث لجأ عدد من المفكرين الى توضيـح القيم من خلال المثل العليا المحددة مثل دوركايم والثاني : حيث حاول بعـض المفكرين توضيح مفهوم القيم عن طريق الاغراض والمصالح والاتجاهات مثل رالـف لنتون الذي يربط بين القيمة والمصلحة والثالث: يحدد القيمة من خلال بعـض الحاجات النظرية والحيوية وذلك من خلال البناء الداخلي للانسان لا من خلا الموضوعات حيث ارجع سمتر القيم الى البواعث الانسانية التى تعد مصدرا لكـل النظم وانماط السلوك الانسانى ، والرابع: والذي يوضح القيم من خلال الأفعـال التى يأتى بها أعضاء الجماعات ويقرها المجتمع، ومصدر القيم الجماعة الاجتماعيـة من ناحية والبناء الاجتماعى والثقافى للمجتمع ككل من ناحية أخري مثل بارسونـز حيث يذهب الى أن القيم تمثل ظاهرة اجتماعية ثقافية مصدرها البناء الثقافـى والذي يحتوي على أنساق الرمز الثقافى ، والاتجاه الخامس، ويوضح مفهـــوم القيمة عن طريق الثقافة بانماطها واشكالها وعملياتها المختلفة (٢) .

ومن الجدير بالذكر أن الثقافة والمجتمع والشخصية هم المصدر الرئيسـى للقيم كمعتقدات، وأن القيم تفصح عن نفسها فى انماط التفضيل والاختيار بيـن البدائل المتاحة ، وتصبح القيمة مقياسا لاصدار حكم معين على موضوع أو ظاهـرة معينة وتتسم القيم بالاستمرار النسبى وتخضع للتغير . والقيم ذات أهمية نسبيـة تتحدد داخل ما يعرف باسم تدرج القيم أو سلم القيم، وتعنى النسبية أن القيـم تتطور من خلال ما نمر بهمن خبرات، وتتداخل مع بعضها فى منافسة حول الأهمية النسبية وينتج عن ذلك ترتيب للقيم داخل سلم الأهمية (٣) .

(١) Milton, Rokeach, The nature of Human value the free press 1973 op, cit, pp.11-13.

(٢) عبد الباسط عبد المعطى ، المرجع السابق ص ٢١٩ .

(٣) محمد على محمد وآخرون ، المجتمع والثقافة والشخصية ، مرجع سابق ص ص ٢٥٥ـ٢٥٦ .

ويذهب روزنتال ، ويودين Rosenthal, 8, Yudin في تعريف القيم Values بأنها خواص الموضوعات المادية وظواهر الوعى الاجتماعى التى تتميز بأهميتها بالنسبة للمجتمع وللطبقة وللانسان ، فالأشياء المادية تمثل انواعا من القيم لأنها موضوعات تتصل بمصالح واهتمامات انسانية مختلفة ، كما ان ظواهر الوعى الاجتماعى والافكار تعد هى الأخري قيما ، يعبر فيها الافراد بشكل أيديولوجى عن مصالحهم ، وبجانب القيم المادية والاقتصادية والجمالية ، توجد القيم الاخلاقية والقانونية والسياسية والثقافية والتاريخية والظواهر الاجتماعية قد تمثل اخلاقا طيبة أو شريرة ، ويخلق المجتمع نسقا من التصورات والمبادئ التى تقوم الأفعال فى ضوئها لتنظيم سلوك الأفراد وأنشطتهم ، وهو ما يكشف عن انها تتخذ طابعا طبقيا فى المجتمع الطبقى . (١)

وتذهب الماركسية الى أن الاقتصاد أو الانتاج هو الذي يشكل الأساس الحقيقى الذي يتأسس بالنظر اليه البناء الفوقى والسياسى والتشريعى ، ثم اشكال الوعى الاجتماعى المرتبط به ، ومن ثم فان الوجود الاجتماعى هو الذي يحدد الوعى الاجتماعى ، وبتغير الاساس الاقتصادي ، فان البناء الفوقى الشامل يخضع لتحول او تغير سريع بدرجة اكثر أو أقل ، وأن مستوي قوي الانتاج هو الذي يحدد المستوي العام للثقافة والمعرفة والايديولوجية (٢) .

الا أن البناء الفوقى يكتسب نوعا من الاستقلالية ، نظرا لأن التراث الثقافى قد ينبثق مرتبطا بشروط تاريخية محددة ، واكتساب القيم الثقافية والتخلى عنها يتم وفقا لعمليات اجتماعية بطيئة ، وأنه قد يتأسس نوع من

(١) M, Rosenthal, and, p.Yudin, Adictionary of Philosophy, op, cit, p 270.

(٢) Marx , K: Contibution to the Critgue Political economy, Chicago, 1904.pp 11-21.

الاستقلال للبناء الفوقى كالثقافة ، وأن البناءات الفوقية ، أو على الأقل بعض عناصرها الأساسية عادة ما تصبح ارثا مشتركا لتشكيلات ثقافية عديدة ، وذلك لكونها تشبع حاجات اساسية لدي الكائنات البشرية (١) .

وتذهب الماركسية الى أن الانسان فى وجوده الاساسى يولد متعدد الملكات، غير انه فى الاطار الرأسمالى يعانى من الاختزال الكامل لكليته ، ومن ثم فقد كان أحد المقاصد الأساسية لماركسى ان يوضح كيف تقهر البناءات المجتمعية المتباينة وخاصة — الانساق الرأسمالية — البشر وتفرض عليهم أن يتصرفوا باسلوب مختلف عن الآخر أن لم يتناقض معه (٢) ومن ثم فاذا كان الانسان برجوازيا أم بروليتاريا — له وجوده الكلى ، فان مهمة النسق الرأسمالى هى أن يحوله الى وحدة جزئية تابعه .

ويؤكد ماركيوز Marcuse ان المجتمع يزود الأفراد بشروط يعيشون ويفكرون فى ظلها . ومن ثم فليس بامكانهم تجاوزها ، بل ان جهاز الانتاج يميل لأن يكون سلطويا ، الى المدي الذي لا يحدد فيه المهن والمهارات والقيم فقط ، تلك التى يحتاجها المجتمع ، ولكنه يحدد أيضا الحاجات والطموحات الفردية (٣) .

ويلاحظ ان القيم الاجتماعية التي يتبناها الأشخاص مصدرها الثقافة والمجتمع والخبرات والتغيرات التى تطرأ عليهم ، وجدير بالذكر انه اثناء التغيرات الكبري ، تتفاعل الظروف بطريقة أو بأخري ، ويتأكد الدور الاجتماعى

---

(١) Kloskowska, Antonino . the Conception of culture according to karl, marx, the polish sociological, Bulletin, No, 1, 1970 pp. 5-15.

(٢) D, Atkinson : op: cit p 35.

(٣) Marcuse, H, one Dimensional man, Routledge Kegan poul, 1968. PXv. p: 18.

للصفوات المسيطرة فى دعم مجموعة من القيم، وتحاول الجماعة المسيطرة أن تربط قيمها ومصالحها بقيم ومصالح المجتمع، وذلك من شأنه ان يكسبها مزيدا من الدعم لوضعها المسيطر [١] .

ومن ثم يمكن من خلال الحقائق والخصائص السابقة أن نستخلص أن :

" القيم الاجتماعية : هى مجموعة من المعتقدات، تتسم بقدر من الاستمرار النسبى تمثل موجهات للأفراد ، تنشأ نتاجا للتفاعل بين الشخصية والواقع الاجتماعى والاقتصادي والثقافى ، وتخضع القيم للتغير وفقا لتغير اسلوب الانتاج والنظام الاجتماعى ، حيث يؤدي كل اسلوب للانتاج الى افكار خاصة ،وقيم اجتماعية معينة [٢] ويكشف ذلك عن أن القيم ظاهرة انسانية تاريخية تتميز بالنسبية والتغير والتناقض (حسب الموقف) وأنها طبقية وذات أبعاد ومستويات متعددة تتغير بتغير اسلوب الانتاج والنظام الاجتماعى .

ثالثا : التغير الثقافى :

التغير الثقافى أمر لم يتوقف منذ وجدت المجتمعات البشرية . وذلك ما تعكسه مخلفات هذه المجتمعات والتى تعطينا سجلا لحياتها سواء فى عصور ما قبل التاريخ أو فى العصور التاريخية ، وهذا التغير قد يكون بطيئا كما كان الحال فى المراحل الأولى من العصور القديمة أو سريعا كما هو الحال فى المجتمعات المعاصرة ، ومن ثم يصبح وجود تغير ثقافى مستمرا امرا مفروغا منه [٣] ، وهناك فروق بين التغير الثقافى والتغير الاجتماعى ، وتستند هذه الفروق الى التفرقة التى يراها علماء الاجتماع والانثرويولوجيا بين الثقافة والمجتمع ، حيث يعد

(١) Neil, W, Chamberiain, Remaking American, values Basic book, N.Y.1977 pp.15-20.

(٢) V.Afanasyve, op cit, p. 325.

(٣) عاطف غيث : التغير الاجتماعى فى المجتمع القروي ، مرجع سابق ص ٢٢

مجال اهتمام الانثروبولوجيا الاجتماعية هو الثقافة والمجتمع معا ، وأن التمييز بين المجتمع والثقافة لا يبدو واضحا جليا ، ذلك لأن الانثروبولوجى يتناول فى وصفة الواقع او السلوك الظاهر الشخصى الذي يحتوي الاثنين معا ، بيد أن الثقافة تدوم وتنتقل عبر الأجيال ، ولهذا فان دراسة التغير الثقافى Cultural , Change تعد أدق من دراسة التغير الاجتماعى [1] .

ودراسة الثقافة هى دراسة المجتمع ، حيث أن لكل مجتمع ثقافته التى تميزه ويتسم بها كما ذهب اوجبرن [2] ogburn حيث مزج بين تعريف تايلور للثقافة بأنها الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والفن والعقيدة والامكانيات الأخري التى يكتسبها الانسان كعضوا فى المجتمع ، ويبين تعريف ردفيلد للثقافة بأنها المجموعة المنظمة من المفاهيم التقليدية التى تظهر فى الفن والحرف ، حيث ينظر الى الثقافة على أنها ذات وجهين مادي وغير مادي ، حيث يتمثل الجانب اللامادي فى الزواج والسلطة الابوية وتعدد الزوجات فى حين يتمثل الجانب المادي فى المساكن والاثاث والطعام وما الى ذلك [3] .

وينظر الى التغير الثقافى Cultural, Change على أنه العملية التى يتغير بواسطتها نظام المجتمع الحالى من جوانبه السياسية والاجتماعية والمادية من شكل الى آخر ولذا فان دراسة التغير الثقافى كما يذهب مالينوفسكى Malinovski تتناول العمليات التى تعدل من النظم الاجتماعية الدستورية والمادية والمعتقدات ونظام المعرفة واستهلاك السلع التى يقوم عليها اقتصاده الاجتماعى [4] بيد أن الفصل بين المظاهر المادية المكونة للثقافة المحسوسة

---

(١) Alan, R, Beals and otheres, culture in process, op, cit, p.5.

(٢) Ogburn , Nimkof : Hand,book of sociology op, cit p. 16.

(٣) idid p. 18.

(٤) Nalinowski: Danamic of culture change op. cit: p. 4.

فى المجتمع وبين العلاقات الاجتماعية التى تكون البناء الاجتماعى أمرا له وجاهته فى الدراسات المتزامنه، بيد أن الدراسات التغيرية تري انه لا يمكن فصلهما، نظرا لأن المظهرين المادي وغير المادي مرتبطان اشد الارتباط، حيث من الصعوبة بمكان ان نفرد عوامل خاصة لأحدهما (١).

بيد أن المظاهر المادية للثقافة كالتكنولوجيا والاقتصاد تسبق فى التغيرات، حيث يكون لها مركز الصدارة، بينما تتخلف المظاهر غير المادية، ولا تختلف رؤية ماركس عن هذه الرؤية حيث يري ماركس Marx ان درجة النمو التكنولوجي تحكم شكل الانتاج والعلاقات والنظم التى تحكم النسق الاقتصادي، وهذه المجموعة من العلاقات بدورها صاحبة الكلمة الفاصلة فى النظام الاجتماعى بأسره (٢).

ان مجموع العلاقات الخاصة بالانتاج كما يذهب ماركس تكون البناء الاقتصادي فى المجتمع وهو يعد الأساس الحقيقى الذي تقوم عليه الانساق الاجتماعية الأخري، فالحياة الاجتماعية للانسان — افكاره — حياته الجمالية والروحية، فلسفته، عقيدته، والصور الاجتماعية التى تنتقل خلالها عبارة عن انعكاس للنسق الاقتصادي (٣).

وتؤكد الماركسية على أن الاقتصاد أو بالتحديد الانتاج هو الذي يشكل الأساس الحقيقى الذي يتأسس بالنظر اليه البناء الفوقى والسياسى والتشريعى، وبتغير الأساس الاقتصادي فأن البناء الفوقى الشامل يخضع لتحول أو تغير سريع بدرجة اكثر أو أقل، حيث ان مستوي قوي الانتاج هو الذي يحدد المستوي

---

(١) انظر: عاطف غيث، مرجع سابق ص٤٠٤.
محمد على محمد، مرجع سابق ص٣٣٠
محمد الجوهري، مرجع سابق ص٢٨٠.
(٢) المصدر السابق ص٥٥.
(٣) المصدر السابق.

العام للثقافة[1] والأخلاق الانسانية بشكل عام انما هى نتاج طبيعى للتنظيم البشري ، فقد ظهرت المبادئ الاخلاقية والقيم الاجتماعية بظهور المجتمع الانسانى ، وتعرضت لعمليات من التغير والتطور التاريخى وتغير طابعها مع تغيرات اسلوب الانتاج والنظام الاجتماعى[2] ويؤدي كل اسلوب للانتاج الى ظهور أفكار خاصة وقيم خاصة وقيم اجتماعية معينة ، وكلما تغير الوجود الاجتماعى للأفراد تغير بذلك وعيهم الاجتماعى ، فالأفكار القديمة تختفى وتظهر افكار أخرى جديدة تتلائم مع الظروف الجديدة والمتطلبات الاجتماعية المتغيرة[3] .

بيد أن ماركس اكد على امكانية الا يكون البناء الفوقى مجرد انعكاس مباشر للبناء الاقتصادي ففرنسا كانت فى القرن الثامن عشر متقدمة اقتصاديا عن بلاد الاغريق ، الا انها ظلت عاجزة عن انتاج ثقافى يناظر الالياذه ، بل اننا نجد أن انجلز يؤكد ان البلاد المتخلفة اقتصاديا مازالت تلعب دور القيادة فى الفلسفة[4] وفى اطار ذلك يؤكد الفكر النظري على امكان ان يكتسب البناء الفوقى نوعا من الاستقلال لعدة عوامل : اولها : أن التراث الثقافى قد ينبثق بشروط تاريخية محددة ، الا أنه لا يموت بتغير الشروط التاريخية ، فاكتساب القيم الثقافية والتخلى عنها يتم وفقا لعمليات اجتماعية بطيئة ، وثانيها : انه قد يتاسس نوع من الاستقلال للبناء الفوقى كالثقافة مثلا وذلك نتيجة لانتشار منتجات الوعى البشري مكانيا ، ويرتبط بذلك امكان اكتسابها لوظائف جديدة ، وهو الغاء لتبعيتها لشروط مادية محددة زمانيا ومكانيا ، واكتسابها نوعا من الاستقلالية وثالثها : ان البناءات الفوقية أو على الأقل بعض عناصرها الأساسية عادة ما تصبح

---

(1) Marx.k. Contribution to the critique of political economy, op.cit. p 12.

(2) M.Rosenthal, and.p.yudin: Adictionary of philosophy, op. cit. pp 30-33.

(3) V.Afanasy, Marxist: op. cit. p. 325.

(4) Marx, 8, Engles : Selected work. v. 11- op.cit. p. 490.

أرثا مشتركا لتشكيلات ثقافية عديدة ، وذلك لكونها تشبع حاجات اساسية لـــدي الكائنات البشرية بغض النظر عن طبيعة الشروط المادية والتي يعيشون فـــي ظلها (١) .

ويعني ذلك انه وأن كانت البناءات الفوقية تنشأ كانعكاس للشروط الماديـة القائمة ، الا أن قدرتها على الاستمرار يدرجه اكثر من الشروط المادية ،بالاضافة الى احتمالية تغطية البناءات الفوقية لأكثر من وجود مادي أو بناء تحتي ،حيـث يفترض الثوسير Althusser تصورا جديدا للعلاقة بين البناء التحتـي والبناء الفوقي يرتكز على مبدأين ، الأول ـ الاستقلال النسبي للبناءات الفوقيـة وتأثيرها او نتائجها المحددة ، والثاني : ان التأثير الحتمي في النهاية يكـون عادة لأسلوب الانتاج الاقتصادي (٢) وفيما يتعلق بالعوامل التي تؤدي الى التغير الثقافي Cultural,change هناك عددا من الاراء المختلفة التي يركـزون أصحابها على عدة عوامل يرون أنها تؤدي اكثر من غيرها الى هذا التغير ،ومـن بين هذه العوامل انتشار ايديولوجية معينة في مجتمع ما أو اعتناق عقيـدة جديدة (٣) ، بيد أن العامل المؤثر في التغير هو بروز التناقضات الناجمة عـن وجود اساليب اجتماعية وثقافية مختلفة داخل المجتمع الواحد ،وهي تناقضـات تولد ضغطا مستمرا يؤدي بدوره الى حدوث تغير ثقافي (٤) .

ومهما كان من أمر النظريات الاجتماعية المختلفة بصدد العوامل المؤثـرة في التغير الثقافي ، فانه يمكن أن نشير الى عوامل ثلاثة أو مؤشرات ثلاثـة

---

(١) A,Kloskowska:the conception of culture according to karl marx, the polish sociological bulletin, No,1.,1970:pp.5-15.

(٢) Althusser, Lus, for Marx, New,York op, cit.,p.111

(٣) Evons.Z. Vogt:Culture, Change (in, int, Ency,s-sc, Vol 111. p.554.

(٤) Georg peter: Social structuye op cit, pp 555-559.

تؤدي الى حدوث تغير ثقافي داخل المجتمع هي : الأول : أي اتصال بين مجتمعين لكل منهما نمط ثقافي مختلف عن الآخر لابد ان يؤدي الى حدوث تغير ثقافي في كليهما بدرجات متفاوته[١] وهو ما برز في الفترة التي تهتم الدراسة الراهنة بها وهي حقبة السبعينات وما اتسمت به هذه الحقبة بما يسمى بالانفتاح الاقتصادي الذي حمل معه عديدا من الثقافات الغربية ذات الطابع الاستهلاكي ، وقد تأسس على ذلك تأثيره على بعض القضايا التي تمس الواقع الاجتماعي المصري ولا سيما مجتمعاته القروية[٢] .

والثاني : أي تغير يطرأ على البيئة الموجودة عن طريق الهجرة[٣] يؤدي الى تغير ثقافي : ففي بدايات القرن الحالي على سبيل المثال ، بدأت الهجرة من الريف الى المدن سعيا وراء الرزق ، لاتساع مجالات العمل في المدن من تلك الموجودة في القري ، ثم تزايدت الهجرة في حقبة السبعينات كنتاج للانفتاح الاقتصادي الذي وسع بدوره نطاق الهجرة وجعله يمتد الى الدول العربية ، حيث أدت الى حدوث تغير ثقافي في كثير من أساليب الحياة القروية .

والثالث: أي تغير في المجتمع يؤدي بوضوح الى تغير ثقافي Cultural change[٤] وفي اطار ذلك يؤكد هربرت ماركيوز أن المجتمع يزود الأفراد بشروط يعيشون ويفكرون في ظلها ، وليس بامكانهم تجاوزها[٥] وعلى ذلك فان مهمة النسق الرأسمالي هي أن يحول الانسان الى وحدة جزئية تابعه له عليها وطأة وتأثير حتمي[٦] .

---

(١) Evons, Z, V. Vogt: Cuture, Change, op.cit, p.357.

(٢) انظر : عادل حسين ، الاقتصاد المصري من الاستقلال الى التبعية ، مرجع سابق ص ٤٤٣ .

(٣) Evons, Z, V, Nogt: op, cit. p. 358.

(٤) ibib. p. 357.

(٥) Marcuse. H. op. cit. P. XV.

(٦) D, Atkinson, op.cit. p. 35.

وقد كانت التغيرات التى شهدها المجتمع المصري خلال فترة الانفتاح الاقتصادي الذي حفلت به حقبة السبعينات نتيجة للتغيرات الجوهرية التى طرأت على البنية الاجتماعية والاقتصادية نتيجة للتحول من نمط انتاجى كانت تقوده الدولة الى نمط رأسمالى تجاري تابع، انعكس على القرية المصرية وأدي الى حدوث تغيرات عميقة فى هيكل وبنية الريف المصري التى استهدفت ارساء التبعية [1] وقد أدي ذلك الى تحول النمط الانتاجى فى القرية المصرية، وزيادة الأهمية النسبية للزراعات الرأسمالية التى تحتاج لقدرة مالية وفن انتاجى متقدم نسبيا، حيث زاد عدد الافدنه المزروعة بالفواكه من ٢٤٤ الفا فى عام ١٩٧٠ الى ٣٣٨ الفا فى عام ١٩٧٨ أي بما نسبته ٣٪ من مساحة الأرض الزراعية، كما زاد عدد الافدنة المزروعة بالنباتات الطبية والعطرية من ١٥ الفا فى عام ١٩٧٠ الى ٦٤ الفا فى عام ١٩٧٨ أي بنسبة ٥٪ من اجمالى الأرض الزراعية [2]

والتغيرات التى طرأت على المجتمع المصري كنتاج لسياسة الانفتاح لم تقتصر فقط على البناء الاقتصادي والسياسى، بل الاخطر من ذلك انها قد امتدت الى البناء الاجتماعى والثقافى، فالسياسات الاقتصادية يمكن تغييرها وفقا للمراحل التاريخية المختلفة بوضع خطة او استراتيجية اقتصادية قومية ولكن التغيرات البنيوية فى المجال الاجتماعى والثقافى والتى يقصد بها مجال القيم والمعتقدات وغيرها — اسلوب الحياة — داخل المجتمع لها طبيعة الادمان وليس من السهولة التخلى عنها وهى سمة المجتمعات التابعة بوجه عام [3]، حيث اتجهت الأساليب والقيم نحو الاستهلاك واللامبالاة والفردية فى حقبة السبعينات، بعد أن كانت القيم الأساسية تدور حول الأرض والابناء فالأرض لها قيمة عظمى

---

(١) عادل حسين، مرجع سابق ص٤٤٤.

(٢) عبد الباسط عبد المعطى، التكوين الاجتماعى ومستقبل التنمية، مرجع سابق ص٤٠.

(٣) عادل حسين، المرجع السابق ص٤٣٨.

الفصل السابع

الإتجاهات النظرية فى علم الإجتماع

١- البنائية الوظيفية .

٢- التحديث والتطور المتتابع .

٣- الإتجاه الراديكالى :

(أ) الماركسية التقليدية .

(ب) الماركسية الحديثة .

٤- نظرية التبعية .

القضايا الأساسية لنظرية التبعية .

(أ) البناء الإجتماعى ونظرية التبعية .

(ب) البناء الطبقى للمجتمع والتبعية .

(جـ) البناء السياسى .

أولا : البنائية الوظيفية والتأكيد على الثقافة والقيم.

ثانيا : التحديث والتطور المتتابع.

ثالثا : الاتجاه الراديكالي والتغير الثقافي.

أ- الماركسية التقليدية :

ب- الماركسية الحديثة.

رابعا :

أ- نظرية التبعية والتحول من تبعية الاقتصاد الـــــــى تبعية الثقافة.

ب- القضايا الأساسية لنظرية التبعية.

ان كل مجتمع انسانى له ثقافة معينة تحكم سلوك اعضاءه من حيث علاقاتهم ببيئتهم ومن حيث علاقة التفاعل الاجتماعى التى تتم فيما بينهم أو بينهم وبين عالم ما فوق الطبيعة، وقد ابرزت التعريفات السابقة للثقافة Culture أن جزءا منها يتصف بانه تقليدي والجزء الآخر يتسم بأنه راديكالى ، والواقع أن السمة الأساسية تكمن حقيقتها فى أن الانسان يتعلم الثقافة كعضو فى المجتمع ونعرض فى هذا الفصل لموقف النظرية الاجتماعية من التغير الثقافى من وجهة النظر التقليدية والراديكالية .

أولا : البنائية الوظيفية والتأكيد على الثقافة والقيم :

أدى ظهور التحليل الوظيفى والبنائى فى ميدان الانثروبولوجيا منذ ثلاثينيات هذا القرن الى رفض العوامل التاريخية ورفض الاتجاهات التطورية بالاضافة الى تجاهله لظاهرة التغير الثقافى Cultural, Change وكانت هذه الدراسات تتصف بانها دراسات انيه اي آنها تدرس الثقافة الواحدة أو مجموعة من الثقافات فى لحظة زمنية معينة . اما الدراسات التاريخية فكانت توصف بأنها دراسات تتابعيه ، وكانت الدراسات التاريخية فى الانثروبولوجيا تعتبر دراسات ظنية ولا يمكن الركون اليها (١) .

الا ان هذه الأفكار قد تغيرت فى السنوات الأخيرة حيث تخلت العلوم الطبيعية منذ أن بعيد عن تصورات ثابته لا تتغير واصبحت تسلم اليوم بأن معظم النتائج التى تنتهى اليها انما هى قضايا احتمالية ويصدق هذا على الدراسات الانية أو التتابعية فى العلوم الاجتماعية ، فالدراسات الأنية تؤكد أو تفترض سلفا ، وجود الثبات الثقافى ، أما دراسات التغير الثقافى Cultural,Change فهى دراسات تتابعية ، ذلك لأن الثبات والتغير من سمات أي ثقافة (٢) .

---

(١) محمد الجوهري : مقدمة فى الانثروبولوجيا ، مرجع سابق ص ٣٢ .
(٢) انظر : احمد ابو زيد ، مرجع سابق ص ٦٢ .
محمد على محمد : المرجع السابق .
محمد الجوهري ، مرجع سابق ص ٣٢٣ .

ويمثل الاختراع والانتشار حقيقة من حقائق الثقافة ، الا أن دراسات الانتشار يمكن ان تدلنا على ما حدث بالنسبة لجوانب معينة من الثقافة ، ولكنها لا تدل بالقدر الكافى على كيفية حدوثه أو سبب حدوثه ، حيث انها تميل الى الطابع الوصفي وليس التفسيري ، فاذا نظرنا من وجهة نظر ثقافة معينة فسوف نجد انه ليس من الأمور الهامة أن نكتشف أن عنصرا معينا من عناصرها قد نشأ نتيجة عملية اختراع داخلى أو انه استعير وتم تكييفه مع بقية عناصر الثقافة (١) .

وكان لتزايد المعرفة العلمية عن فترة ما قبل التاريخ التى كشفت عنها البحوث الاركيولوجية ، أن اثيرت مشكلة علاقة الثقافات الأمية بالحضارات الكبرى فى كل من أوروبا وأمريكا ، ونتيجة لهذه الاكتشافات وزيادة المعرفة ، ظهرت البدايات الأولى لتفكير علمى حقيقى فى المشكلات الانثروبولوجية ، وهى مجموعة الاراء التى تعرف باسم " النزعة التطورية الثقافية " التى تمثلت فى أراء تايلور Taylor "الثقافة البدائية "ومورجان " المجتمع القديم " ، الا انه لا يجب ربط النزعة التطورية الثقافية بالدارونية الاجتماعية عند هربرت سبنسر واتباعه الذين طبقوا المبادئ التى فهموها من فكرة "البقاء للأصلح " البيولوجية على المجتمعات وعلى الانسان فى المجتمع (٢) .

الا أن المفكرين التطوريين هم أول من أدرك واستخدم مفهوم الثقافة Culture وميزة من التداخل الذي كان قائما بينه وبين مفهوم العرق والسلالة ويؤكد ذلك تعريف تايلور Taylor للثقافة ، حيث يذهب " الى أن الثقافة أو الحضارة ... هى ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والقانون والعادات والتقاليد ، وأي قدرات أو عادات أخري اكتسبها الانسان كعضو

---

(١) انظر :
احمد ابو زيد ، مرجع سابق ص ٦٢ .
محمد على محمد ، المرجع السابق
محمد الجوهري ، مرجع سابق ص ٣٢٣ .
(٢) المرجع السابق

فى المجتمع[1] .

وكان للاتجاه التطوري فى القرن التاسع عشر أكثر من مجرد قيمة تاريخية ، فقد هيأ الأساس للمنهج الجدلى التاريخى عند الماركسية ولنظرتها العلمية التاريخية التى تعتبر الرأسمالية مرحلة حتمية فى التطور الثقافى الاجتماعى[2] .

وظهرت نظريات بديلة لتطورية القرن العشرين التى نمت فى اوائل القرن التاسع عشر ، حيث تذهب نظرية " الدائرة الثقافية — التى تعتبر نظرية المانية المنشأ — الى القول بعدم وجود الاختراع أصلا عند البشر ، وقد فسرت أوجه التشابه الثقافى على أنها نتيجة للانتشار فحسب ، أي أن هناك عدة ثقافات أساسية متميزة ظهرت فى اجزاء مختلفة من العالم ثم انتشرت هذه العناصر خارج المنشأ الذي ظهرت فيه ، ومن ممثلى هذا الاتجاه "بواس" الذي لم يكن يعارض التطور بقدر ما كان يتجنب الخوض فيه مفضلا البحوث التاريخية ذات الموضوعات المحددة تحديدا تاريخيا دقيقا .

وقد كان التركيز على المشكلات التاريخية وعلى ظاهرة الانتشار مميزا للمدرسة الامريكية خلال الثلث الأول من هذا القرن والتى أدت الى ظهور منهجين هما : نظرية — العمر والمنطقة — اللذين مثلهما (كلارك ويسلر) حيث يعد مفهوم " المنطقة الثقافية " مجرد أداة لتصنيف الثقافات أو مجموعات من العناصر الثقافية بالنظر الى الاقاليم الجغرافية ، وقد ظهر هذا المفهوم كوسيلة لترتيب المواد والبيانات الثقافية المحفوظة فى المتاحف[3] .

(1) Edwin. B.tylor, Primitive, Culture (Etes, and,Lau-riat 1974. Vol-1, p.2.

(2) Althusser Lous, for Marx, op cit,p.111

(٣) انظر : وليم باسكوم وميلفيل هيرسكوفتش — الثقافة الافريقية — دراسات فى عناصر الاستمرار والتغير ، ترجمة عبد الملك الناشف ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٦ .
، محمد الجوهري ، الانثروبولوجيا ، أسس نظرية وتطبيقات عملية مرجع سابق ص٣٤٥ .

وتعكس المدارس التاريخية المختلفة فى الانثروبولوجيا وخاصة المدرسة الامريكية النظرة الى الثقافة باعتبارها مجموعة من العناصر غير المتصلة والمتباينة فى نشاتها التاريخية ، والتى تبدو متجاورة نتيجة لبعض الأحداث التاريخية ، فكأن اولئك المفكرون ينكرون وجود علاقات وظيفية اساسا بين العناصر ، ويرون أن جملة ثقافة معينة أن هناك صلة ما ضرورية بينهما وذلك من خلال عملية تسويغ عقلى فقط (١) .

وتطورت النظرية الوظيفية فى كتابات مالينوفسكى Malinowski فى كتابيه " نظرية علمية فى الثقافة " و " ديناميات التغير الثقافى " حيث يذهب مالينوفسكى : الى أن كل ثقافة حية هى عبارة عن كيان وظيفى متكامل شبيه بالكائن الحى ، واننا لا نستطيع ان نفهم أي جزء من الثقافة الا فى ضوء علاقته بالكل فالاداء الوظيفى للعنصر الثقافى داخل النسق الكلى للثقافة هو الذي يفسر هذا العنصر ، ويكشف عن هويته الحقيقية ، ويرجع مالينوفسكى التغير الى عاملين

أ — التلقائى الداخلى الذي يؤدي الى التطور المستقل .

ب — والخارجى فى صورة الانتشار عن طريق الاتصال الثقافى (٢) .

والتعريف الذي وضعه مالينوفسكى " للتغير الثقافى Cultural, change " فانه العملية التى يتغير بواسطتها نظام المجتمع الحالى من نواحيه الاجتماعيه والسياسية والمادية من شكل الى آخر ، والى طبيعة الانتشار الذي يتم عن طريق الاتصال Contact مع ثقافة أعلى ، فهو لا يشمل العناصر المادية وحدها وانما يشمل أيضا على العناصر اللامادية وذلك لدخول الاوربيين الى هذه المجتمعات وهم مزودون بعناصر تكنولوجية مميزة لثقافاتهم مع العناصر اللامادية. وأخصها بعثات التبشير (٣) ويري مالينوفسكى أن التغير الثقافى Culture Change

---

(١) المرجع السابق

(٢) B.Maliowski, Daynamic of culture change op. cit, p. 1.

(٣) ibib.

عن طريق الاتصال اما فردي أو جماعي ، واما مؤقت أو دائم ، وبالتالي تكـــــون عملياته المختلفة نتيجة اتجاهات عامة أو خاصة ، أي أن التغير الثقافي عنــــده هو تغير في وحدات Unites وفي اثناء التغير تتخذ هذه الوحدات اشكـــــالا جديدة ويكون لها وظائف جديدة استجابة للظروف الجديدة الناتجة عـــــن الاحتكاك والاتصال ، ولهذا فان الانتشار الذي يتم عن طريق الاتصال وهـــو : عملية اعادة تنظيم على أسس جديدة كلية [١] فهو يري ان الثقافة Culture مكونة من وحدات أو اجزاء أو انساق تتغير كل منها متخذا صورة جديدة ، فقد يعنـــى ذلك أن تغيرها قد لا يكون في اتجاه واحد ، أو قد يكون هناك اختلاف فـــي التغير ، فبعضها يتغير كلية ، والبعض الآخر يظل محتفظا ببعض العناصـــــر القديمة التي لا تزال تحتفظ وتؤثر في الحياة الاجتماعية [٢] .

وعلى خلاف مالينوفسكي يوجه راد كليف براون اهتمامه الى دراسة المجتمع لا الى الثقافة ، حيث يذهب الى أن المجتمع شأنه شأن الكائن الحي يتكون مـــن اجزاء متداخلة وظيفيا ومتبادلة الاعتماد بعضها على بعض ، كما أن أجـــــزاء الكائن الحي تعمل معا للحفاظ على الكل ، كذلك تسهم التقاليد والنظم الموجودة في الحفاظ على الكائن الاجتماعي واستمراره ، وتلك هي بالفعل الوظيفـــــــة الرئيسية — ان لم تكن الوحيدة — لتلك التقاليد والنظم اذا نظرنا اليها فـــي مجموعها — أي بقاء المجتمع نفسه [٣] .

بيد أن الاتجاهات الوظيفية التي عرضنا لجزء منها تستخدم نموذجـــــا للتوازن في نظرتها الى المجتمع والثقافة ، بالاضافة الى أنها تذهب الى أكثـــر من مجرد التسليم بالثبات كسمة مميزة للثقافة ، اذ تنطوي على مجرد التسليــــم بحالة الاستقرار ، وأن كل تغير يطرأ على المجتمع أو الثقافة ، انما يرجع الــــى

---

(١) ibib

(٢) ibib

(٣) محمد الجوهري : المرجع السابق ص ٣٥٨ .

مصدر خارج المجتمع ، وتتبعه عملية استعادة للتوازن الذي كان قائما من قبل ، هذا بالاضافة الى أن الاتجاه الوظيفي يفتقد الرؤية التاريخية ، ومن ثم تعد نظرية غير تاريخية فى التغير ومن ثم فامكانية تطبيقها تعد محدودة (١) .

وتعد معالجة الوظيفية معالجة جزئية ولا سيما بالنسبة للدول النامية ، هذا بالاضافة الى مزج الاتجاه الوظيفي للتنمية والنمو والتطور واعتبرهما مفهوما واحدا ، فضلا عن أن هذا الاتجاه لم يستطع تصور امكانية أن يكون المجتمع نسقا ديناميا غير متوازن (٢) .

ويفسر بارسونز النسق الثقافى بأنه العلاقات المتداخله بين القيم والمعتقدات والرموز المشتركة ، ويري أن نسق الشخصية هو النسق الذي يشمل الدوافع والمؤثرات والامكانيات وكل ما يتصل بالفرد ككائن عضوي ، وتمثل أفكار بارسونز مجموعة من النصوص المتصارعة والمتناقضة والتى حاول من خلالها تحديد اطاره التصوري للوجود الاجتماعى ، حيث أن الاساس فى نظرية بارسونز هو الفعل الاجتماعى ومحورها الفاعل والموقف وتوجيه الفاعل ، حيث استخدمت لاعطاء معنى للفعل يعبر من خلال الفاعل ، ولقد انتقلت الذاتية من خلال افكار بارسونز الى مستوي الثقافة والشخصية (٣) .

ولقد حاول بارسونز تشييد ثلاثة انساق تحليلية لنسق الفعل — متمثلة فى النسق الاجتماعى Social, System ونسق الشخصية Personality ، ونسق الثقافة Culture ، والنسق الاجتماعى امبريقيا هو المجتمع ووحداته الأساسية هى الفعل والمكانة Status والدور Role ويتحقق الفعل امبريقيا

---

(١) Chodact, Syzman, Socital, developement, op, cit, p. 75.

(٢) نيقولا تيماشيف: نظرية علم الاجتماع ... مرجع سابق ص ٨٠ .

(٣) على ليله ، البنائية الوظيفية ، مرجع سابق ص ٩٨ .

باندفاع الأفراد الى الاشباع الأمثل لاحتياجاتهم، ولكن هذا الاشباع محـــدد اساسا بالموقف الاجتماعى من خلال التوجيه القيمى الذي يمكن اعتباره همـــزة وصل بين النسق الاجتماعى وبين النسق الثقافى ، وتتفاعل الانساق الثلاثـــة على أساس الترابط والتساند والتكامل فيما بينهما ، وعلى اساس تشابكها فى اطار نسق الفعل الاجتماعى (١) .

ولقد ناقش بارسونز قضية التغير داخل النسق الاجتماعى وفق نمـــاذج من نوعية نمو الكائن العضوي (٢) وتؤكد مناقشته لقضية التغير فى عديد من أعمالـــه أن التغير هو مدخله لبحث الثبات، فالمجتمع المحلى أو حتى العالمى يصـــل الى توازنه عبر تغيرات بنائية فى انساقه الفرعية ، فالتغير البنائى فى الانســـاق الفرعية مظهر صحى من أجل عملية التوازن فى النسق الشامل (٣) فالنسق الاجتماعى هو مجموعة متكاملة من الانساق الفرعية الموجهة بمجموعة من المتطلبات الوظيفيـــة Functional, imeratives حيث يتحرك النسق من مستوي توازن مبدئـــى الى توازن جديد تدمج فيه التغيرات التى يتطلبها ادخال العنصر الجديـــد وانجاحه فى الاتحاد بالنسق (٤) .

فالانتقال من مستوي توازن الى مستوي توازن آخر يشهد بالضـــرورة فترة من الانفصال بين نماذج السلوك القائمة وبين الادوار الجديدة القائمـــة أو

(١) Parsons.t- The social system op. cit, p. 55

على ليله : الأسس النظرية ... مصدر سابق ص ٣٩ .

(٢) على ليله ، البنائية الوظيفية ... ص ٩٨ ، وما بعدها .

(٣) Parsons.t. the social, system, op.cit.p:55

(٤) Teylor, John.G, From, modernization, to modes of production, : Acritigue, of the sociologies of development, and Underdvelopement, London macmilan, its, 1979, pp. 23, 26.

المطلوبة — والتى تعيد توازن النسق عند مستواه الجديد وتعمل على حل الصراع اثناء فترة الانتقال — بحاجة الى الاندماج فى النظام اثناء فترة الانتقال ، ويتم ذلك بواسطة تحويل للتنظيمات الموجودة ، أو خلق تنظيمات جديدة نوعيا لتنظيم صور النزاع القديم [١] .

وينظر بارسونز الى الثقافة Culture كنتاج من ناحية وكعامل محدد من ناحية أخري لانساق التفاعل الاجتماعى الانسانى وهو يؤكد اتفاقا مع التأكيد الانثروبولوجى — أن الثقافة تتناقل وتتعلم وتصبح مشتركة بين الناس[٢]
ويميز بارسونز بين ثلاثة انواع رئيسية من الانماط الحضارية وهى :

أولا : انساق الأفكار والمعتقدات وتتميز بافضلية الميول الادراكية .

ثانيا : انساق الأفكار والرموز التعبيرية ، كالاشكال الفنية وتتميز بأفضلية الميول الادراكية — الميل الى الأشياء أو رفضها .

ثالثا : انساق التوجهات القيمية أو الانماط التكاملية وتتجه الانماط الثقافية الى الانتظام فى اتساق على اساس الاتساق المنطقى أو الانسجام الاسلوبى للأشكال الفنية والملائمة العقلية لكيان القواعد الاخلاقية [٣] .

بيد أن بارسونز لم يقم بتحليل الانساق الثقافية ، اذ يبدو انه اعتبر ذلك مهمة تدخل فى اختصاص الانثروبولوجيا الثقافية ، ويقتصر اهتمامه بالانساق الثقافية على مدي تأثيرها فى الانساق الاجتماعية والشخصية [٤] .

---

(١) ibib . p.27.
(٢) نيقولا تيماشيف: نظرية علم الاجتماع، مرجع سابق ص ٤٠٤ .
(٣) نيقولا تيماشيف: المرجع السابق ص ٤٠٧ .
(٤) Chodack, Syzman, Societal development, op. cit. pp: 42-46.

ويحصر بارسونز المكونات الأساسية للتطور فى التباين والتكامل والتقييم داخل نطاق النسق القيمى ، وقد حدد بارسونز ثلاثة مستويات تطورية للمجتمعات وهى :

١) يتمثل المستوى الأول فى البدائية التى تشمل نمطين الأول : يؤدى فيه نسق الدين والقرابة دورا اساسيا ، والثانى يتميز بظهور نسق التدرج الاجتماعى والتنظيم السياسى .

٢) والمستوى الثانى يحوى شكلين من المجتمعات : الشكل الأول : يتمثل فى المجتمعات القديمة التى تتميز بوجود تعليم حرفى ، والشكل الثانى : هو الشكل المتقدم من المجتمعات القديمة ويتميز بانتشار التعليم بين افراد الطبقة العليا .

٣) وفيما يتعلق بالمستوى الثالث : فهو يشار به الى المجتمعات الصناعية الحديثة (١) .

ويذهب بارسونز الى أن هناك محددات أساسية للفصل بين تلك المراحل المختلفة وتتضمن " الدين " الذى يعد ذا أهمية اولية فى النمو البشرى التكيفى ، واللغة ، والتنظيم الاجتماعى فى صوره انساق قرابية ، والتكنولوجيا ، وتكمل هذه العموميات الأربعة فى الحقبة الحديثة من حقبات التطور الاجتماعى : "البيروقراطية وهى مرتبطة تاريخيا بالتدرج الاجتماعى المتزايد ، واقتصاديات النقود ، وظهور السوق الحديثة ، ونمو نظام قانونى عام ، وهو شرط من شروط الديموقراطية " (٢) .

ويعتقد بارسونز أن التوترات والضغوط التى تنتج عن عملية التغير فى أجزاء من النسق والتى لا يمكن أن تتوائم مع التطور التدريجى ، قد تعتبر الحد الأقصى من المقاومة التى تبديها العناصر المستثمرة المهددة بأى تغير آخر ، كذلك يعتقد ان زيادة التوترات والضغوط فى الأجزاء التقدمية فى

---

(١) السيد الحسينى ، التنمية والتخلف ، مرجع سابق ص ٥٠ .
(٢) نيقولا تيماشيف : نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٤٢٥ .

النسق يؤدي الى نمو حركة ثورية مغتربه [١] .

بيد أن بارسونز اختزل عملية التحول الاجتماعي الى مجرد تكيف آلـــي مع ضغوط داخلية وخارجية ، ونظريته على هذا النحو لا تفسح مجالا للعمـــل السياسى والنضال الاجتماعى الفعال من أجل احداث هذا التحول ، وربمـــا كان سبب ذلك هو ظهور تلك السيولة النقدية المنهمرة على الوظيفية بسبـــب تجاهلها لدور الصراع فى احداث التغير والتماسك على السواء ، الا انه لم ينكـر كلية الوجود الفعلى للصراع ، ولكنه ينظر اليه على أنه خلل طارئ ، يطرأ علـــى أساليب الضبط الاجتماعى والتكامل المعياري [٢] وأن الواقع الاجتماعى عند سبنسر يتسم بالسكون " أو الثبات" ويسعى الى التكامل ، ووحده التحليل عنده هـــى الفعل وما يتضمنه من معان سيكولوجية والتغيرات التفسيريه عنده كلهـــــا متغيرات سيكولوجية ، وليست اقتصادية أو سياسية أو تاريخية [٣] .

ثانيا : التحديث والتطور المتتابع :

يعد الجهد النظري لنظرية " التحديث" الخاص بدراسة واقـــع المجتمعات المتخلفة فى المرتبة الثانية بينما اهتمامه الأول هو رصد العناصـــر والمظاهر الناجمة عن التباين الوظيفي للنسق الغربى ، وضرورة تكرارها فـــى المجتمع المتخلف ، حيث فهمت نظريات التحديث بمختلف فروعها واتجاهاتهـــا عملية التحول الاجتماعى الاقتصادي ، وانماطه فى العالم الثالث بوصفها سياقـــا تكتسب فيه هذه المجتمعات خصائص النسق الاجتماعى (الصناعى) الغربـــى الرأسمالى بدرجات متفاوته ، ومن ثم فهمت التخلف والنمو بوصفهما ابتعـــادا أو

---

(١) على ليله : الأسس النظرية ... مرجع سابق ص ٤٧٠ .
(٢) السيد الحسينى : نحو نظرية اجتماعية نقدية ، مرجع سابق ص ص ١٢٩ ــ ١٥٤
(٣) على ليله : المصدر السابق .
سمير نعيم : النظرية فى علم الاجتماع ... مرجع سابق ص ٢٢٣ .

اقترابا من الخصائص الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، لهذا النسق ، الـــذي يمثل غاية وهدفا ونموذجا مثاليا ، كما ان مفهوم " التحديث " الذي استخـــدم فى نظريات التغير ، انما ينطوي على مضمون " التغريب " ، والتحديث modern-ization هو عملية انتقال كاملةأو شاملة من مجتمع تقليدي أو ما قبل المتحضـــر Premodern الى نمط من التنظيم الاجتماعى التكنولوجى ، والذي يتجه الـــى الرخاء الاقتصادي والاستقرار السياسى [١] .

ويعد والت روستو W.W.Rostow أحد الأوائل الذين قاموا بمحاولـــة تزويد التحليل الاقتصادي بمحتوي اجتماعى اقتصادي وتاريخى أخذا فى الاعتبار الأوضاع العامة للاقتصاد السياسى فى المرحلة العليا من تطور الرأسماليـــة وتطبيقها على البلدان المتخلفة [٢] .

ووفقا لروستو يتحدد تاريخ البشرية فى خمس مراحل هى المجتمـــع التقليدي Traditional ، ومرحلة ما قبل الانطلاق Pre-Condition, For, Take off ومرحلة الانطلاق ومرحلة النضوج The drive to maturity ، وأخيـرا مرحلة الاستهلاك الجماهيري الوفير High, mass , consumprion

وتمثل المرحلة الأولى (مرحلة المجتمع التقليدي) بانخفاض متوسط الدخل الفردي ، وعدم القدرة على تطبيق التكنولوجيا ، وغلبة الطابع الزراعى ، وانتشـــار التقاليد الجامدة كالقدرية ، وقد لعبت العلاقات العائلية دورا كبيرا فى التنظيم الاجتماعى وتركز القوة السياسية فى آيدي من يملكون الأرض.

وتمثل المرحلة الثانية (مرحلة ما قبل الانطلاق) او مرحلة التهيـــوء للانطلاق) مرحلة انتقالية الى مرحلة الانطلاق وتتمثل فى استخدام العلـــوم

---

(١) Wilbert-E- moor, Social, Cnange, Englwood cliffs, New, Jersey, 1963, p.89.

(٢) طلال البابا ، قضايا التخلف والتنمية ، مرجع سابق ص١٢٣ .

الحديثة لأداء وظائف انتاجية فى المجالين الزراعى والصناعى ، واتساع الأسواق العالمية واشتداد المنافسة من أجلها كما حدث فى أوروبا الغربية فى نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر ، وتتمثل الشروط المهيئة للانطلاق فى حدوث تغير فى اتجاهات الأفراد نحو الانجاب وتحول رؤوس الأموال الى الاستثمارات فى النشاطات الاقتصادية ذات الطابع العام ، وتقييم الافراد طبقا لانجازاتهم ، بالاضافة الى زيادة الانتاج الزراعى والصناعات الاستخراجية ، وظهور طبقة واعية تحبذ الجديد [١] .

وتمثل المرحلة الثالثة (مرحلة الانطلاق) حيث يتم فيها القضاء على العقبات التى تقف فى طريق النمو ، بحيث تأخذ القوي التقدمية فى الانتشار فى المجتمع ، وتبدء عملية البدء فى الانطلاق بفعل حدوث ثورة سياسية تؤثر فى البناء الاجتماعى والاقتصادي والسياسى والثقافى القائم ، كما حدث فى المانيا والهند ، ويذهب روستو الى أن التكنولوجيا كانت العامل الحاسم فى انطلاق امريكا وانجلترا وكندا ، وما أدت اليه من التوسع فى الصناعات الجديدة ، وزيادة الدخل القومى ، وانتشار المراكز الحضارية وتقدم الفن الانتاجى ، واستقرار البناءات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية خلال عشرين عاما من مرحلة الانطلاق .

وتمثل المرحلة الرابعة (مرحلة النضج) حيث يذهب روستو أنها تستتبع مرحلة الانطلاق بفترة طويلة من النمو المطرد واتجاه الاقتصاد الوطنى نحو نشر التكنولوجيا الحديثة فى مجالات النشاط الاقتصادي وزيادة معدلات الاستثمار وباقتراب المجتمع من مرحلة النضج تحدث تحولات اقتصادية واجتماعية وثقافية وانخفاض نسبة العاملين فى القطاع الزراعى ، وتغير افكار وأراء الأفراد وتطلعاتهم [٢]

---

(١) طلال البابا ، المرجع السابق ص ١٢٦
السيد الحسينى ، المرجع السابق ص ٥٢ .
(٢) طلال البابا ، المرجع السابق ص ١٢٩ .

وتمثل المرحلة الخامسة (مرحلة الاستهلاك الوفير) ففى هذه المرحلة تنتقل القيادة الى القطاعات المشتغله بالخدمات وانتاج السلع المعمرة مثل السيارات والثلاجات... وقد شهدت المجتمعات التى بلغت هذه المرحلة ارتفاع متوسط دخل الفرد وزيادة نسبة سكان المناطق الحضرية ، ويذهب روستو بأن ثلاثة امور تحدث فى تلك المرحلة هى : اتساع القوة الخارجية للدولة ، تخصيص اعتمادات عسكرية هائلة وتحقيق اهداف انسانية متمثلة فى تذويب الفوارق بين الطبقات ، والتوسع فى قنوات الاستهلاك (١) .

بيد أن روستو حاول تدعيم فكرة اساسية هى أنه قد نظر الى تطور المجتمعات فى جملتها من وجهة النظر الاقتصادية – شأنه فى ذلك شأن ماركس– وأنه قد سلم أيضا بان التغير الاقتصادي يحدث اثارا اجتماعية وسياسية وثقافية ، وأنه قد أقر وجود مصالح متعارضة تتبناها الفئات والطبقات المختلفة ويري أن الرأسمالية هى أخر ما يتوصل اليه التطور البشري ، وبالتالى هى أعلى مرحلة من التطور الاجتماعى العام ، بينما تري الماركسية أن الاشتراكية هى النظام الذي سيحل محل الرأسمالية التى تؤول الى الزوال (٢) .

ان نظرية روستو تتوجه الى بلدان العالم الثالث بفكرة مضللة لتوهم هذه البلدان بأنها ستصل الى مرحلة الاستهلاك الوفير التى وصلت اليها أوروبا عبر هذه المراحل من النمو الطبيعى والتلقائي ، وهدفه هو اعفاء الرأسمالية من مسئوليتها عن تخلف البلدان النامية ، وأن النمط المشوه للتجارة الخارجية والتبعية لطرف واحد ليس من النتائج الضارة للاستعمار ، بل ينبغى رؤية الاستعمار فى التحليل الأخير كشىء ايجابى ، وأن حالة التخلف فى البلدان

---

(١) السيد الحسينى : المرجع السابع ص ٥٤ .
(٢) طلال البابا : المرجع السابق صص ١٣٠–١٣٣ .

المتخلفة ليست سوي حالة طبيعية ، واعتبرها مرحلة تطور منطقية من مراحل التطور الاقتصادي ، وهو ما تتفق عليه أغلبية نظريات التخلف الغربية [١] .

بيد أنه اذا كان روستو قد بدأ التاريخ بالمجتمع التقليدي ليصل به الى المجتمع ذو الاستهلاك الوفير ، فان دانيل ليرنر D.Lerner . قد انجز قبله هذا المنطلق من ذات الاطار النظري المعنوي بتجاوز المجتمع التقليدي والفارق بينهما هو أن المرحلة النهائية للتاريخ هى مجتمع المشاركين Partic-ipant society ، ومجتمع المشاركين هو المجتمع الحديث الذي عرف معظم افراده التعليم المدرسى ، والعمل بالأجر النقدي من أعمال لهم مطلق الحرية فى تغييرها والاعتماد على الأسواق المفتوحة ،والقدرة على التصويت فى الانتخابات بحرية كاملة بالاضافة الى المشاركة فى الامور والمهام العامة [٢] . ويكتسب الأفراد لهذه الخصائص نتاجا لمراحل متعاقبة ، حيث يرتبط التزايد الحضري بانخفاض نسبة الأمية بسبب انتشار التعليم ، بالاضافة الى تزايد الاتصالات الجمعية نتاجا لاتساع مجال المشاركة السياسية والتى تؤدي الى المشاركة الاقتصادية فى شراء السلع الرأسمالية الكمالية أو الترفيهية [٣] .

ويسير فى نفس الاتجاه باحث أخر ، حيث يذهب الى أن دافع الانجاز Achievment, motive يعد هو الطموح وحب النجاح ، والاعتماد على الذات ويكتسب هذا الدافع من خلال مناخ تربوي ، وأن غياب هذا الدافع لدي أفراد المجتمع المتخلف هو أهم أسباب تخلفهم [٤]

---

(١) السيد الحسيني : المرجع السابق ص ص ٥٦ـ٥٨ .
حيدر ابراهيم على : التغير الاجتماعي والتبعية ، مرجع سابق ص ٨٥ .

(٢) Lerner, Danil, the passing of traditonnal society, Modernijing, the middle, East, New, York the free, press 1958. pp. 50-52.

(٣) Lerner, Danil, op.cit, p. 53.

(٤) Ma, Clellnand, David, the Achieving, Society , Princetoon, op.cit:p: 71.

بيد أن المأزق الذي وقع فيه الفكر الوظيفي في دراسته للواقع الأوربي ، ووقع أيضا فيه فكر التحديث الذي يعد وريث الفكر الوظيفي — هذا المأزق — هو انهما دون مستوي النظرية الكاملة المتسقة . كما لم يرقيا الى مستوي الظواهر المدروسة خاصة ظاهرتي التنمية والتخلف من حيث العمق والشمول [١] بالاضافة الى قيام الفكر الوظيفي بالتركيز على ابراز قدرة النسق الاجتماعي المتكامل على مقاومة كافة العناصر المزعجه لاستقراره كالصراعات الطبقية والاضطرابات والتمرد والعنف وذلك بخلق ادوار ومؤسسات جديدة يمكنها من تغير المهام الجديدة لكي يتجاوز النسق التغيرات الجديدة [٢] ، وتتركز أهداف الفكر الوظيفي في تحقيق اشباعات كمية من نمط السلع المنتجة في المجتمعات الغربية وتتحدد عوامل التنمية من وجهة نظر نظرية التحديث في تحديث بناء القيم Values عن طريق الاتصال العصري والتعليم العلماني والمؤسسات السياسية حيث يدفع ذلك بالطبقات الوسطى الى مزيد من المشاركة [٣] .

ثالثا : الاتجاه الراديكالي والتغير الثقافي :

١) الماركسية التقليدية :

تمثل الماركسية التقليدية مزيجا من الديالكتيكية والهيجلية ومن قضايا مورجان عن التطور الثقافي وتطور المجتمعات ومن الايمان بحتمية التقدم الذي يقود الى تأسيس مجتمعات أفضل ، وتفترض هذه النظرية أن الانسان يميل الى تحسين مستوي معيشته مما ساعد ماركس على اكتشاف التعاون والتنظيم . أي أن

---

(١) عبد الباسط عبد المعطي : الفكر التنموي وصراع المصالح مرجع سابق ص٣٥ .
محمد دويدار : التنمية في مصر والوطن العربي مرجع سابق ص٤٥ .
(٢) Taylor : Op, cit: pp. 26-27.
(٣) ولبورشرآم : اجهزة الاعلام والتنمية الوطنية ، مرجع سابق ص٤٩ .

التنمية هى نتاج انشطة الأفراد اليومية (١) ويعتمد الاطار التصوري للأفكار الماركسية على مسلمتين اساسيتين هما الحتمية الاقتصادية والانماء من خلال الصراع الطبقى ، وتتمثل الأولى فى الحتمية الاقتصادية وتري ان قوي وعلاقات الانتاج هما اللتان تشكلان العلاقات الاجتماعية والبناء الاجتماعى والعمليات السياسية والاجتماعية ، فالعامل الاقتصادي كما يذهب ماركس يتكون من الوسائل التكنولوجية للانتاج الذي يحدد بالتبعية العلاقات التى ينبغى على الأفراد أن يمارسوها لانتاج السلع بطريقة اكثر كفاءة عما لو كانوا منعزلين (٢) .

ويفرق ماركس بين البناء التحتى وبين البناء الفوقى فالأول يتألف من نظام الانتاج الذي يشمل على عنصرين هما : قوي الانتاج Power, Production وعلاقات الانتاج Relation of Production المترتبة عليها ، وتتكون قوي الانتاج من خلال تفاعل عاملين هما : وسائل الانتاج : وهى عباره عما يلزم الانتاج من أدوات... الخ ، فضلا عن الأفراد الذين يباشرون العمل الانتاجى (٣) ويشير مفهوم قوي الانتاج الى : مجموعة الوسائل التى يمكن بواسطتها انتاج السلع المادية ، وهى تنطوي على أدوات الانتاج والأفراد ، بما يتمتعون به من امكانيات وخبرة فى العمل (٤) .

أما علاقات الانتاج : فهى عبارة عن العلاقات التى تنشأ بين المشتغلين بفروع الانتاج ، بالاضافة الى العلاقات الخاصة بملكية الأموال ووسائل الانتاج ، أما البناء الفوقى : فيضم كافة الأفكار والنظريات السائدة فى المجتمع ، فضلا عن النظم المقابلة لها مثل : الدولة والقانون والاحزاب السياسية وما الى ذلك (٥)

---

(١) Chodack, Syzman: Societal, development 1973, op, cit. p. 27.

(٢) على ليله : الأسس النظرية والمنهجية ، مرجع سابق ص٤١٧ .

(٣) السيد الحسينى ، التنمية والتخلف ، مرجع سابق ص٢٦ .

(٤) محمود عوده ، تاريخ علم الاجتماع ، مرجع سابق ص١٢٧ .

(٥) السيد الحسينى ، المرجع السابق ص٣٠ .

واستنادا الى تحديد ماركس للدور الذي تلعبه علاقات الانتاج في تاريخ البشرية ، نجده يحدد خمس مراحل اختلف فيها النظام الاجتماعى للانسان واختلفت حياته الثقافية والفكرية والسياسية وهى : **المرحلة الأولى** ، وهى مرحلة الانتاج البدائى ، حيث كانت ملكية أدوات الانتاج جماعية ، وأدوات الانتاج هى الحجارة والقوس والسهم ، وحيث كان الانتاج مشترك بين افراد المجتمع الذي يخلوا من الطبقات ، **والمرحلة الثانية** : هى مرحلة العبودية أو الرق ، حيث بدأ الاغنياء يبسطون نفوذهم على الفقراء ، بحيث تحول الآخرون الى رقيق ملزمين بفلاحة الأرض ، **والمرحلة الثالثة** : وهى مرحلة الاقطاع ، حيث يمتلكون وسائل الانتاج وهى الأرض ، أما الاقنان فيعملون فى الأرض مقابل جعل معين يدفعه لهم الاقطاعيون ، وقد وضعت طبقة الاقطاعيين من النظم والأجهزة ما يحمى مصالحها ، غير أن التقدم العلمى والصناعى أدى الى ظهور المصانع فى المدن غير الخاضعه لسيطرة حكام الاقطاع والتى اجتذبت الفلاحين الهاربين من أراضى الاقطاعيين ، وبذلك ظهر فى الافق نظام جديد (نظام انتاجى) هو الرأسمالية الصناعية ، **والمرحلة الرابعة** : وفيها حلت البرجوازية محل الاقطاع ، وظهر فى المجتمع طبقتان اساسيتان وهما : طبقة البرجوازية وطبقة البروليتاريا ، والبرجوازي فى هذا النظام يمتلك وسائل الانتاج الأساسية فى المجتمع ، ويذهب ماركس الى أن هناك قوانين ثلاثة تؤدي الى تدهور الرأسمالية ١— قانون فائض القيمة ٢— قانون تراكم رأس المال ٣— قانون الافقار المطلق ، وتعمل هذه القوانين على ابراز التناقضات الكامنه فى النظام الرأسمالى ، ويؤدي ذلك الى تذمر العمال ، ومن ثم انفجار ثورة علنية تهزم فيها البرجوازية ، ويسيطر فيها العمال [1] وبذلك تنتهى هذه المرحلة بظهور **المرحلة الخامسة** والأخيرة وهى الاشتراكية ، التى يصبح المجتمع فيها مالكا لوسائل الانتاج ويكون خاليا

---

(١) السيد الحسينى ، التنمية والتخلف ، مرجع سابق ص ص ٣٠—٣٢ .
محمود عوده وآخرون ، نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٦٨ .

من الطبقات وبذلك تنمو وسائل الانتاج نموا حرا [1] .

ويكشف ذلك عن التغير الثقافى المصاحب لكل مرحلة من المراحل الخمس حيث تغيرت أساليب الحياة فى كل مرحلة من هذه المراحل اختلف فيها النظام الاجتماعى للانسان واختلفت فيه بالتالى حياته الثقافية والفكرية والسياسية بداية من مرحلة الانتاج البدائى تلك التى كانت فيها ملكية الأرض — جماعية واستخدمت فيها أدوات الانتاج القديمة التى اكتشفها الانسان من واقع البيئة التى يعيش خلالها وكان الانتاج مشتركا بين أفراد المجتمع الذي يخلوا من الطبقات ومن ثم كانت روح التعاون تسيطر على توجهاتهم، ثم تغيرت المرحلة الثانية (مرحلة العبودية) حيث بدأ الاغنياء يبسطون نفوذهم على الفقراء ومن ثم نشأ وبرز اسلوب حياة يختلف عن المرحلة الأولى فقد كان هناك أغنياء يبسطون نفوذهم فى مقابل اغلبية هم عبيد الأرض واقنانها ملزمون بفلاحة الأرض . الى أن تطورت الى المرحلة الثالثة وهى مرحلة الاقطاع حيث يمتلكون وسائل الانتاج وخاصة الأرض فى مقابل عمل الاقنان فى الأرض مقابل جعل معين يدفعه لهم الاقطاعيون وهو تغير فى أسلوب الحياة حيث بدأ العمل المأجور الذي لم يكن موجودا فى المرحلة الأولى ومن ثم وضعت طبقة الاقطاعيين من النظم والأجهزة ما يحمى مصالحها ، بيد أن التقدم العلمى والصناعى والذي أدي الى ظهور المصانع أدي الى خلق توجهات وتغير فى أساليب الحياة حيث اجتذبت هذه المصانع الفلاحين الهاربين من سطوة الاقطاعيين وبذلك برزت أعمال أخري غير العمل الزراعى صاحبها تغير فى آساليب الحياة حتى ظهر نظام انتاجى جديد هو الرأسمالية الصناعية ثم المرحلة الرابعة وفيها حلت البرجوازية محل الاقطاع وبروز طبقتين فى هذه المرحلة هما البرجوازية والبروليتاريا ثم المرحلة الخامسة وهى الاشتراكية التى يصبح فيها المجتمع مالكا لوسائل الانتاج ويكون خاليا من الطبقات، ومن ثم نجد أن هناك تغيرا ثقافيا مصاحبا لكل

---

(1) Chodack, syzman, societal, development, op,cit, p. 22.

مرحلة من هذه المراحل حيث تتغير اساليب الحياة فى كل منها ، ويختلف فيهـــا النظام الاجتماعى للانسان وتختلف فيها بالتالى حياته الثقافية والفكرية والسياسية مرورا بالمرحلة البدائية وحتى الأخيرة .

ومن ثم فان التنمية من وجهة نظر الماركسية توصف بأنها دوافع تطوريـــة فى اتجاه التقدم الانتاجى وانها انماء واتساع للانتاج واستمرارا للنمو المعتمـــد على ترشيد الانتاج وعلى العلم وأن الصراع الطبقى هو الذي يحدد درجـــة الاسراع بتنمية الابنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وأن الحتمية التاريخية تتطلب درجة عالية من تكون نظام الدول مع رفضها للغائيـــه ، وأن البنـــاء السياسى أو نمط الدولة يعكس الاهتمامات الاقتصادية للمجتمع ، أي أن ماركـــس يعتقد أن السلطة فى أي مرحلة من المراحل تخدم الاهتمامات الاقتصادية للطبقة المسيطرة ، أي هى التى تؤدي عملية التنمية الاقتصادية [(١)] .

وقد حدث تأكيد فعلى من قبل كارل ماركس على النسق الاقتصـــادي كأساس مادي للمجتمع ، غير أن هذا التأكيد له مبرراته الكثيرة أولها : أن الثـورة الصناعية أكدت فعالية الجوانب الاقتصادية ومن ثم فان التطرف فى التأكيـــد عليها يتضح من خلال رفض ماركس تعادل أو تساوي مجالات الانتاج الروحـــى والمادي ، بل يذهب الى أن الانتاج المادي هو الذي يحدد طبيعة الانتـــاج الروحى [(٢)] وقد أكد ماركس على امكانية أن لا يكون البناء الفوقى مجرد انعكـــاس مباشر للبناء الاقتصادي . فقد كانت فرنسا متقدمة اقتصاديا فى القرن الثامـــن عشر عن بلاد الاغريق وعجزت عن انتاج ثقافى يناظر الالياذه [(٣)] ومن ثم يؤكـــد الفكر النظري على امكان أن يكتسب البناء الفوقى نوعا من الاستقلالية لثلاثة عوامل :

---

(١) Chodack, Syzman, Societal, development, op, cit. p. 27.

(٢) A.Kloskowska: The, Conseption, of Culture. op, cit, p.490.

(٣) Marx 8 Engles: Selected, Work, Vol, 11.p.495.

الأول : أن التراث الثقافي قد ينبثق مرتبطا بشروط تاريخية محددة ، الا انه لا يموت بتغير هذه الشروط التاريخية ، فاكتساب القيم الثقافية والتخلي عنها يتم وفقا لعمليات اجتماعية بطيئة ، ومن ثم نجدها في أحيان كثيرة ليست انعكاسا مباشرا للشروط المادية القائمة ، والثاني : انه قد يتأسس نوع من الاستقلال النسبي للبناء الفوقي كالثقافة Culture وذلك لانتشار منتجات الوعي البشري مكانيا ، ويرتبط بذلك امكان اكتسابها لوظائف جديدة ، وفي ذلك الغاء لتبعيتها لشروط مادية محددة واكتسابها لنوع من الاستقلال ، والثالث أن البناءات الفوقية أو بعض عناصرها الأساسية عادة ما تصبح ارثا مشتركا لتشكيلات ثقافية عديدة ، وذلك لكونها تشبع حاجات اساسية لدي الكائنات البشرية ، بغض النظر عن طبيعة الشروط المادية التي يعيشون في ظلها [1] .

ولعل أفضل صياغة للموقف الماركسي في جوهره الحقيقي من مسألة الجوانب المادية والثقافية للنسق ، ومدي ارتباط الأولى بنوع من الحتمية ، تلك الصياغة التي قدمها التوسير Althusser اذ يفترض تصورا جديدا للعلاقة بين البناء التحتي والبناء الفوقي يرتكز على مبدأين اساسيين : الأول : الاستقلال النسبي للبناءات الفوقية وتأثيرها او نتائجها المحددة ، والثاني : هو أن التأثير الحتمي عادة ما يكون لأسلوب الانتاج الاقتصادي ، ويعني ذلك وان كانت البناءات الفوقية تنشأ كانعكاس للشروط المادية القائمة الا ان قدرتها على الاستمرار تكون بدرجة اكثر من الشروط المادية ، وذلك باعتبار قابلية الشروط المادية للتغير السريع [2] هذا بالاضافة الى تغطية البناءات الفوقية لاكثر من وجود مادي أو بناء تحتي ، ويؤكد ذلك نوعا من الاستقلالية الخاصة بحيث لا

---

(1) A.Kloskawska, : The Coception of Culture op. cit, p. 16.

(٢) حول هذا الموضوع لمزيد من التفصيل انظر :
علي ليله : النظرية الاجتماعية المعاصرة ، مرجع سابق ص ٢٧٤—

تصبح فى سياق زمنى أو مكانى انعكاسا ميكانيكيا أو أليا للشروط المادية القائمة (١) .

وهناك من يري أن التصنيف الطبقى عند ماركس يعانى من قصور ، فقد يوجد شخصان متفقان فى المواقف والاهتمامات ويصنفان فى طبقة واحدة فى الوقت الذي يختلف فيه كل منهما من حيث نوعية العمل الذي يمارسانه ومن ثم يصنفان مرة ثانية فى طبقتين مختلفتين ، ومن هنا يمكن استخلاص أن ماركس لم يتعامل على المستوي النظري العقلانى للانسان وانما تعامل مع العلاقات الاجتماعية وخاصة تلك التى تعرقل التنمية .أي أن النواحى الذاتية والموضوعية قد شابها بعض الغموض فى العلاقة بين الفاعل والهدف باستخدام ماركس لمعايير العقلانية والفعل الواعى (٢) .

كذلك يمكن أن نلحظ بوضوح ان ماركس وانجلز لم يتحررا تماما من النزعة المركزية الاوروبية ، وكذلك فان عرض ماركس وتحليله للتحول نحو الرأسمالية ، قد تم باسلوب ابعد ما يكون التفسير وفقا لحتمية تكنولوجية ، بل انه قد ركز جل اهتمامه على عوامل اجتماعية صرفه ، مثل شيوع الاستقلال الذاتى للمدن ، وتحرير العمل ، وتطور رأس المال التجاري بحكم ظروف الاستقلال الذاتى للمدن ، وقد عالج ماركس هذه العوامل الاجتماعية ، بوصفها قوي انتاجية فى ذاتها (٣) أي أن التقدم التكنولوجى لم يلعب دور الحاسم الا فى مرحلة معينة من هذه المراحل ، وفى ظل سياق ساهمت فى تشكيله ظروف او عوامل تاريخية أخري (٤) .

يضاف الى ذلك أن ماركس قد صاغ نظريته كسياسى ملتزم ، مما أدي بدوره

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

(٢) Dik, Atkinsion, Orthodox ,: Consensus and Radical, Alternative, 1972, op.cit, pp, 214-216.

(٣) محمود عودة : الفلاحون والدولة ، مرجع سابق ص ٢٨ .

(٤) السيد الحسينى : التنمية والتخلف ، مرجع سابق .

الى التقليل من صدق عدد من التنبؤات ، ومنها ان الثورة البروليتارية لم تقع كما ذهبت الماركسية فى المجتمعات الصناعية ، اذ وقعت الثورة فى أقل المجتمعا الرأسمالية تطورا ، بالاضافة الى ذلك نجد ان المجتمعات الصناعية المتقدمة قد تضمنت تغيرا كيفيا عن النموذج الماركسى ، بالاضافة الى ذلك لم تصبح الثورة البروليتارية هى الفعل العقلانى الوحيد الى ذلك - اي لتحقيق مصالح البروليتاريا ، والقضاء على مفاسد النظام البرجوازي . وانما ظهر ما يمكن أن نسمية بالأسلوب أو الثورة الديموقراطية (١)

٢) الاتجاه الماركسى الجديد :

لقد نظر ماركس الى المجتمعات على أنها تمثل بناءات مستقلة بذاتها ، كل منها يتطور فى ضوء قواة الداخلية ، وبذلك نجد التغير عند ماركس، يتوقف على صراع دائم بين درجة تطور قوي الانتاج من ناحية وعلاقات الانتاج من ناحية أخري . ومن ثم فان الطبقات - على الأخص البروليتاريا - هى التى تمثل وسيلة التنمية أو التطور الاقتصادي ، ولنا أن نتوقع تغلغل التخلف طبقا للتفسير الماركسى فى كل من قوي الانتاج وعلاقات الانتاج ، ونمط الانتاج ، والعلاقات الاجتماعية ، والوعى الاجتماعى والتكوين الاجتماعى ، وأن التخلف يبدو واضحا للتناقضات القائمة بين هذه العناصر ، ومن ذلك يبدو واضحا ان التصور الماركسى للتخلف يتصف بالشمول ، وعلى هذا فان ظاهرة التخلف تتكون من عنصرين اساسيين تقوم بينهما علاقة جدلية هى العنصر الاقتصادي والعنصر الاجتماعى (٢)

ولقد حاولت الماركسية الحديثة التأكيد على دراسة العالم ككل ،أي كوحدة متكاملة ، ومن مميزاتها ادراكها وفهمها لحقيقة التبعية ، ولعلاقة الدول

---

(١) محمود عوده ، المرجع السابق ص٢٩ .
على ليله : النظرية الاجتماعية المعاصر ، مرجع سابق ص٤٠٤ .
(٢) السيد الحسينى ، المرجع السابق ص١٢٧ .

المتقدمة بالدول المتخلفة ، أي أن معالجة ماركس للرأسمالية اقتصرت على المستوي الداخلي للمجتمعات، ولم تمتد الى النسق الرأسمالي في علاقته على المستوي العالمي ، فالرأسمالية ليست عملية أو نمط ،وانما هي علاقة غير متكافئة بين طرفين احدهما يتمتع بعملية التنمية على حساب الآخر (١) .

وتمثل الامبريالية الاهتمام الاساسي للماركسية الحديثة ، بالاضافة الى أنها اعطت اهتماما كبيرا للعالم الثالث، وأن التفاوت بين الدول هو القانون العام للعمليات التاريخية ، ويتبلور هذا في الدول المتخلفة ، وأن العالم يمثل شيئا واحدا في طريقه الى التقدم ، وأن الدول المتخلفة قد تكون بسبب تخلفها ضعيفة في الاتصال بالثورات أو الانفجارات الثورية ، وأن نظرية الثورة الدائمة تؤدي الى مشاكل للرأسمالية في الدول المتخلفة ، ولا يمكن علاجها الا بالحلول الاشتراكية (٢) كذلك نجد أن لينين — برغم ان ادا ، كانت متمركزة في روسيا ، الا انه — أعطى أهمية كبري للعالم الثالث بالاضافة الى اعتقاده بأن نهاية الصراع والمقاومة سيكون لصالح الأغلبية ، وأن تصدير رأس المال سوف يعجل من عملية التنمية الرأسمالية في الدول التي تصدر رأسمالها (٣) .

ويعد بول باران Baran من أشهر الاقتصاديين السياسيين الماركسيين المحدثين ، الذين اهتموا بمشاكل التخلف ، فالمؤلفات الكلاسيكية لم تكن في حقيقة الأمر تعالج التخلف، ويفسر بول باران حتمية الثورة من أجل التنمية ، بأن التطور وحدة لا يكفي لاحداث عملية الانماء ، وأنه لابد من الثورة لتحقيق ذلك، فهناك اختلافا وصراعا عميقا بين الرأسمالية الغربية وتقدم الدول النامية ،وأن تنمية الدول أو المجتمعات الغربية كان على حساب الدول المتخلفة (٤)

---

(١) Poster, Carter, Aidon, New, marxist, approaches, to development and, Underdevelopment 1974. op.cit, pp: 66-70.

(٢) ibid : pp.74-75.

(٣) ibid : pp.78-79.

(٤) السيد الحسيني ، التنمية والتخلف ، مرجع سابق ص ١٣٧ .

ويذهب — باران — الى أن العلاج الوحيد الذي يمكن الدول النامية من القضاء على الامبريالية يكون فى الأخذ بالنظام الاشتراكى ، فهو القادر على تحقيق تقدم اقتصادي واجتماعى فى البلاد النامية، وأن المهمة التى تواجه ثورة اشتراكية فى دولة متخلفة مهمة معقدة، لانها لا تقتصر فقط على تنمية هائلة للقوي الانتاجية، بل تتعدي ذلك لتشمل خلق نظام اقتصادي اجتماعى اشتراكى جديد تماما [١] .

ويذهب — فرانك — الى أن التخلف المعاصر فى حد كبير منه يمثل نتاجا للعلاقات الاقتصادية التاريخية بين الدول المتخلفة والدول المتقدمة ، وبعبارة أخري يري فرانك أن التخلف نتاجا للتنمية ، ويطور فرانك نموذجا يستوعب الانسانية فى شبكة من العلاقات، فتوسع النظام الرأسمالى أدي به الى التوغل فى الدول المتخلفة وأدي الى تخلفها ، أي أن هناك سيطرة العواصم على التوابع سواء على مستوي الدول المتخلفة الواحدة ، أو على مستوي الدول المتخلفة والدول المتقدمة [٢] .

وتري الماركسية الحديثة فى نقدها للنظرية البرجوازية انها تفترض أن التنمية ما هى الا عملية تطور من دول تقليدية متخلفة الى دول متقدمة ، وأنه لابد من اتصال المجتمعات المتخلفة بالمجتمعات المتقدمة (المجتمعات الصناعية) ولقد أدي هذا الدور الذي قامت به الدول المتقدمة فى تخلف الدول النامية الى انماء النظرية البرجوازية ، والتى تلقى اللوم على أفراد الدول النامية لكونهم فى حالة تخلف [٣] .

---

(١) المرجع السابق ص١٣٧ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) Frank, Ander, Gunder, Latin, America Underdevelopement, or, Revolution 1970, op, cit, pp: 221, 223.

كذلك يعتقد فرانك أن التشابه بين المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية يسمح للبرجوازية أن تبرهن على أن الاستغلال الطبقي غير متصل بالرأسمالية ، وهذا يؤدي الى أنه لا ضرورة لتغيير المجتمع (١) ويعتقد أن السياسة يجب أن تتحد مع الايديولوجية من أجل الثورة ، وأن الثورة تحتاج الى عمل تنظيري وتحليلي للمجتمع ، فالايديولوجية شئ اساسي لمقاومة السياسة البرجوازية الاصلاحية التي لا يؤمن بها ، لانها لا تخدم الا البرجوازية (٢) .

ويذهب محمود عودة الى أن التطورات الحديثة في الدراسات الماركسية قد اسفرت عن تيارين اساسيين : يتمثل الأول : في البينوية الماركسية Structuralist Marxism ـ ويتمثل الثاني : في النظرية النقدية Critical Theory ويمثل الاتجاه الأول الى ـ لوي التوسير من ناحية ، والانثروبولوجيا البنائية من ناحية أخري ، وقد اكد التوسير في معرض تحليله الفلسفي ذلك الجانب من النظرية الماركسية الذي يركز على التحليل البنائي ، والنظرية الماركسية من وجهة نظره تكشف عن وجود مشكلتين ، حيث يفهم المجتمع الراهن وكافة الأشكال التاريخية للمجتمع بوصفها نتائج ، بوصفها مجتمعات ، ومن ثم فان على نظرية ميكانزم الانتقال من اسلوب انتاجي الى آخر أن تطرح مشكلة التنمية أو " المحصلة " وأن تجد حلا لها (٣)

وترتبط هذه المشكلة بعملية الانتاج التاريخي لاسلوب انتاجي معين في اطار تكوين اجتماعي معين ، تلك هي التنمية المعنية ، التنمية الخاصة التي تنشط كمجتمع على خلاف النتائج والاثار الأخري التي تنشط بطرق مختلفة تماما ، أما المشكلة الثانية فقد نوقشت وفسرت في ضوء نظرية بنية اسلوب الانتاج ، ونظرية رأس المال (٤) .

---

(١) ibid, pp 80-81.

(٢) ibid, pp 317-330.

(٣) محمود عودة ، تاريخ علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ١٧٣ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧٤ .

ويركز الاتجاه البنيوي الماركسي على عدة مقولات منها على سبيل المثال : اسلوب انتاج الحياة المادية ، والتكوين الاجتماعي المطابق له ، وفهم هذا التكوين بوصفه بنيات ذات طابع هرمي ، وطبقا لهذه الرؤية ، فان تحليل البنية يكتسب أولوية على التحليل التاريخي ، أضف الى ذلك أن تحديد التغيرات الأساسية لاسلوب الانتاج والتكوين الاجتماعي ، وتميزه بين البنيات المختلفة أو المستويات أو الاصعده الاقتصادية والسياسية والايديولوجية والنظرية التي تتشابك وتختلط ، وتتمفصل خاصة في كل تكوين اجتماعي محدد تاريخيا ، وثمة تحليل لأساليب الانتاج السابقة على الرأسمالية ، والعلاقة بين أسلوب الانتاج والتكوين الاجتماعي من خلال رؤية لا تاريخية قوية مع رفض لدور الماركسية بوصفها علما للتاريخ (١) .

ويعبر البنيويون الماركسيون على تأكيدهم للاستقلال الذاتي الذي تتمتع به البنيات المختلفة التي تشكل أي تكوين اجتماعي ملموس ، ولذلك فأن تطور البنية الاقتصادية "اسلوب الانتاج "بوصفها المحدد النهائي أو العامل الحاسم في التحليل الأخير ، لا يعنى ان البنية الأخري قد تكون هي المسيطرة ، بل أن تطور التناقضات داخل البنية المختلفة وبنيتها هو الذي يؤدي الى انهيار تكوين قائم وظهور تكوين جديد (٢) .

والتيار الآخر للفكر الماركسي الجديد هو النظرية النقدية حيث يتفقون الى درجة ملحوظة مع البنيويين الماركسيين في أن اصعده الحياه الاجتماعية شبه المستقلة ، وهي الاصعدة الاقتصادية والسياسية والايديولوجية ، وأن ما يحدث بين هذه الاصعده ، هو تفاعل معقد ، وليست العلاقة بينهما هي مجرد خط وحيد الاتجاه تجري من خلاله سيطرة البنية الاقتصادية وحتميتها وتحديدها للأصعده الأخري وتؤكد النظرية النقدية على دور الوعي والنشاط

---

(١) محمود عوده المرجع السابق ص ١٧٥ .
(٢) محمود عودة ، المرجع السابق ص ص ١٧٥ – ١٧٦ .

الهادف المقصود بوصفة عنصرا اساسيا فى خلق أو تغيير شكل اجتماعي معين ، وأن الوعى ليس مجرد ظاهرة انعكاسية لظروف الانتاج المادي ، وأنه ليس نتاجا للتفاعل بين الانسان والطبيعة ، بل هو قدرة مستقلة ومتميزة على استخدام اللغة وخلق الرموز أو التفكير الرمزي ، وتتجه هذه النظرية فى تحليلها للعالم الاجتماعى من خلال تفسير المعانى وليس من خلال العلاقات السببية ، ومن ثم فهى ترفض فكرة السببية البنيوية ، وتؤكد على سطوه الايديولوجيا كقوة تحدد الواقع الاجتماعى ، بالاضافة الى طبيعة الصراعات الاجتماعية بوصفها نتاجا من الايديولوجيات وأفكار وتفسيرات مختلفة للعالم الاجتماعى (١) .

وقد تبلورت افكار ومقولات الماركسية الحديثة فى عملية انماء المجتمعات النامية فيما يلى : الاقتصاد ، المساعدات الاقتصادية والامبريالية والطبقة والتبعية ، حيث اهتم الماركسيون المحدثون بدراسة الأوضاع الاقتصادية ، حيث تتسم الماركسية الحديثة بالنظرة العالمية ، لاهتمامها بموضوعات متعددة مثل القوي السوداء والقوي الطلابية ، وثورة الفلاحين وما الى ذلك ، وهو ما يخالف النموذج الماركسى ، أي أن اهتماماتها لم تقتصر على دراسة الطبقات فقط ، وانما امتد الاهتمام بالافراد بهدف التعبير عن أنفسهم ، بالاضافة الى تأكيدها على ضرورة التحول الذاتى (٢) .

وتعتقد الماركسية الحديثة ان الطبقات ذات طبيعة معقدة وانها تعتبر عاملاً من عوامل التغير الاجتماعى ، وأن التحليل الطبقى يجب ان يكون تاريخيا ، ويجب ان يتم من خلال تراكم العلاقات الطبقية ، وأعطت الماركسية الحديثة لطبقة البرجوازية الصغيرة دورا هاما فى عملية الثورة ، وذلك من حيث تشابهها مع الطبقة العاملة فى المعاناة فى البناء الاجتماعى الاستثماري ، كذلك اهتمت

---

(١) المرجع السابق

(٢) Frank, Ander, Gunder,*Latin, America Underdevelopement, or Revolution op,cit,pp.75-78.

بمعيشة الفلاحين ، وأصبح هذا الاهتمام احدي الخصائص المميزة لها على عكس ماركس فقد كان اهتمامه موجها لعمال الصناعة وبالرأسمالية الصناعية واعتقاده بأن عمال الزراعة يمثلون فئة فرعية [١] .

ومن حيث الشمولية تري الماركسية الحديثة انه يجب ادراك العالم كوحدة متكاملة ، وأنه ينبغي على أي نظرية في التنمية ان تضع النظرة الشمولية التاريخية في اعتبارها ومعرفة اسباب وجود دولة متقدمة وأخري متخلفة وأن التبعية عامل حاسم في ذلك [٢] .

وثمة انتقادات وجهت الى هذه النظرية ، ولا سيما في تفسيرها للتخلف والتنمية ، حيث انها ما تزال تعاني من نقاط ضعف واضحة ، حيث ان معظم هذه المحاولات تميل الى الكشف عن العلاقة الاستغلالية التي تربط الدول الرأسمالية المتقدمة بالدول النامية والتي تؤدي في نهاية الأمر الى تخلف وتبعية الدول النامية ، وهم في تبنيهم لفكر النظام العالمي ، يحللون فقط جانبا واحد من هذا النظام — علاقة الدول الرأسمالية المتقدمة بالدول النامية — متجاهلين الجانب الآخر المتمثل في علاقة الدول الاشتراكية المتقدمة بالدول النامية كذلك انتقدت هذه النظرية فيما يتعلق بالمفاهيم التي تستخدمها كالصراع الطبقي والطبقة ، وهي مفاهيم تتعلق بطبيعة المجتمع الرأسمالي ، ولا تعبر عن الواقع تماما اذا ما استخدمت لوصف البلاد النامية بالاضافة الى تجاهل المتغيرات القومية الهامة في الدول النامية [٣] .

ويذهب محمود عوده الى أن ثمة تغيرات هامة قد حدثت ، حيث حقق تطور الماركسية كنظرية اجتماعية استقلالا كبيرا عن الاهتمام السياسي المباشر

---

(١) ibid, pp. 77-80.
(٢) السيد الحسيني : علم اجتماع التنمية ، مرجع سابق ص ٧٥ .
(٣) المصدر السابق .
محمود عودة ، المرجع السابق

وأصبح هذا التطور المستقل امراً واقعا ، ومن ناحية أخري لم يعد ثمة ماركسية تقليدية يمكن أن تزعم الصواب المطلق فى الرؤية السياسية والحزبية أو فى أهداف الحياة السياسية ، بل العكس هو الصحيح ، فان اختلاف المواقف النظرية وتنوعها والاعتراف بوجود مشكلات لم تحل بعد ، والتسليم الجزئى بالطابع المعقد وغير الحتمى للتطور التاريخى ، قد بدأ يفرز اتجاها اكثر اختيارية وتجريبية للفصل السياسى ، ويراعى الاعتبارات والظروف المختلفة ، التى ربما كانت النظرية قد تجاهلتها ، ولذلك أصبح من المقبول على نطاق واسع أن العمل العلمى (الماركسى) يمكن أن يكون مستقلا عن العمل السياسى ، ولكن عملية تحرير الفكر الماركسى من النزعة الدجماطيقية ما تزال بحاجة الى أن تفهم فى سياقها الاجتماعى ، كما ينبغى ان تفهم عنصرا من عناصر تلك الحركة العامة للتحرير الانسانى التى حددها ماركس نفسه فى لغة اصيلة ودرامية (١) .

الا اننا يجب ان نضع فى الاعتبار الانتقادات التى توجه الى الماركسية حيث ان النظريات السوسيولوجية الأخري قد تعرضت لانتقادات وربما كانت أكثر حدة وأنه لا توجد نظرية عامة كانت لها قوة تحديد المشكلات وتحليلها فى تطور المجتمعات ، وصياغة ارتباطات سببية ، واثارة جدل المسائل النظرية الرئيسية ، ولكن ربما يمكن القول بأن الفكر الماركسى شأنه شأن النظريات السوسيولوجية الأخري ، كان جزئيا فى مطالبة لفهم الحياة الاجتماعية وتفسيرها ، ولم يكن مهيئا لاستيعاب الحدود المفروضة على الفكر السوسيولوجي برمته ، حين يواجه بالتعقيد الهائل للتفاعل الاجتماعى والامكانيات البشرية للتجديد الابتكاري (٢) والشئ المهم هو ادراك النطاق السوسيولوجي بوصفة مجالا لتنافس النظريات حول تفسير وقائع الحياة الاجتماعية . لقد عاونت فكرة الاشتراكية بوصفها مستقبلا ممكنا ومرغوبا فى توجيه علم الاجتماع الماركسى فى اختياره

---

(١) محمود عودة : تاريخ علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ١٨٥ .

(٢) محمد على محمد : نقد علم الاجتماع الماركسى ، مرجع سابق ص ٤٢٤ .

أـ نظرية التبعية والتحول من تبعية الاقتصاد الى الثقافة :

يقصد بالتبعية خضوع اقتصاديات دولة ما لدولة أخري من أجل تنمية الدولة المسيطرة ، فالتداخل فى التبعية بين نظامين اقتصاديين أو أكثر وبين هذين النظامين والتجارة العالمية يفترض سيطرة دولة على دولة أخري فى سبيل انماء الدولة المسيطرة ، وهذا يؤدي الى أن تختصر الدولة المسيطرة عملية الانماء بها مما يؤدي الى تخلفها كنتاج للسيطرة والاستغلال الذي تمارسه الدولة المسيطرة ، حيث انها تسيطر على مصادر رأس المال والتكنولوجيا ، بالاضافة الى سيطرتها على الأوجه الاجتماعية والسياسية فى الدولة التابعة (٢) أي أن التبعية هى جعل دولة ما فى حالة تخلف واستغلال من جانب دولة أخري تسيطر على التجارة والتكنولوجيا ٠وعلى النواحى السياسية والاجتماعية فى الدولة المتخلفة ، وتعتمد التبعية على التقسيم العالمى للعمل الذي يسمح للتنمية الصناعية بأن تأخذ مكانها فى بعض الدول دون البعض الآخر ، أي أن التبعية هى موقف شرطى يحدد التنمية وأشكالها فى الدول التابعة (٣) .

وقد تبلورت نظرية التبعية كرد فعل لازمة الماركسية فى فهم البناء

---

(١) محمد على محمد : المرجع السابق،ص ١٢٥ .

(٢) S.Santons,t. Dos, the ctisis of development theo-ry,8, the proplem of dependence, in Latin America, pp.75-80,op,cit.

(٣) ibid, pp. 75-80.

الاجتماعى والسياسى لمجتمعات العالم الثالث، حيث ان الفكر الماركسى قد ركز اهتماماته على مجتمعات اوروبا الغربية فى القرن التاسع عشر، ولم يهتم ماركس بمجتمعات العالم الثالث، الا بالقدر الذي يخدم نظريته عن الرأسمالية[١].

ان دراسة التبعية يجب ادراكها على المستوي الداخلى حيث انه مكمل للوضع العالمى ، ففى داخل الدول النامية ذاتها يوجد نسق يعبر عن استغلال الداخلى الذي يتمثل فى استغلال المدينة للقرية، وهذا الاستغلال الداخلى يرتبط بالاستغلال الخارجى العالمى ، أي انه يمكن القول بأن الاستغلال الداخلى يعتبر دائرة متصلة بين الوضع العالمى [٢] وهو ما يعنى أن التبعية هى العامل الحاسم أو الرئيسى للتنمية والتخلف الذي يكمن فى تزامن اهتمامات الأقلية الوطنية المستنيرة مع البناء الاقتصادي للتخلف، وهناك اعتقاد بأن السبب الحقيقى وراء التخلف، لا يرجع الى عزله غالبية قطاع المجتمع النامى أو المجتمعات النامية عن النسق الرأسمالى ، ولا الى استمرارية العلاقات الاقطاعية، وانما يرجع التخلف فى المقام الأول الى الاندماج والتبعية للنسق الرأسمالى العالمى الذي يختضن المجتمعات النامية ، فتخلف المجتمعات النامية يرجع الى التناقض الداخلى فى استغلال الامبريالية الرأسمالية لتلك المجتمعات والتى مازالت تجمع بين التنمية والتخلف[٣] .

ودراسة عملية التنمية تتطلب معرفة درجة التبعية فالدول النامية لا تستطيع ان تمر بمرحلة الانماء الا بان تضعف علاقاتها بالدول المتقدمة ، وتعتبر هذه الفكرة عكس الافكار الأخري التى تعتقد بأن التنمية فى الدول النامية تعتمد على الاتصال بالدول المتقدمة، فالعزلة التى مرت بها دول امريكا اللاتينية

(١) احمد زايد — البناء السياسى فى الريف المصري، مرجع سابق ص ١٦٢ .
(٢) السيد الحسينى، التنمية والتخلف ، مرجع سابق ص ١٨٠ .
(٣) السيد الحسينى ، المرجع السابق ص ١٨٠ .

كانت لازمة ونتاجا للظروف والأوضاع التى مر بها العالم ، وفى اثنائها نشأت الصناعات الحديثة فى كل من البرازيل والارجنتين ، ومنذ لحظة محاولة المناطق المتروبولية تدعيم علاقة التبعية بالدول النامية ، تغير مجري وهدف عملية التنمية بسبب التبعية للعواصم المتروبولية (١) .

أي أن التبعية هى نتاج للتنمية التاريخية ، ولاستمرارية بناء العالم الرأسمالى ، وأن العمليات التاريخية لا تنحصر فى العلاقة بين الدول النامية والعواصم الرأسمالية فقط ، وانما تمتد الى الوضع الداخلى ، حيث انه مكمل للوضع العالمى ، حيث ان القضاء على التخلف يتطلب وعى أفراد المجتمع المتخلف بدورهم فى الاسهام بعملية انماء مجتمعاتهم ووعيهم باتباع المنهج الشمولى الذي يساعدهم على فهم العلاقة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة ، وأن العلاج يكمن فى الخروج من دائرة النسق الرأسمالى عن طريق الاشتراكية (٢) .

وتعد نظرية التبعية هى الموقف السائد لمعظم الدوائر الفكرية لامريكا اللاتينية ، ان جوهر نظرية التبعية — كما روج لها علماؤها — انه من الصعب دراسة مجتمعات العالم الثالث بمعزل عن تطور المجتمعات الغربية ذاتها ، حيث انه من الضروري النظر الى العالم بوصفه نسقا واحدا ، غير ان القضية الأساسية التى تنطوي عليها نظرية التبعية ، ليست جديدة تماما ، حيث طرقت من قبل ماركس حين أوضح أن التطور الرأسمالى العالمى يؤدي فى نهاية الأمر الى ربط مصير الدول الصناعية بالدول الأقل تصنيعا ، بالاضافة الى تأكيده على أن انتشار الرأسمالية فى مختلف انحاء العالم يعمل فى نهاية الامر على خلق ظروف مواتية فى الدول المتخلفة تساعد فى تحولها الى مجتمعات رأسمالية . مما يسهم فى قيام مجتمع رأسمالى عالمى ، يشهد تناقضاته الأساسية ممهدا بذلك

---

(١) Fronk, Ander, Gunder, Latin, America Underdevelopement, or, Revolution, p:224-op.cit.

(٢) ibid, p. 225.

لظهور مجتمع شيوعي ، وأن التوسع الاستعماري الأوربي لم يؤدي الى تعميق الرأسمالية في المستعمرات بقدر ما أدي الي تشويه اقتصادياتها [1] أي أن تاريخ العالم هو تاريخ واحد ، ومن ثم فان التنمية والتخلف هما وجهان لعملة واحدة من حيث انها نتاج للتوسع الرأسمالي الذي تغلغل في أكثر قطاعات المجتمع انعزالا في المجتمعات المتخلفة [2] .

أن علاقة التبعية قد أدت الى أن الدول التابعة يتحدد نموها الاقتصادي طبقا لاهتمامات الدول المسيطرة على اقتصادياتها ، ففي مجال الصناعة أدت السيطرة والتبعية الى ابقاء الدول النامية مصدرا للمواد الخام والتي تحتاجها عملية التنمية في العواصم، وكذلك توجيه الانتاج ليكون استهلاكيا فقط، وذلك بالنسبة للقطاع الزراعي الذي يتميز بكونه مصدرا لانتاج المواد الخام التي تصدر الى الخارج لاستخدامها في التصنيع بتلك العواصم، ويعكس هذا صعوبة الاستقلال الحقيقي للدول النامية [3] كذلك يري — فرانك — Frank أن سبب تخلف دول العالم الثالث هو الاستعمار وتقدم العالم الأول ، حيث يذهب: الى أنه من الصعب فهم التخلف في مجتمعات غير مستقلة مثل مجتمعات امريكا اللاتينية اذا لم يطرح هذا التخلف تاريخيا كنتيجة لسياسة البرجوازية [4].

واهتم والشتين Wallerstien ، الذي يعد أحد مؤسسي نظرية التبعية بتحليل مركز النظام العالمي وكيف صاحب التوسع الرأسمالي زوال المجتمع الاقطاعي أو تحوله في هذا المركز ، الأمر الذي ترتب عليه ضرب من ضروب تقسيم العمل الأولي ، بحيث أصبح كل شيء في التوابع يتحدد من خلال نظام عالمي ، وأن علاقة الاستقطاب ليست علاقة ثنائية بين المركز والتوابع، بل هي علاقة ثلاثية

---

(١) السيد الحسيني :نظرية التبعية حوار وجدل ،مرجع سابق ص٠ ٢٠

(٢) Frank, Under, Gunder, Latin, America p.24 op,cit

(٣) اندرية جوندر فرانك ، البرجوازية الرثة والتطور الرث، مرجع سابق ص٠ ١

(٤) السيد الحسيني ، التنمية والتخلف، مرجع سابق ص ص٢٤٣_٢٥٧ ٠

بين المركز والتوابع واشباه التوابع ويتحدد لكل وحدة من هذه الوحدات وظيفة معينة في تقسيم العمل الدولي [1] .

ويذهب سمير أمين S-Amin في تحليله لعلاقة المركز والمحيط في النظام الرأسمالي من منظور التبعية ، الى أن المحيط يعني الدول النامية التي تقوم على تلبية احتياجات المركز ، وتتغير وتتبدل وفقا لتطوراته ، وداخل هذه العلاقة يتحدد التخلف في شكل أولي ، وهو نشوء قطاع تصديري بواسطة الدول المستعمرة ، ويلعب دورا هاما في قيام السوق ، بالاضافة ظهور نمط استهلاكي بذخي يمنع التراكم ويستنفذ الموارد النادرة ، بالاضافة الى بروز ظاهرة التهميش أي تحويل المنتجين الصغار الزراعيين والحرفيين الى كادحين ، وافقار الفلاحين ثم زيادة المناطق الحضرية والبطالة الجماعية في المدن ، في مقابل أن يتم ادماج أقلية محظوظة في النظام العالمي ، حيث أدي هذا التطور الى تهميش الجماهير الذي يضمن للأقلية دخلا متزايد لاتباع انماط الاستهلاك ويؤكد الاندماج الاجتماعي والثقافي ، الايديولوجي والسياسي لهذه الطبقات فيما بينها وبين النظام العالمي [2] .

الا أن التبعية لم تكن نتاجا لعامل خارجي فقط ، ولكنها ايضا نتاج عامل داخلي ، حيث لا ينبغي أن يشغلنا الاهتمام بالمؤثرات الخارجية على الدول النامية عن فهم المؤثرات الداخلية التي تلعب دورا لا يمكن اغفاله ، فاذا كان النظام الدولي قد لعب دورا في تحديد اسلوب التنمية في دول العالم الثالث ، فان هذه الدول قد لعبت ومازالت تلعب دورا في تشكيل النظام الدولي وأن اغفال هذه الحقيقة البنائية يعني تجاهلا للطابع الديالكتيكي الذي

---

(١) احمد زيد ، البناء السياسي في الريف المصري ، مرجع سابق ص١٧٢ .
(٢) سمير امين ، التطور اللامتكافي ، مرجع سابق ص١٤٨ ص ٥٠

يميز العلاقات الاقتصادية والسياسية التى ربطت المتقدمة بالدول المتخلفة ، كما انه يعنى تجميد الواقع التاريخى ، أي أن التخلف (أو التبعية) هو نتاج لقوي تاريخية محلية [١] .

وقد ركزت التبعية على مفهوم النسق العالمى على أنه وحدة التحليل الأساسية ، واهملت الانساق الصغري كوحدات للتحليل مما ترتب عليه صعوبة فهم الديناميات الداخلية للمجتمع التابع ، كذلك الاهتمام المبالغ بالعلاقات الاقتصادية مع اهمال العلاقات الاجتماعية والثقافية [٢] ولم تشر نظرية التبعية الى موقف الصراع الثقافى وديناميات التوجهات القيمية ودورها فى استمرار المجتمع التابع ، بل ان اهمال العناصر القيمية والثقافية قد ادي الى تقديم تفسيرات ميكانيكية لنظام الدولة وجماعات الصفوة حيث تم ردها الى الأسس الاقتصادية المرتبطة بالتوسع الرأسمالى [٣] .

الا أن نظرية التبعية قد استطاعت بمضامينها المختلفة البرهنه على صدق قضية اساسية ، هى ان مواجهة تخلف شعوب العالم الثالث تتطلب اعادة النظر في علاقة أو تمفصل الاقتصاديات التابعة بالنظام الاقتصادي العالمى ، وايجاد كيان دولى جديد تتخذ فيه الدول النامية موقعا أفضل من ذلك الذي تتخذه الآن [٤] كذلك ينبغى تفسير التبعية في ضوء العوامل الداخلية دون اقتصارها على العوامل الخارجية فقط ، حتى نقف على القوي الاجتماعية التى يمكن لها أن تتحمل عبء التنمية ، وأن السيطرة الخارجية مفهوم لا قيمة له ما لم يرتبط بالديناميات الداخلية ، حيث أن الفهم الحقيقى لمشكلات العالم الثالث يتطلب الربط بين المصالح الأجنبية والمحلية . [٥] .

---

(١) السيد الحسينى : نظرية التبعية ، حوار وجدل ، مرجع سابق ص ١٣٤ .
(٢) السيد الحسينى : التنمية والتخلف ، مرجع سابق ص ص ١٦ — ٣١ .
(٣) احمد زايد : البناء السياسى فى الريف المصري ، مرجع سابق ص ١٩٨ .
(٤) السيد الحسينى : نظرية التبعية ، مرجع سابق ص ١٩٨ .
(٥) السيد الحسينى : التنمية والتخلف ، مرجع سابق ص ١٤١ .

وتعد نظرية التبعية بما تنطوي عليه من أفكار ومقولات خاصة بأساليب الانتاج والتكوينات الاجتماعية الموجه النظري لتحليلنا السوسيولوجي والامبريقي ، حيث أن التغيرات التى شهدها المجتمع المصري فى حقبة السبعينات والتى انعكست فى ما يعرف بمرحلة الانفتاح الاقتصادي ، حيث التغيرات التى طرأت على البنية الاقتصادية والاجتماعية نتيجة للتحول من نمط انتاجى كانت تقوده رأسمالية الدولة الى نمط رأسمالى تجاري تابع ، مما انعكس بوضوح على القرية المصرية ، وأدي الى حدوث تغيرات عميقة فى هيكل وبنية المجتمع الريفى المصري فى هذه الحقبة التى استهدفت ارساء التبعية [1] كما أدي الى تحول النمط الانتاجى فى القرية المصرية والى زيادة الأهمية النسبية للزراعات الرأسمالية التى تحتاج لقدرة مالية وفن انتاجى متقدم نسبيا ويعكس ذلك زيادة الاتجاه نحو الزراعات الرأسمالية [2] بالاضافة الى هذا فان التغيرات التى طرأت على المجتمع المصري كنتاج لنهج سياسة الانفتاح الاقتصادي فى حقبة السبعينات لم تقتصر فقط على البناء الاقتصادي والسياسى ، بل الأخطر من ذلك انها قد امتدت الى البناء الاجتماعى والثقافى ، حيث ان التغيرات البنوية فى المجال الاجتماعى والثقافى والتى يقصد بها القيم والمعتقدات داخل المجتمع يكون لها طبيعة الاديان ، وليس من السهل التخلى عنها ولكن هذا هو الحال فى المجتمعات التابعة بوجه عام ، حيث اتجهت القيم نحو الفردية والاستهلاك والسلبية واللامبالاة فى حقبة السبعينات التى حفلت بمراحل الانفتاح الاقتصادي ، حيث كانت القيم الأساسية تدور حول الأرض والانتاج والابناء ، حيث كانت قيمة الأرض قيمة عليا وقيمة العمل فيها من القيم العظمى لانها مصدر الحياة ، وأن العمل فيها هو النشاط الأول والقيمة العليا ، وتزداد قيمة الفرد فى عائلته ومجتمعة القروي كلما زاد انشغاله وزادت مهارته فى العمل الزراعى الذي ساهم

---

(١) عادل حسين : الاقتصاد المصري من الاستقلال الى التبعية ، مرجع سابق ص ٤٣٣ .

(٢) مجدي حجازي : الريف المصري بين الاقتصاد المستقل والاقتصاد التابع ، ندوة التحولات فى المجتمع الريفى ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة أكتوبر : ١٩٨٣ . ص ٣٨ .

فى اكتفاء القرية الذاتى على مدي امتداد عصورها التاريخية بالاضافة الى مساهمتها فى امداد المراكز الحضرية بالمواد الغذائية[(١)].

ب - القضايا الأساسية لنظرية التبعية :

١) البناء الاجتماعى ونظرية التبعية :

يتسم البناء الاجتماعى فى مجتمعنا العالم الثالث من وجهة نظر التبعية بانه بناء متخلف محكوم بنمط معين لتقسيم العمل الدولى ، ويؤكد فرانك ذلك بأن تاريخ العالم ما هو الا تاريخ واحد ومن ثم فان عملية التنمية والتخلف وجهان لعملة واحدة ، فهما نتاج للتوسع الرأسمالى الذي تغلغل فى المجتمعات المتخلفة ، وأن النظم الاجتماعية والسياسية والثقافية بدءا من وحداتها الصغري حتى المدن المتروبولية نتاج للتطور التاريخى للنظام الرأسمالى[(٢)].

---

(١) - عاطف غيث : ، التغير الاجتماعى فى المجتمع القروي ، مرجع سابق ص٢١٣

(٢) - عادل حسين : ، الاقتصاد المصري من الاستقلال الى التبعية مرجع سابق ص٤٢٢.

- مجدي حجازي : الريف المصري بين الاقتصاد المستقل والاقتصاد التابع مرجع سابق ص٣٨.

حيث عمل هذا النظام - تطور النظام الرأسمالى - على استخلاص فائض القيمة من المجتمعات التى تقع خارج نطاقة، وترك جانب منه لقلة من الأفراد فى المجتمعات المتخلفة حيث يتم استخلاص فائض القيمة من الفلاحين وصغار الزراع والعمال، ونقله الى مركز العالم الرأسمالى ، مما يؤدي الى تنمية القلة التى تمتلك هذا الفائض، وتخلف الغالبية التى تقوم بعملية الانتاج (١) ، وتعمل هذه التوابع كاداة امتصاص للفائض الاقتصادي الى المركز المحيط به ثم الى المركز العالمى للنظام الرأسمالى ، وهذا يعنى ان التبعية هى نتيجة توسع واستغلال الدول الرأسمالية للدول النامية، وأن الفائض الاقتصادي ويعرفة - بول باران - بأنه الفرق بين مردود المجتمع الحقيقى الحالى والاستهلاك الحقيقى الحالى ،أي فى فترة واحدة فى الفهم الانثروبولوجى لتحدد الاستهلاك حسب الحاجات الاقتصادية للانسان المستهلك، ولكن بعد تطور المجتمع وفى التطور الرأسمالى لا ترتبط الحاجة بالطبيعة البشرية، ولكن حسب فعالية البناء الانتاجى ، وهذه هى النقلة التى سببها تغلغل الاستعمار فى الاقتصاد التقليدي (٢)

واهتم والشتين Wallerstein بتحليل مركز النظام العالمى وتوضيح كيف صاحب التوسع الرأسمالى زوال المجتمع الاقطاعى أو تحوله فى هذا المركز، الأمر الذي ترتب عليه ضرب من ضروب تقسيم العمل الأولى ، بحيث أصبح كل شىء فى التوابع يتحدد من خلال نظام عالمى، وعلاقة الاستقطاب التى توجد داخل هذا النظام العالمى ليست علاقة ثنائية بين المركز والتوابع، وانما علاقة ثلاثية بين المركز والتوابع وأشباه التوابع التى تمثل نقطة وسطى على متصل يربط بين التوابع والمركز، ويتحدد لكل وحدة من هذه الوحدات وظيفة معينة فى تقسيم العمل الدولى وهو ذلك التقسيم الذي نشأ منذ القرن السادس عشر، ومع تحول

---

(١) Frank, Ander Gunder: Capitalim and Underdevelopement, in Latin, America Revised, ed, me, New, York , London, 1973. p: 103.

(٢) ibid, P: 104.

النمط الاقطاعي في أوربا الغربية الى نمط رأسمالي ، واختلف والشتين عن فرانك في تمييزه بين النظام العالمي بوحداته الثلاث سالفة الذكر وبين الامبراطوريات العالمية World Empires والفرق بينهما أن النظام العالمي يقوم على تقسيم العمل الدولي (١) بينما تقوم الامبراطورية العالمية على أساس من السيطرة السياسية لجمع الخراج ، ويعني ظهور النظام العالمي التحلل التدريجي للامبراطوريات وتحولها الى توابع ودخولها كجزء من النظام العالمي الرأسمالي(٢).

وقد ناقش سمير أمين منظور التبعية أيضا من خلال علاقة المركز والمحيط في النظام الرأسمالي ، فالمحيط هنا هو الدول النامية والتي تدور لتلبي احتياجات المركز وتتغير وتتبدل حسب ما يطرأ على المركز . وداخل هذة العلاقة يتحدد التخلف في شكل اولي ، هو نشوء قطاع تصديري بواسطة الدول المستعمرة (الدول الأم) ويلعب دورا هاما في قيام السوق ، كما يظهر استهلاك بذخي يمنع التراكم ، ويستنفد الموارد النادرة ، بالاضافة الى ذلك تبرز ظاهرة التهميش (زيادة افقار الجماهير) وهذا يتم ايضا من خلال تحول صغار المنتجين الزراعيين الى معدمين ، وزيادة المناطق الحضرية ، والبطالة الجماعية في المدن ، وفي المقابل يتم ادماج أقلية محظوظة في النظام العالمي (٣) .

وقد ذهب سمير أمين أيضا الى أن نموذج النمو في الدول المتخلفة (التوابع) يختلف عنه في التنمية الرأسمالية المتقدمة (العواصم) فنمو العواصم ذاتيا يستهدف خدمتها اساسا كما انها أي (العواصم) تمتد لتسيطر على التوابع حتى الاسراع بنموها ، وينتهي سمير امين الى نتيجة مؤداها هي أن مصير البشرية لن يتغير الا بتحرر العالم الثالث من كل نماذج النمو الحالية

---

(١) أحمد زايد - مرجع سابق ص ١٧٠ .
(٢) المرجع السابق ص ١٧٠ .
(٣) سمير امين "التطور اللامتكافئ" ، مرجع سابق ص ٢١٨ .

التى تأخذ بها الدول المتخلفة ، تلك التى تعكس بشكل أو بآخر سيطرة العواصم على التوابع، عندئذ لن يتحرر العالم الثالث وحده ، بل سيكون نهاية الرأسمالية[1]

ويذهب فرانك مؤكدا على علاقة السوق والتبادل وتداول السلع ورؤوس المال التى تؤدي الى تراكم رأس المال تعد هى العامل الأساسى فى ظهور الرأسمالية ، حيث أن العامل الأساسى فى ظهور خط الانتاج الرأسمالى هو ادراك قيمة رأس المال فى المركز وفرض علاقات مع التوابع لنقل رأس المال منها حيث يتم تراكم رأس المال هذا فى المركز.[2]

ويذهب والشتين بأن العمل المأجور ليس محكا كافيا لتعريف الرأسمالية ذلك لأن النمط الرأسمالى السائد فى النظام العالمى — وهى وحدة للتحليل — لا تتجزأ — ما هو الا نمط يهدف الى الربح داخل سوق دولية وحتى اذا كانت الانماط الانتاجية السائدة خارج مركز النظام العالمى ليست رأسمالية ، الا ان خضوعها لنظام السوق بعد أن تكاملت داخل النظام العالمى يجعلها انماط رأسمالية.[3]

ويذهب سمير امين بأن الرأسمالية تنمو من خلال عاملين : اولهما التحول البروليتاري ، وتراكم رأس المال النقدي ، ويؤكد على ارتباط العاملين فى نمو الرأسمالية ، فبرغم ان تراكم رأس المال قد ظهر فى المجتمعات منذ القدم الا أنه لم يؤد الى التحول الرأسمالى الا بعد ان ارتبط بنمو قوة العمل المأجور، ومن ثم فان العاملين : التراكم النقدي والعمل المأجور لابد وان يتواجدا جنبا الى جنب ومن ثم يمكن الحديث عن نمط انتاجي رأسمالى[4]

---

(١) السيد الحسينى : التنمية والتخلف مرجع سابق ص١٣٨.

(٢) Frank, Ander, Gunder, op,cit, p.250.

(٣) احمد زايد المرجع السابق

(٤) سمير امين : التطور اللامتكافى، ص٢١٦.

انظر : السيد الحسينى التبعية والتخلف ، مرجع سابق ص١٣٩.

وتهتم نظرية التبعية بالعلاقات الداخلية في ظل الوحدات الاجتماعية المكونة للبناء الاجتماعي التابع، وأن هذه العلاقات لا يمكن فهمها الا في ضوء علاقة التبادل الخارجي وامتصاص فائض القيمة، فبدلا من تحليل وحدات منعزلة كالقرية ـ أو أي من الوحدات الأخري التي لا توجد بمعزل عن النظام العالمي وكل علاقاتها الداخلية وبناؤها الطبقي ونظامها السياسي تتحدد من خلال النظام العالمي ومن ثم ينبغي التركيز على النظام العالمي كوحدة للتحليل [1] .

٢) البناء الطبقي للمجتمع والتبعية :

اذا كان البناء الاجتماعي في المجتمع التابع لا يفهم الا في ضوء علاقته بالنسق الرأسمالي ، فان التركيب الطبقي السائد في هذا البناء يتشكل من خلال علاقة التبعية، ويظهر الاهتمام بدراسة الطبقة البرجوازية على استمرار دورها في التبعية والتخلف وأن البرجوازية العالمية تعد طبقة واحدة تمتد من نيويورك الى أشد المزارع أو القري انعزالا [٢] .

وقد أوضح فرانك في مؤلفه " البرجوازية الرثه " علاقة التحديد بين التبعية الاقتصادية والبنية الطبقية أو البرجوازية الرثة ، والسياسية الطبقية للتخلف أو التطور الرث ، لكل من الحالات الاتية : البنية الاستعمارية، البنية الزراعية، الاستغلال، الحرب الأهلية والقومية البرجوازية، والامبريالية الجديدة ، والتبعية الجديدة الحالية، كما تتحول البنية الزراعية وأشكال الانتاج الزراعي في لحظة من لحظات التاريخ في عدد من البلدان ، الى رد على احتمالات تسويق تجاري جديدة ، وعلى ذبذبات الطلب الخارجي على المنتجات الزراعية [٣] ، بالاضافة الى أن البرجوازية المتخلفة تساعد المستعمر على استغلال البلد

---

(١) Frank, Ander, Gunder, op.cit, p. 251.

(٢) ibid p. 243

(٣) انظر : فرانك : البرجوازية الرثة ، مرجع سابق ص ٢٣ـ٢٥ .

المتخلف، كما أن النمو الصناعي في البنية المتخلفة كالبرازيل كان وليد ظروف مرت بها المجتمعات الرأسمالية الأم [١].

ويذهب فرانك بأن الطبقات الأخري – غير البرجوازية ، هي الضحية لطبقة البرجوازية ، بل أن هذه الطبقات الخاضعة هي من صنع الطبقة البرجوازية ، وتمثل القطاعات العريضه للفلاحين التي تتحمل العبئ الأكبر في تقسيم العمل الدولي أو العالمي ، ولقد انتجت عملية التخلف ثلاث جماعات أخري بجانب بروليتاريا الفلاحين هي : البروليتاريا الحضرية والطبقة العاملة والعمال ذوي الياقات البيضاء [٢].

وتوجد طبقة البرجوازية التابعة في الريف في شكل برجوازية زراعية تتمثل في كبار الملاك، وفي المدينة في شكل برجوازية تجارية وصناعية وكمبرادورية ، وهي ليست برجوازية حقيقية تقوم بدور في التنمية الاقتصادية وفي الثورة الديموقراطية كما فعلت نظيرتها في الغرب، بل تقوم بتدعيم التبعية والتخلف [٣].

ويتغير البناء الطبقي داخل المجتمعات التابعة مع التغير الدينامي للنسق العالمي ، فمع تكامل هذه المجتمعات مع النظام العالمي يبدأ التركيب الطبقي فيها في التغير ، فتختفي طبقات العبيد والاقنان ، وتظهر طبقات جديده كالعمال والبرجوازية الزراعية والتجارية ، ومع نمو النسق العالمي ينمو تحكم البرجوازية العالمية في هذا النسق وسيطرتها على البرجوازية المحلية [٤] ومن ثم فقد أدي التوسع الرأسمالي الى نمو الطبقات البرجوازية في المدن والمجتمعات الريفية التي أصبحت تؤدي دورا في تقسيم العمل العالمي ، ولقد تطلب هذا أن يتغير

(١) فرانك: البرجوازية الرثة ، مرجع سابق ص٣٧.

(٢) Frank, Ander, Gunder, op, cit, p.360.

(٣) ibid, p. 361.

(٤) انظر : احمد زايد : مرجع سابق ص١٧٨.

شكل استغلال الأرض لكى يتيح انتاج السلع التجارية بدلا من الانتاج المعيشى كما تطلب أيضا أن تظهر حلقات من الطبقات البرجوازية التى تربط المركز العالمى بابعد قرية وأكثرها انعزالا ، وأن سياسات الاصلاح التى تنتهجها لا تؤدي الا الى مزيد من التخلف ومن ثم مزيد من التبعية (١) .

٣) البناء السياسى :

تتكون أجهزة الدولة والممارسة السياسية على المستويات القومية والمحلية وكذلك الجماعات التى تسيطر على أجهزة الدولة والممارسة السياسية من خلال وضع المجتمع التابع داخل النسق العالمى ، وفى ظروف التبعية لا تصبح وظيفة النسق السياسى تحقيق تنمية قومية ، وانما تدعيم علاقة التبعية القائمة ،وتتركز القوة السياسية فى المجتمع التابع فى أيدي فئة قليلة ، وذلك بسبب ارتباطها بالتحكم الاقتصادي ، حيث يميل التنظيم الاقتصادي الاجتماعى نحو التركز للقوة الاقتصادية والسياسية والهيبة الاجتماعية الى الحد الذي تبدو فيه كل هذه العناصر وكأنها تقوم على الاحتكار الذي يأتى من قبل الطبقة البرجوازية التابعة التى تشكل بدورها الصفوة السياسية أوالجماعة المسيطر على الجوانب السياسية (٢) .

وتتضمن صياغة فرانك مجموعة من العناصر أولها أن القوة السياسية لا تنفصل فى المجتمعات التابعة عن القوة الاقتصادية ، وثانيها أن القوة السياسية تتركز فى أيدي فئة قليلة وهى ذات طابع اوليجاركى وثالثهما أن الممارسة السياسية محكومة بتقسم العمل الدولى وهى تتغير وفقا لظروف النسق العالمى ومتطلبات البناء التابع وكل ذلك يسهم فى تدعيم حلقة التخلف فى هذه البلدان ، واذا كانت التبعية تمتد الى أبعد القري وأشدها تخلفا وانعزالا

---

(١) Frank, Ander, Gunder, op. cit., p: 360.

(٢) ibid , p, 368.

فان معنى هذا ان الصفوة فى المجتمعات الريفية سوف تتكون من البرجوازية الزراعية التى تحتكر الأرض وتجارة السلع الزراعية [١].

وليس من الضروري — فى نظر سمير أمين — أن تكون الفئة المسيطرة على أجهزة الدولة من البرجوازية بل أن تلك الأخيرة تحاول ان ترتبط بها ومعها بروابط اهمها الروابط الأسرية ، كما انها تشترك معها فى بعض الخصائص مثل الفساد السياسى والاقتصادي ، غير أن البرجوازية التابعة تنجح فى بعض الأحيان فى التغلغل فى أجهزة الدولة بحيث نجد أن تلك الأخيرة تسيطر عليها الشريحة العليا من البيروقراطيين فى تحالف قوي مع الاوليجاركية الزراعية فى الريف سواء تحالف مفتوح ومباشر أو من خلال طبقة وسيطة هى الطبقة الكمبرادورية ، وليم بول والشنين أهمية لتحليل البناء السياسى فى التوابع وانما اكتفى بان قارن بين ثلاث مستويات للدول فى النسق العالمى : الدولة القوية فى المركز ، والدولة الضعيفة فى التوابع ، والدول متوسطة القوة فى اشباه التوابع كذلك أشار الى تغير العلاقة بين هذه الأنماط الثلاثة بتغير المراحل التى مر بها النسق العالمى [٢].

ويذهب علوي — أن البرجوازية المتربوليتانية الموجودة فى قلب العالم عليها أن تخلق فى التوابع جهازا للدولة بحيث تستطيع الدولة من خلاله أن تفرض سيطرتها على كل الطبقات الموجودة فى المجتمع ، وبناء على هذا فان هذه التوابع طورت موقفا خاصا بها تفوقت فيه — أو تضمنت — الأجهزة السياسية والبناء الفوقى بصفة عامة على الابنية الاقتصادية التحتية ، ذلك أن البناء التحتى الذي يقوم عليه البناء الفوقى لا يقع فى المجتمع التابع ، وانما يقع فى مركز العالم الرأسمالى المتقدم ، ويترتب على هذا أن تلعب الدولة فى المجتمع التابع دورا مغايرا عن نظيرتها فى المجتمعات المتربوليتانية ويتغير هذا الدور يتغير

---

(١) احمد زايد — البناء السياسى ، مرجع سابق ص ١٨٤ .
(٢) المرجع السابق .

طابع العلاقة التى تحكم المركز بالتوابع فقد كان دور الدولة فى الفترة الاستعمارية هو اخضاع الطبقات المحلية لما تفرضه علاقة التبعية الاستعمارية ، أما بعد الاستقلال وفى ظروف تبعية ما بعد الاستعمار اصبحت الدولة بمثابة وسيط بين البرجوازية العالمية والبرجوازية المحلية القومية وملاك الأرض أو الطبقات التى تملك الأرض The, Landed Classes فالدولة ليست أداة فى يد طبقة واحدة ، وانما تمثل هيكلا مستقلا ليقوم بدور المصالحة والوساطة بين الطبقات صاحبة المصالح المختلفة سواء فى المركز أو المجتمع التابع ، وهى تعمل بالنيابة عنهم فى حفظ النظام العام الذي يحمى مصالح هذه الطبقات وهى المصالح المرتبطة بالملكية الخاصة وسيطرة النظام الرأسمالى ، وتقوم الدولة بجانب دور الوساطة بدور اقتصادي بدعوي تنمية الاقتصاد القومى ، وتتكون الدولة فى هذه الظروف من أوليجاركية — بيروقراطية ، وتعتمد على الأحزاب السياسية فى اكتساب شرعية سياسية لدي الجماهير وفى امتصاص غضبها والتعرف على مظاهر معاناتها .(١)

(١) المرجع السابق ص١٨٦ .

الفصل الثامن

علم الاجتماع والعلوم الأخرى

- أهمية دراسة علم الاجتماع .
- التاريخ وعلم الاجتماع .
- علم النفس وعلم الاجتماع .
- علم الاقتصاد وعلم الاجتماع .
- علم السياسة وعلم الاجتماع .
- الانثربولوجيا وعلم الاجتماع .
- ما النظرية السوسيولوجية .

الفصل الثامن

• علم الاجتماع والعلوم الأخرى :

أهمية دراسة علم الاجتماع :

يجب أن تميز بين علم الاجتماع والعلوم الأخرى مثل الاقتصاد والحكومة والاثنولوجيا ، فكل هذه العلوم شأنها شأن علم الاجتماع ، بدرس البشر فى إعتمادهم المتبادل على المستوى الأمبيريقى وليس على المستوى الفلسفى ، إن هذه العلوم لا تدرس فقط ظواهر ملموسة فريدة كدستور الولايات المتحدة مثلاً أو تنظيم هذه البلاد لتجارتها الخارجية فى الوقت الحاضر ، ولكنها تسعى إلى اكتشاف القوانين أو العلاقات الضرورية والثابتة بين الظواهر وفقاً لطبيعتها، إذاً ما الفرق بين هذه العلوم المحدودة وعلم الاجتماع ؟ وما دور علم الاجتماع وعمله بالنظر إلى العلوم الاجتماعية الأخرى ؟ هناك أربع أجابات أساسية عن هذا التساؤل قدمها علماء الاجتماع فى عصور مختلفة من تاريخ هذا العلم[١] .

فقد أعتقد كونت أنه ينبغى على علم الاجتماع أن يضطلع بكل المـــادة التى درستها هذه العلوم المحدودة ، وأن يستوعبها بحيث يجردها من سبب وجودها .

ثم تصور هربرت سبنسر علم الاجتماع على أنه علم فوقى لا يلاحـــظ بنفســـه الظواهـــر الاجتماعـــية ، لكنه يوحد الملاحظات والتعمـــيمات الـــتى أنتهـــت إليها العلوم الاجتماعية المجددة ، إما جـــورج زيمل وهو عالم اجتماعى ألمانى ينتمى إلى القرن التاسع عشر ، فقـــد أصر على أن موضوع دراســـة العلوم الاجتماعية المحددة يتمثـــل فى مضمون الافعـــال الانســـانية التى تستهدف

---

(١) نيقولا تيماشيف نظرية علم الاجتماع ص ١٠ .

غايـــات معيـــنة ، فعلم الاقتصاد يهتم بالأفعال التى تستهدف حل مشـــكلات ماديـــة مثل الانتاج والتوزيع والتبادل والاستهلاك ، ويعـــالج العلـــم السياســـى الأفعال التى تستهدف تحقيق السلطة السياســـية وممارستها ، لكن " زيمل " كان يعتقد أن أياً من هذه العلـــوم لا يـــدرس صورة الأفعال الانسانية فى المجتمع ، وهى الصـــورة المشتركة بين كل نماذج الجهود والمحاولات كتكوين الجماعـــات الانسانية وانحلالها والمنافسة والصراع وقد خصص "زيمل " هذا الميدان " الاجتماع الصورى الذى لم يشغله بعد أى علم اجتماعى محدد لعلم جديد هوعلم الاجتماع(١) .

ويعتـــبر علـــم الاجتماع من أكثر العلوم أتصالا وتداخلا مع غـــيره مـــن العلـــوم الاجتمـــاعية الأخرى ، ومن ثم فقد جعله "أوجســـت كونت " متربع فوق قمة العلوم من حيث التعقيد وذلك فى ترتيبه المشهور للعلوم على النحو التالى : الرياضة ثم الفلك فالطبيعة فالكيمياء فالبيولوجيا وأخيراً علم الاجتماع .

ويشـــبه علـــم الاجتماع فى أهميته بالنسبة للعلوم الاجتماعية أهمية الرياضيات بالنسبة للعلوم الطبيعية وحيث أنه من المستحيل دراســـة علم الطبيعة دون إلمام ببعض المعرفة عن الرياضيات كذلـــك لا يمكن دراسة علم الاقتصاد أو السياسة مع تجاهل علم الاجتماع(٢) .

وإذا كانـــت العلـــوم الاجتماعـــية تشترك فى دراسة سلوك الانسان فى المجتمع ، فمن الطبيعى أن يكون هناك بعض التشابه أو الـــتداخل بيـــن مجـــال الدراســـة فى علم الاجتماع ومجالات الدراســـة فى العلوم الاجتماعية الأخرى ، وفى هذا الصدد يذكر العـــالم الفرنسى " موريس دوفرجر" أن الحدود التى تفصل بين

---

(١) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ص ١١ .
(٢) طلعت إبراهيم ، مبادىء علم الاجتماع موسسة الأنوار ص ٤٠ .

العلـــوم الاجتماعية المختلفة هى حدود غير واضحة تماما ، بل أنهـــا حدود زائفة وليس لها قيمة فى حد ذاتها ، وأن اتجاه العلوم الاجتماعـــية نحـــو توسيع نطاق دراستها ينطوى على نوع من المخاطـــرة ، إذا أن ذلـــك يـــؤدى إلى زيادة التداخـــل بين هذه العلوم[١].

إن عالم الاجتماع الأمريكى المعاصر " سوروكين " قد وضع حدوداً للتميز بين علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى ، وذلك عندما قام بتعريف علم الاجتماع على أنه " دراسة الخصائص العامة المشتركة بين جميع أنواع الظواهر الاجتماعية والعلاقات بين هذه الأنواع " ، وكذلك العلاقة بين الظواهـــر الاجتماعية وغير الاجتماعية .

ويتضح مما ذهب إليه سوروكين أن علم الاجتماع علم واسع مركـــب يخـــتص بدراســـة الخصائص المشتركة بين الظواهر الاجتماعـــية بوجـــه عـــام والعلاقـــة المتبادلة بين هذه الظواهر الاجتماعية وغير الاجتماعية[٢] .

وقـــد وضـــع ســـوروكين وهو عالم اجتماع معاصر حدوداً للتميـــيز بين علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى لاقـــت قـــبولا حـــتى من أولئك الذين يعارضون مضمون آرائه السوســـيولوجية ، وقد أستقى " سوروكين " تعريفه لعلم الاجتماع مـــن العالم " ليوبترازيتسكى " الذى يرى أنه إذا كانت هناك من خلال طائفة من الظواهر طوائف فرعية " ن " فإنه يجب أن يكون هناك " ن + ١ " من فروع المعرفة لدراستها ، وهناك بالاضافة إلى ذلك علم آخر لدراسة ما هو عام ومشترك بين الجميع ، ودراسة الارتباط بين هذه الطوائف الفرعية ، ويرى " سوروكين "

(١) المرجع السابق ص ٤١ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٣ .

أن لكل طائفة من الظواهر الاجتماعية العديدة إقتصادية وسياسية ودينية وغيرها علم يدرسها ويتطابق معها ، بالاضافة إلى هذه العلوم تظهر الحاجة وتلح الضرورة إلى علم " علم الاجتماع " يهتم بالخصائص العامة والمشتركة والشائعة بين جميع أنماط الظواهر الاجتماعية والعلاقة بينها ، لأن علماً إجتماعياً خاصاً لا يستطيع بمفرده أن يؤدى هذين العملين معاً إداءً مرضياً ، فالجدل يثور حول ما إذا كان الجانب الاقتصادى من الوجود الانسانى هو الذى يجدد الأفكار الأخلاقية والدينية كما يؤكد " كارل ماركس " ، أم أن الأفكار ذات المنبع الدينى تعطى دفعات معينة للنمو الاقتصادى كما يذهب " ماكس فيبر " ، أم أن العلاقة المتبادلة أكثر تعقيداً وتركيباً مما يذهب إليه كل منهما ، أن عالم الاقتصاد أو دارس تاريخ الأفكار الأخلاقية والدينية لا يستطيع حل هذه المشكلة العملية ، لأن كل واحد ينظر إليها ويتصورها من جانب واحد ، وإذن فحل هذه المشكلة يدخل فى نطاق علم ينهض فوق تقسيم الظواهر الاجتماعية إلى طوائف فرعية وهذا العلم هو علم الاجتماع[١] .

وتقدم وجهة نظر سوروكين على المستوى النظرى أفضل إجابة ممكنة عن السؤال الذى مؤداة ما علم الاجتماع ؟ ولكن هذا العلم يهتم من الناحية التطبيقية بمجالات أخرى من الدراسة الاجتماعية لم تكن من قبل موضوع لأى علم من العلوم الاجتماعية الأقدم كدراسة الأسرة على سبيل المثال ، كما أنه يطبق تعميماته على مجالات الدراسة الاجتماعية التى كرست علوم إجتماعية معينة جهودها لوصفها وتصنيفها ومقارنتها ، ولذلك نجده يضم فروعاً مثل علم الاجتماع السياسى وعلم الاجتماع القانونى وعلم الاجتماع الدينى وعلم اجتماع الفن وما شابه ذلك[٢] .

---

(١) نيقولا تيماشيف – المرجع السابق ص ١١ .
(٢) المرجع السابق ص ١٢٧ .

ومــن ثم فإن علم الاجتماع يتكون من حصيلة جوهرية من المعــرفة يــتطابق مع التعريف الذى قدمه سوروكين ومن إطار يــتكون من دراسات متفرقة لمجالات إجتماعية متنوعة لم تضع العلوم الاجتماعية المحددة يدها عليها ، ويطابق هذا الموقف إلى حــد ما أولئك الذين يفضلون الانسجام والتناغم الكامل فى البناء الفخــيم للعلــم ، والمشكلة لحسن الحظ ليست قائمة بالنسبة لهذا المؤلــف لأنه يهتم بالنظرية التى تتصل أساسا بلب علم الاجتماع ومحصلته[١] .

ويســتند سوروكن فى تصنيفه للمدارس الاجتماعية لأساس نقدى واضح للاتجاهات التى حاولت تفسير الظواهر الاجتماعية من جانب واحد وتغليب أياً من العوامل سواء كان نفسياً أو حيوياً أو اقتصــادياً أم تكنولوجــيا أم ديموجرافيا أم إجتماعياً ، وبذلك أدرج عــالم الاجدتمــاع الفرنســى أمــيل دور كايم ضمن هذه الاتجاهــات لتفسيره للحقائق الاجتماعية بحقائق اجتماعية أخرى مستبعداً أى من الظواهر أو الحقائق الأخرى من تفسير الظاهرة الاجتماعــية والــتى يعتــبرها " ســروكن " ضرورة فى تفسير الظاهرة الاجتماعية ، وذلك ما أشار إليه " جاستون بوتول " وأكد علــيه وهــو بصدد تقديم نماذج من المدارس الاجتماعية ، وقد اســتفاد بتصنيف " سوروكن " وفهمه لتفسير الظاهرة الاجتماعية بعض علماء الاجتماع المعاصرين أمثال :"ولترولس" وهو بصدد تقديم نسقه النظرى لتفسير الظاهرة الاجتماعية والذى أقامه على أســاس من التكامل بين المنظرات المختلفة ، والتى حصرها فى أحــد عشــر مــنظوماً كما أن " تيماشيف" أستفاد بدوره باتجاه "ســوروكن " فى التصنيف وتأكيده على الخصائص المشــتركة لكل مدرسة وهو بصــدد تحــديد الاتجاهات الأســاسية للنظرية

---

(١) السيد على شتا – نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ١٧٢ .

السيسولوجية بتحديد الالتقاء بين النظريات الاجتماعية على أساس الخاصية المشتركة التى تميز كل اتجاه[١] .

وإذا كان بيتريم سروكن قد أقام تصنيفه للمدارس الاجتماعية على أساس الخاصية المشتركة لكل مدرسة وأصولها الفكرية فى التراث الفكرى والنظرى لعلم الاجتماع فثمة اتجاهات أخرى فى التراث الغربى تناولت المدارس الاجتماعية بالتصنيف على أساس الخاصية المشتركة ولكن على المستوى الاقليمى وذلك لربط المدارس بالسياق الثقافي والاجتماعى وإبراز ما لهذا السياق من تأثير على الاتجاه المدرسى فى تفسير الظاهرة الاجتماعية[٢] .

إن أى من الظواهر الاجتماعية المختلفة لا توجد مستقلة بنفسها أو فى حالة عزلة عن بقية نواحى الحياة الاجتماعية، إذاً أن الظواهر الاجتماعية تعتمد على بعضها وتؤثر فى بعضها وتتأثر ببعضها، ومن ثم أصبح من غير الممكن أن نميز بين علم الاجتماع والعلوم الأخرى من حيث الموضوع ويصبح ضرراً أن يكون التمييز فى هذه الحالة من ناحية وجهة النظر أو زاوية الدراسة فحسب ، حيث نجد أن وجهة نظر علم الاجتماع عامة بمعنى أنه يدرس الظواهر الاجتماعية ككل يعتمد على بعضه ويؤثر فى بعضه ويتأثر ببعضه ، وهو يخالف العلوم الاجتماعية الأخرى التى تختلف وجهة نظرها من هذه الناحية ، فى أنها خاصة أو متحيزة لناحية من النواحى ، قد تكون اقتصادية أو سياسية أو دينية مثلاً متجاهلة بذلك اعتماد الظواهر الاجتماعية على بعضها وأن الحياة الاجتماعية عموما كل لا يتجزأ[٣] .

(١) السيد على شتا – نظرية علم الاجتماع المكتبة المصرية – الإسكندرية ، ص ١٧٢ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) طلعت إبراهيم - مبادىء علم الاجتماع مرجع سابق ص ٤٣ .

ويستدل مما سبق على أن عالم الاجتماع فى دراسته للظواهر الاجتماعية إنما يهتم بالنواحى الفريدة لهذه الظاهرة ، وذلك نظراً لأن النواحى الشائعة هى التى لابد أن يكون لها صلة وثيقة بتردد الظاهرة واتجاهها وانتشارها ، وعلى هذا الأساس فإن علم الاجتماع لا يدرس ظاهرة بعينها فى زمان ومكان معينين إلا كوسيلة لدراسة الظاهرة دراسة عامة بهدف التوصل إلى القوانين أو القواعد أو الاحتمالات التى تخضع لها الظواهر الاجتماعية فى تطورها[١] .

---

(١) المرجع السابق ص ٤٣ .

التاريخ وعلم الاجتماع

إن لكل علم موضوعه المحدد ومنهجه الخاص فى البحث ، ولكن يبدوا واضحا أنه بالرغم من محاولة كل هذه العلوم تفسير قدر كبير من السلوك الانسانى ، فإن كل منها يدرس جانبا معينا من هذا السلوك ، وبعبارة أخرى يمكن أن ندرس جانبا من السلوك الانسانى ونعزله عن الموقف الكلى(١) .

وهكذا فيمكن أن ندرس فى دروس التاريخ تتبع مجرى الأحداث فى الماضى كما حددها القادة أو القوى الانسانية والمادية الذين بدونهم لن تحدث حركة التاريخ(١) .

ويهتم التاريخ برصد حوادث الماضى المتتابعة والتى وقعت بالفعل وهو بذلك يسعى لترتيب أنماط السلوك باختيار البيانات والمعلومات الحيوية والتى يكون لها دالة فى تقدير المؤرخ ، ولا يستهدف المؤرخون بذلك التنقيب عن أسباب تلك الحوادث وقد يتخصص المؤرخون حسب المناطق الجغرافية وحسب الفترات الزمنية أو حسب المدخل لاختيار الوقائع وذلك مثل التاريخ السياسى أو التاريخ الاقتصادى أو تاريخ الأفكار أو الفنون ، والمؤرخون بذلك يستفيد من بيانات العلوم الاجتماعية ونظرياتها ممـا يحقق لهم فهما أكثر لمشاكلهم كما أن العلوم الاجتماعية بدورها تستفيد من البيانات التاريخية ...(٣) .

وعلم الاجتماع يستفيد من البيانات التاريخية فى كشفه عن العلاقات القائمة بين الأحداث التى وقعت فى الماضى والتى رصدها عالم التاريخ فى فترة زمنية معينة ، وإذا كان التاريخ يسعى إلى تجريد الوقائع التاريخية بعد تصنيفها وتحديد

---

(١) محمد سعيد فرح ، تاريخ الفكر الاجتماعى ، مرجع سابق ص ٣ .

(٢) محمد سعيد فرح ، المرجع السابق ص ٣ .

(٣) فادية عمر الجولانى – مبادىء علم الاجتماع ص ١٢٢ .

الخصـــائص المشتركة فيما بينها وتتابعها والعلاقات القائمة فـــيما بينها ، وذلك بغية الوصول إلى تعميمات حول تلك الوقائع والأحـــداث التى رصدها المؤرخ ، وعلم الاجتماع فى حاجة إلى الـــرجوع إلى الماضى لمعرفة اصل الظواهر والنظم الاجتماعية وتطورها البنائى والوظيفى .

كمـــا أن التاريخ يحتاج إلى علم الاجتماع لكى يرسى حقائقه علـــى اسس علمية سليمة والمؤرخ بذلك يستفيد من نظريات علم الاجـــتماع لتصحيح الحقائق فى ضوء القوانين التى أكتشفها علم الاجـــتماع بالنســـبة للظواهر العمرانية كما أن المؤرخ فى حاجة إلى إخضاع بياناته التاريخية للنقد التحليلى[١] .

ورغـــم ذلـــك فإن مفارقة قائمة بين التاريخ وعلم الاجتماع والـــتى تـــرجع إلـــى أن التاريخ بدرس ماضى الانسان على أنه يـــيأتى مـــن الأحداث والعمليات والمواقف الفريدة والتى يمكن تلمســـها ، وبذلـــك نجـــد أن التاريخ يبحث الأحداث الفريدة غير المـــتكررة فى حين أن علم الاجتماع يهتم بالأنماط المتكررة فى سياق أحداث التاريخ وذلك بغية الكشف عن النمط المشترك وراء التقلبات وتحديد الأنماط المستمرة .

ومـن ثـم يمكـن تحديـد فـرق جوهـرى بيـن الـتاريخ والعلـوم الاجتماعية يتمثل فى أن العلوم الاجتماعية الأخرى والتى ينتمى إليها علم الاجتماع تقوم على مسلمة الانتظام كمقدمة منطقية لأية دراسة تتجاوز حدود الوصف البسيط الذى يقوم به التاريخ والتى تسعى لتحقيق الوصـف العلمـى القـائم علـى التفسير المستند لهذه المقدمـة المنطقـية ، وذلـك يعـنى فـى حـد ذاتـه أن فهـم الأحـداث التاريخية الماضية يعتمد على الاجتماع .

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٣ .

ونظـرا لأن الـتاريخ يشـير إلـى التغير فى حين أن علم الاجـتماع يهـتم بما هو دائم ومتكرر ، فإن رجل التاريخ يتناقل مجموعات متنوعة من الأحداث والمواقف التى يتفاعل من خلالها البشر ... [١] .

فـى حيـن أن عـالم الاجتماع يسعى لتحليل تلك الأحداث والمواقـف إلى عناصرها وذلك بغية الوصول إلى القوانين التى تحكـم عملهـا ، والتى تحدد العلاقات الثابتة بين تلك العناصر ، وبذلـك يتضـح الفـرق بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى المحدودة والتى تدرس الناس فى اعتمادهم المتبادل على المستوى الأمبيريقى[٢] .

ونظـرا للأهمـية الـبالغة للبـيانات التاريخية بالنسبة لعلم الاجـتماع حيـث تمكـن علم الاجتماع من الوقوف على أصل الظواهـر والتنظيم والنظم الاجتماعية وتطورها والوظائف التى كانـت تقـوم بهـا تلك النظم وطابعها البنائى فى الماضى هذا بالاضافة لكون المدخل التاريخى قد أصبح من المداخل المنهجية الأساسـية لعلم الاجتماع بعد أن تحقق لعلماء الاجتماع أهمية هذا المدخل بالنسبة لعلم الاجتماع ، نظرا لهذا كله فقد تدعمت الصلة بين التاريخ وعلم الاجتماع حيث أنشىء فرع جديد من فروع علم الاجتماع التاريخى[٣] .

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٣ .

(٢) فادية الجولانى – مرجع سابق ص ١٢٣ .

(٣) فادية عمر الجولانى ، مبادىء علم الاجتماع ص ١٢٤ .

علم النفس وعلم الاجتماع

يعـد علـم الـنفس أحد العلوم الاجتماعية وثيقة الصلة بعلم الاجـتماع ويشـترك كل من علم النفس وعلم الاجتماع فى أنهما يعدان مجالات عامة أو دراسات واسعة للسلوك الانسانى ومن ثم يوجـد كثـير من التداخل بين العلمين كما يوجد بعض التداخل بينهما وبين غيرهما من العلوم الاجتماعية الأخرى .

ويهتم علم النفس بدراسة الفرد ونجد أن مدخله فى الدراسة ومفاهـيمه عادة تتعامل مع الناس على المستوى الفردى إذ يقوم هذا العلم بدراسة العمليات العقلية البشرية مثل الأدراك ، الذاكرة، والذكـاء ، والعواطف ، والتعليم ، والاتجاه والدافعية وعندما يتم شرح السلوك بمثل هذه المصطلحات يقال أنه قد تم فهم العوامل النفسية لهذا السلوك(١) .

وعلـى ذلك يمكن القول بأن كلاً من علم النفس والاجتماع يهـتم بدراسـة السـلوك الانسانى إلاّ أن عالم النفس يركز فى دراسـته على سلوك الفرد أما عالم الاجتماع فإنه يدرس السلوك الاجـتماعى ، وهو ليس مجرد سلوك عدد من الأفراد ، إذا إنه ناتج عن عيشه الانسان فى البيئة الاجتماعية وتفاعله مع عدد من الجماعـات الاجتماعـية الـتى ينتمى إليها وخضوعه للمعايير الاجتماعية .

ويظهـر الـتداخل الواضح بين علمى النفس والاجتماع فى دراسة كل واحد منهما لموضوع الشخصية وهى عبارة عن هذا "النسق المنظم للسلوك والاتجاهات والمعتقدات والقيم وغيرها من السـمات أو الخصائص التى تميز الفريد " فالشخصية عبارة عن "سـمات وخصـائص الـناس التى تنظم مشاعرهم حول أنفسهم واتجاهاتهم نحو النواقف المختلفة وميولهم نحو العمل " .

(١) طلعت إبراهيم ، مرجع سابق ص ١٢٤ .

ويمكـــن تعـــريف علــــم النفس بأنه علم دراسة العقل ، أو العمليات العقلية ، فدراسات علم النفس تتناول قدرات العقل على إدراك الأحاســـيس ، ومـــنحها معانى معينة ، ثم الاستجابة لهذه الأحاسيس[١] .

بعـــبارة أخرى يعالج علم النفس العمليات العقلية - كما سبق الاشـــارة - كـــالادراك والـــتعرف والتعلم ، ويولى علماء النفس المحدثـــون اهتماما خاصا بدراسة المشاعر والعواطف والدوافع والحوافز والدور الذى تلعبه فى تحديد نمط الشخصية[٢] .

ويعد مفهوم الشخصية مفهوما أساسيا بالنسبة لعلم النفس كما أنهـــا تعتبر أحد الموضوعات الأساسية فى هذا العلم ، وفى نفس الوقت تعتبر الشخصية أحد الأبعاد الهامة للحقيقة الاجتماعية التى يدرسها علم الاجتماع حيث أن البعد النفسى لا يمكن تجاهله أثناء درســـتنا للظواهـــر الاجتماعـــية ، إلا أن علماء النفس عادة ما يهـــتمون بدراســـة السلوك الفعلى والتركيز على بناء وعمليات الشخصـــية فـــى حـــد ذاتها ، أما علماء الاجتماع فأنهم عادة ما يهـــتمون بدراســـة أثر أنماط معينة من العلاقات الاجتماعية فى ظهور سمات أو خصائص شخصية محددة[٣] .

ولا شـــك أن هـــناك تدخـــل واضح بين كل من علم النفس والاجـــتماع وخاصة بعد أن تبين خطأ جهة نظر العالم الفرنسى أمـــيل دوركـــايم الذى كان يرى أن الجماعة وحدها هى مصدر الحقـــيقة الاجتماعية وإنه لايجب الفصل أو التميز بين الظواهر الاجتماعية وغير من الظواهر النفسية إذا أن الظواهر الاجتماعية متميزة من حيث النـــوع عن خصائص الأفراد أعضاء المجتمع

---

(١) محمد الجوهرى ، مرجع سابق ص ٨٢ .
(٢) محمد الجوهرى ، مرجع سابق ص ٨٣ .
(٣) طلعت إبراهيم - منرجع سابق ص ٤٦ .

وخارجـــه عـــنهم ومـــن الخطأ أن يفسر ظاهرة إجتماعية معينة باعتـــبارها نتاجاً للعمليات النفسية الفردية ، فالظواهر الاجتماعية تتميز بالاستقلال ولابد من فصلها عن الظواهر النفسية بالاضافة إلى أن البحث عن تفسير ملائم لهذه الظواهر الاجتماعية يجب أن يتم فى نطاق المجتمع نفسه(١) .

وقـــد أتجه بعض علماء الاجتماع الكلاسيكيين اتجاهاً يخالف ذلك الاتجاه الذى ذهب إليه " دوركايم " وذلك كما يبدو من آراء بعـــض العلمـــاء مـــثل " ولـــيم تومـــاس " " ومـــاكس فيـــبر" و"فلفريدوباريـــتو " فقـــد أكد هؤلاء أهمية العوامل النفسية وتأكيد الـــتكامل بيـــن كل من علم النفس والاجتماع ، بل أن " تولكوت بارســـونز " وهو أحد علماء الاجتماع المعاصرين من أصحاب الاتجاه الوظيفى فى علم الاجتماع فى معالجته للنسق الاجتماعى، انما يجعل علم الاجتماع يقترب كثيراً من علم النفس (٢) .

والحقـــيقة أن باريـــتو " قـــد قـــام بتوضيح العلاقة بين علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية وخاصة علم النفس إذا قام بتوضيح أهمية دراسة وواقع الأفراد حتى يتسنى لنا دراسة الحياة الاجتماعـــية وفهـــم البناء الاجتماعى للمجتمع ، وأدراك عوامل التغـــير الاجتماعى مما كان له أثر كبير فى ظهور علم الاجتماع النفسى .

---

(١) نفس المرجع .

(٢) المرجع السابق ص ٤٥ .

كان علم الاجتماع النفسى هو ميدان من ميادين الدراسة فى علـم الاجتماع يهتم بدراسة البعد النفسى للحقيقة الاجتماعية فإن علـم الـنفس الاجتماعى يعد أحد ميادين علم النفس، ويهتم هذا المـيدان بدراسـة كيفية أنفعال الفرد إزاء أحوال المجتمع الذى يعـيش فـيه ، ويهتم علم النفس الاجتماعى بدراسة كيفية تأثير الشخصية والسلوك الفردى بالبيئة الاجتماعية إذا أن البحوث التى يقوم بها هذا العلم عادة ما تلقى الضوء حول الطريقة التى تؤثر بها البيئة الاجتماعية فى سلوك الانسان .

ويتضـح مما سبق إن هناك تداخل كبير بين كل من علمى النفس والاجتماع ، ويركز علم النفس اهتمامه حول دراسة الفرد والسـلوك الفردى كما يركز علم الاجتماع نحو المجتمع ودراسة العلاقـات الاجتماعـية ، أمـا علم النفس الاجتماعى فإنه يوجه اهـتمامه نحـو دراسـة الـتفاعل بين الفرد والمجتمع ، أو بين الشخصـية الفردية والبناء الاجتماعى ، مما يؤكد وجود التقارب فى وجهات النظر بين علم النفس والاجتماع [١] .

أن علـم الاجتماع يزود من معارفنا ، ويقدم لنا رؤية جديدة عـند حقـائق اجتماعية موجودة ، إن الحقائق الاجتماعية تخلق نفسـها ، وهـى معروفة لدينا ، لأنها تعيش بيننا ، وينظر عالم الاجتماع إلى هذه الحقائق بطريقة توضح أهميتها بالنسبة لحقائق أخرى فى العالم الاجتماعى[٢] .

---

(١) المرجع السابق ص ٤٧ .

(٢) محمد سعيد فرح – تاريخ الفكر الاجتماعى ، مرجع سابق ص ٩ .

وينبغى النظر إلى كل حقيقة اجتماعية من منظور أوسع لتستطيع أن نحدد مكانها فى البناء الاجتماعى ككل تحديداً أكثر أهمية وعندما تقول ذلك ، فإن ذلك يعنى أن الحقيقة الاجتماعية لها معنى ، ونحن نغير معنى الحقيقة عندما نربطها بالمعانى الأخرى ، والتى نستدل عليها من الحقائق الأخرى المترابطة[١] .

والحقيقة أن هناك تكامل وتفاعل مستمر بين ثلاثة عوامل هى الفرد ، والمجتمع ، الثقافة ، ولا يمكن دراسة أى عامل من هذه العوامل الثلاثة بمعزل عن غيره من العوامل الأخرى ، وهو ما يؤكده عالم الاجتماع المعاصر " سوروكين " الذى أعتبر أن الشخصية والفرد من جهة والمجتمع والثقافة من جهة أخرى ، عناصر مستقلة ومتفاعلة داخل أطار نسق واحد .

---

(١) محمد سعيد فرح ، تاريخ الفكر الاجتماعى ، مرجع سابق ص ٩ .

علم الاقتصاد وعلم الاجتماع

أن علم الاقتصاد دون العلوم الأخرى كلها ، يعد العلم الذى يمكــن أن يدعى بأنه علم مغلق ، إذ أن نماذجه النظرية الجديدة وأساليبه الرياضية المتقدمة يرتبطان معاً ليجعلان منه علماً شبيهاً بالعلوم الفيزيائية ، وإذا ما نظرنا إلى الاقتصاد من هذه الرؤية ، فإنــنا نجده علماً ضيقاً لا يرتبط بالعناصر التى تكون بناء الحياة الاجتماعية[١] .

بــيد أنـــه مـــن الثابت عدم وجود نظرية اقتصادية أو حتى معـــاملات اقتصـــادية يمكن أن تدرس منعزلة عن أية عملية من عمليات التفاعل الاجتماعى[٢] .

يوصف هذا العلم فى بعض الأحيان بالكآبة ويبدو أن بعض علمـــاء الاجـــتماع يبدون أرتياحهم لهذا الوصف حينما يصفون علمهم بالوضوح ، وبغض النظر عن طبيعية هذه الاتهامات فإن هـــناك أســـس عديـــدة يمكن فى ضوئها تحديد الفرق بين علمى الاقتصاد والاجتماع .

يهـــتم علم الاقتصاد بوجه عام بدراسة إنتاج وتوزيع السلع والخدمات ، وقد تطور علم الاقتصاد فى ظل المجتمع الغربى . والمدرسة الكلاسيكية فى بريطانيا بخاصة ، لذلك نجـــده يتناول

(١) المرجع السابق ص ٤ .

(٢) محمد سعيد فرح ، تاريخ الفكر الاجتماعى ، مرجع سابق ص ٤ .

العلاقـــات المتبادلة بين متغيرات اقتصادية خاصة كالعلاقات بين الأسعار والعرض وتدفق النقود ... الخ ... ، وفى المراحل الأولى مـــن تطور علم الاقتصاد الغربى لا نجد اهتماما كبيراً بالسلوك الاقتصادى الواقعى للفرد أو دافعيته ، بل أن أقصى ما وصل إليه علـــم الاقتصاد فى هذه المراحل الأولى هو دراسة المشروعات الانتاجـــية كالتنظـــيمات الصـــناعية ، ولقد أدى ذلك إلى ظهور ثغـــرات أساســـية فى معرفتنا بالحياة الاقتصادية فضلاً عن عدم قدرة علم الاقتصاد على دراســـة الســـياق الواقعى للأحـــــداث الاقتصـــادية ، ولقـــد أبدى علماء الاقتصاد فى السنوات الأخيرة اهـــتماما ملحوظـــا بموضـــوع الدافعية والسياق النظامى للفعل الاقتصادى ، ومع ذلك نجد مشكلات عديدة بالغة الأهمية لم تحظ بالاهـــتمام مـــن جانب علماء الاقتصاد من ذلك مثلاً تأثير القيم والتفضـــيلات علـــى طلب القوة العاملة ، والتأثير الذى تمارسه الهيـــبة أو العـــرف علـــى أسعار السلع ، والأحوال الاجتماعية للمنظمين والمديرين فضلاً عن الدوافع التى تحركهم ومدى أسهام التعلـــيم فى رفع معدل الانتاجية ، والواقع أن هذه المشكلات لم تـــنـــل نصـــيبها الضـــرورى مـــن الاهتمام من جانب علمـــاء الاقتصاد[١].

وإذا كان تضييق مجال علم الاقتصاد قد مثّل نقطة من نقاط الضعف فى تاريخ هذا العلم ، إلا أنه قد أفـــاده فى نفس الوقت ،

---

(١) محمد الجوهرى وآخرون مقدمة فى علم الاجتماع – دار المعارف ص ٧٧ .

ذلـــك أن علـــم الاقتصاد قد استطاع بفضل ذلك أن يصبح علما محدد النطاق قادرا على معالجة ظواهره بطريقة متسقة[١] .

وكثـــيرا مـــا نجد علماء الاجتماع يحسدون علماء الاقتصاد على دقة مصطلحاتهم وكفاءة المقاييس التى يستخدمونها وسهولة الاتصال فيما بينهم ، واتفاقهم على مبادىء أساسية معينة ، فضلا عـــن قدرتهم على تحويل دراساتهم النظرية إلى مقترحات عملية نجـــد لهـــا صدى عميقا فى رسم السياسة العامة ، ومع ذلك فلا تـــزال قـــدرة علمـــاء الاقتصاد على التنبؤ بالأحداث الاقتصادية ضئيلة إلى حد ما بسبب عدم اهتمامهم بعوامل كالواقعية الفردية والمقاومـــة النظامية ، تلك العوامل التى يمنحها علماء الاجتماع أهمية كبيرة .

وبرغم كل ما سبق فإن ثمة تشابها واضحا فى طابع التفكير العلمى السائد فى علمى الاقتصاد والاجتماع والملاحظ أن علماء الاجـــتماع المحدثيـــن يجدون أن طابع التفكير فى علم الاقتصاد أقـــرب إليهم من ذلك الذى يسود التاريخ أو النظرية السياسية ، ذلـــك أن علماء الاقتصاد شأنهم فى ذلك شأن علماء الاجتماع ، يفكرون فى ضوء الانساق الفرعية حيث يؤكدون فكرة العلاقات بين الأجزاء وعلى الأخص أنماط الاعتماد والسيطرة والتبادل... الخ

---

(١) المرجع السابق ص ٧٧ .

وفضــلا عــن ذلك فالعلمان يهتمان اهتماما خاصا بالقياس بالعلاقــات بيــن المتغيرات المختلفة أى أنهما يستعينان بالنماذج الرياضية فى تحليل البيانات[١] .

أن الــتفاعل بين العوامل الاجتماعية والاقتصادية ضرورى لفهم تطور التمنية الاقتصادية ، وقد أثبت كارل ماركس أن البناء الفوقى للمجتمع يعكس الأساس الاقتصادى للمجتمع ، وأن التغير فى النسق الاقتصادى يؤدى إلى التغير فى البناء الاجتماعى[٢] .

(١) محمد الجوهرى وآخرون – مقدمة فى علم الاجتماع مرجع سابق ص ٧٨ .

(٢) محمد سعيد فرح – المرجع السابق ص ٩ .

علم السياسة وعلم الاجتماع

يهـتم هذا العلم بدراسة الحياة السياسية والحكومية وتوزيع القـوة فى المجتمع ، كما إنه يسعى إلى بلوغ النظام الاجتماعى وتحقـيق التغـير عن طريق التخطيط والاصلاح ، والحركات الاجتماعية الأخرى وبذلك يرتبط هذا العلم بالسلوك السياسى .

وفى الوقت الذى يهتم علم السياسة بدراسة السلطة وتوزيعها بيـن التنظـيمات الرسـمية المختلفة ، فإن علم الاجتماع يتناول مخـتلف جوانـب المجتمع ، هذا بالاضافة إلى أن علم السياسة يركـز علـى العملـيات الداخلية فى الحكومة فى حين أن علم الاجتماع يهتم بالعمليات المتبادلة بين النظم المختلفة فى المجتمع بما فى ذلك الحكومة[١] .

وقـد أثمـرت محاولات التنقيب عما بين علم السياسة وعلم الاجتماع من علاقة عن وجود مجال مشترك فيما بينهما ، بحيث يشكل هذا المجال نطاق علم الاجتماع السياسى وهو يمثل أحدى فـروع علـم الاجتماع حيث يهتم بدراسة الدولة كوحدة سياسية واجتماعـية مميزة عن القبيلة والقرية والمدينة مع اهتمام خاص بمـا بيـن الـدول والعـالم الخارجى من علاقات متنوعة على المستوى الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والقانونى[٢] .

---

(١) فادية عمر الجولانى - مبادىء علم الاجتماع ص ١٢٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٥ .

وإذا كان كل رافد من روافد المعرفة الانسانية والعلوم الاجتماعية يختص بجوانب معينة من الحياة الاجتماعية والمجتمع ويوليها كل اهتمامه ، فإن علم الاجتماع يهتم بالدراسة النسقية التى تتناول العلاقات البشرية ، حيث يركز علماء الاجتماع على الناس فى الجماعات وما بينهم من علاقات وكذلك ما بين تلك الجماعات من علاقات وصور التفاعل المختلفة ، وذلك بحثاً عن ظهور تلك العلاقات ومدى تغيرها وما يترتب عليها من نتائج بالنسبة للناس والأفراد المنتمين للجماعات(١) .

وخلال العقود الثلاثة الماضية نلحظ لدى علماء الاجتماع اهتماماً شديداً بالسياسة ، مما أظهر قدراً من الاختلافات بينهم وبين علماء السياسة ، ولقد تأكد ذلك بوضوح من خلال الدراسات العديدة التى أجراها علماء الاجتماع على السلوك السياسى(٢) .

وبذلك نجد أن الصلة بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى وثيقة فما تقدمه تلك العلوم من معطيات تفيد كثيراً عالم الاجتماع فى التعرف على الخصائص المختلفة للظواهر الاجتماعية والتى تتناول العلوم الاجتماعية من جوانبها العديدة . وبذلك يتمكن عالم الاجتماع من تحديد الخصائص العامة للظاهرة

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٦ .

(٢) محمد الجوهرى وآخرون ، مقدمة فى علم الاجتماع – مرجع سابق ص٨٠.

ويـتم ذلـك فى ضوء القوانين والتعميمات التى يصل إليها علم الاجتماع من خلال تحليلاته لتلك الخصائص أيضا فى ضوء القوانيـن والتعميمات التى وصل إليها هذا المستوى من التفاعل والتساند الوظيفى[١] .

وإذا كـان علم الاجتماع يهتم بدراسة كل جوانب المجتمع ، فـإن علـم السياسة يكرس اهتمامه لدراسة القوة كما تتجسد فى دراسـة التنظـيمات الرسـمية ، وإذا كـان علم الاجتماع يولى اهـتماما كبيراً بالعلاقات المتبادلة بين مجموعة النظم (بما فى ذلـك الحكومـة) فإن علم السياسة يميل إلى الاهتمام بالعمليات الداخلـية ، أى العمليات التى تحدث داخل الحكومة مثلا ، ومع ذلـك فـإن علـم الاجتماع السياسى يشترك مع علم السياسة فى دراسة كثير من الموضوعات ، ولقد لعب بعض العلماء البارزين أمثال " ماكس فيبر " " وروبرت ميشلز" دوراً هاما فى تطور علم الاجتماع السياسى[٢] .

وبرغم ذلك توجد اختلافات بين علم الاجتماع وعلم الاجتماع السياسى ، ولقـد عبر " ليبست " "Lipset" عن ذلك بقوله : أن علم السياسة يهتم بالادارة العامة ، أى جعل التنظيمات الحكومية

---

(١) فادية عمر الجولانى — مبادىء علم الاجتماع ص ١٢٦ .

(٢) محمد الجوهرى وآخرون ، مقدمة فى علم الاجتماع ، مرجع سابق ص٨٠

فعالـــة ، أما علم الاجتماع السياسى فيعنى بالبيروقراطية ، وعلى الأخص مشكلاتها الداخلية[١] .

وقـــد قدم عالم الاجتماع الايطالى " فلفريدوباريتو" ١٨٤٨ ، ١٩٢٣ تحليلاً دقيقاً للعلاقة بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخـــرى فى مؤلفه " مقدمة لعلم الاجتماع العام " الذى نشر فى عـــام ١٩١٥م باللغتيـــن الايطالـــية والفرنسية ونشرت ترجمته الانجلـــيزية فـــى عـــام ١٩٣٦ بعنوان " العقل والمجتمع " حيث أوضـــح فى هذا المؤلف ما بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخـــرى مـــن أوجـــه صلات وإختلاف إذ أنه رغم أرتباط علم الاجتماع بهذه العلوم إلا أنه له ميداناً مستقلاً عن بقية العلوم[٢] .

وعلم الاجتماع يهتم بدراسة السمات والخصائص العامة التى تتســـم بها مجموعة الظواهر الاجتماعية وذلك لأنه علم تعميمى يســـعى فـــى المجـــل الأول لما هو عام ومشترك بين الظواهر الاجتماعـــية الـــتى يدرســـها من حيث تساندها وتفاعلها وتبادلها التأثـــير مع بعضها ، فى الوقت الذى يهتم به كل علم من العلوم الاجتماعية الأخرى بظاهرة معينة محاولاً التعمق فى تفصيلاتها وجزئـــياتها دون أن يهـــتم بما بينها وبين الظواهر الأخرى من تفاعل علاقات[٣] .

(١) محمد الجوهرى وأخرون - مقدمة الاجتماع - مرجع سابق ص ٨ .

(٢) فادية عمر الجولانى - مبادىء علم الاجتماع - مرجع سابق ص ١٢٨ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢٨ .

وبذلـــك يختلف علم الاجتماع عن العلوم الاجتماعية الأخـــرى من حيث الموضوع الذى يتناوله من ناحية ومن حيث التفسير الذى يعالج به مجموعة الظواهر التى يعالجها من ناحية أخـــرى ، وذلك لأن تفسير علم الاجتماع للظاهر يتجاوز الحدود الضيقة المرتبطة بطبيعة الظاهرة لأنه يفسرها فى ضوء تفاعلها مع الظواهر الأخرى وتأثيرها فيها وتاثرها بها وما بينها من تساند وظـــيفى ، فى حين أن كل علم من العلوم الاجتماعية يحاول أن يقـــدم تفسيره للظاهرة فى حدود ضيقة ترتبط بأعمال تخصصه فعلم الاقتصاد يفسر الظاهرة التى يتناولها بالخصائص الاقتصادية وعلـــم السياســـة يركز على الجوانب السياسية فى التفسير وعلم الـــنفس يركز على الجوانب الفردية فى التفسير والجغرافيا تركز على العوامل الجغرافية فى التفسير[١] .

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٨ .

الانثربولوجيا وعلم الاجتماع

تعتـــبر الانثربولوجـــيا من أحدث العلوم الاجتماعية إذا أنها لاتزال تجتاز المائة سنة الأولى من عمرها ، وهى تعنى دراسة الانسان أى " علم الانسان " .

ويذكـــر العـــالم الأمـــريكى " كلايد كلوكهون " أن الاهتمام الرئيســـى للأنثربولوجيا يتركز حول محاولة الاجابة على بعض التســـاؤلات مـــثل ما هو مجرى التطور الانسانى من الناحيتين البيولوجـــية والثقافية ، وهل هناك مبادىء عامة أو قوانين تحكم هـــذا الـــتطور ، هل هناك أى ارتباطات جوهرية بين الجوانب الطبيعـــية المخـــتلفة للإنسان وبين عادات الشعوب فى الماضى والحاضـــر ولماذا نجد أن هناك أنماط معينة من الشخصية تميز مجتمعات معينة دون غيرها (١) .

وقـــد أختلفت الآراء فى تحديد أقسام الأنثربولوجيا إذا ترى المدرســـة الانجليزية أنها تنقسم إلى ثلاث أقسام رئيسية وهى : الأنثربولوجيا الثقافية ، والأنثربولوجيا الطبيعية ، والأنثربولوجيا الاجتماعية بينما ترى المدرسة الأمريكية أن الأنثربولوجيا تنقسم إلـــى قسمين فقط وهما : الأنثربولوجيا الثقافية والطبيعية ، وذلك علـــى أســـاس أن الأنثربولوجيا الاجتماعية تعتبر أهم أحد فروع الدراســـة داخـــل الأنثربولوجيا الثقافية ، حيث أن موضوع العلم الأول يدور حـول دراسة البنـاء الاجتمـــاعى الـذى يعد أحـــد

---

(١) طلعت ابراهيم مرجع سابق ص ٤٨ .

القطاعـــات الكبرى للثقافة التى تمثل الموضوع الرئيسى للدراسة فى الأنثربولوجيا الثقافية .

وتخـــتص الأنثربولوجيا الطبيعية بدراسة الجوانب الطبيعية للإنسان مثل تطور الجنس البشرى وخصائصه وتصنيفاته ، أما الأنثربولوجـــيا الثقافـــية فتهـــتم بدراسته الثقافة أو طريق معيشة الإنســـان ، ونظراً لكثرة تنوع الموضوعات التى تدخل فى أطار الـــثقافة فقد أنقسمت الأنثربولوجيا الثقافية إلى عدة فروع مثل : الأثنوجرافـــيا وعلـــم الأثـــنولوجـــيا وعلم الآثار وعلم اللغويات والأنثربولوجـــيا الاقتصـــادية والانثربولوجـــيا النفسية وهى ذلك الفـــرع الذى يطلق عليه أحياناً الثقافة والشخصية ، ونجد أن كل فرع من هذه الفروع المختلفة التى تدخل فى نطاق الأنثربولوجيا الثقافية يتناول دراسة عنصر أو أكثر من عناصر الثقافة وعلاقته بالظواهـــر الاجتماعـــية الأخرى أو يحاول تتبع مجرى التطور الثقافى للإنسان والمبادىء أو القوانين التي تحكم هذا التطور[١] .

والأنثربولوجـــيا - كعلم للثقافة - ذات صلة بالغة القوة بعلم الاجـــتماع ويمكـــن تعريف الثقافة بأنها : ذلك النسق من الرموز الذى يضم اللغة والقيم اللتين تسودان مجتمعاً من المجتمعات ...، وإذا عرفنا الثقافة تعريفاً واسعاً بأنها : (تضم كل الأساليب التى يمكـــن بواســـطتها صـــنع الاشـــياء بمـــا فى ذلك القيم السائدة والاجـــراءات النظامـــية العامـــة) فقد يترتب على ذلك تداخل الأنثروبولوجيا مع علم الاجتماع[٢] .

---

(١) طلعت إبراهيم - مرجع سابق ص ٤٩ .

(٢) محمد الجوهرى وآخرون - مقدمة الاجتماع - مرجع سابق ص ٨٦ .

وقد يبدو الأختلاف بين الأنثربولوجيا الثقافية وعلم الاجتماع في أنماط المجتمعات التى يميل كل منهما نحو دراستها ، إذ يميل علمـــاء الأنثربولوجيا نحو تركز إهتمامهم جول دراسة الانساق التقلــيدية أو المجتمعات البدائية ، بينما يميل علماء الاجتماع إلى دراســة المجتمعات الحديثة ، أى أن الأنثربولوجيا تهتم بدراسة الإنســان الـــبدائى أو غـــير المتعلم ، بينما يتناول علم الاجتماع دراســة الحضــارات الأكـــثر تقدمـــا ، والواقع أن هذه الحقيقة الأساســية تمـــارس تأثـــيراً كبـــيراً علــــى مضــمون العلمين وموضـــوعهما، فالأنثروبولوجيون يميلون إلى دراسة المجتمعات من حيث جميع جوانبها دراسة كلية شاملة ، أما علماء الاجتماع فيمـــيلون إلى دراسة قطاعات أو أجزاء معينة من المجتمع مثل دراسة نظاما بعينه كنظام الأسرة ، أو دراسة علمية مثل الحراك الاجــتماعى ، وعادة ما يعيش الأنثربولوجيون فى المجتمع الذى يدرســونه حيـــث يلاحظون السلوك ملاحظة مباشرة، ويسجلون الأعـــراف والعـــادات مســـتعينين فى ذلك بالأخبارين ، والمنهج الأنثربولوجـــي هو بالضرورة منهج كيفى . أما علماء الاجتماع فغالباً ما يعتمدون على الاحصاءات والاستبيانات فى دراستعهم ، ومن ثم فإن تحليلاتهم غالباً ما تكون كمية وكيفية فى نفس الوقت ، وبالاضـــافة إلى ذلك فإن الوسط الطبيعى لعالم الأنثربولوجيا هو المجــتمعات المحلــية الصغيرة المكتفية بذاتها بينما يدرس عالم الاجــتماع المجــتمعات الكبـــيرة الحجم والعمليات الاجتماعيـــة المعقدة[1] .

---

(١) طلعت إبراهيم – مبادىء علم الاجتماع – مرجع سابق ص ٥٠ .

وعلى الرغم من هذا الاختلاف الذى قد يبدو بين علم الاجتماع والأنثربولوجيا ، فإننا نجد هناك درجة كبيرة من التقارب بين العلمين بل الأنثربولوجيا تعد من أقرب العلوم إلى علم الاجتماع فلكل من العلمين مفاهيم كثيرة مشتركة ومتفقة تمامًا[1] .

كما شهدت الأنثربولوجيا الثقافية تغيرات جوهرية فى الثلاثين سنة الأخيرة ، وأهم هذه التغيرات الانتقال من دراسة الموضوعات البدائية وهو الموضوع التقليدى لهذا العلم إلى دراسة المجتمعات المستحدثة سواء على المستوى القومى الواسع أو المحلى الضيق ، فقد أهتمت الدراسات الحديثة بتحديد معالم الثقافات الكبرى مثل الثقافات الفرنسية والأمريكية واليابانية وتخصصت بعض هذه الدراسات فى دراسة الجاليات أو الجامعات الأثنية التى تعيش فيها تلك الثقافات أى أن اهتمام علماء الأنثربولوجيا الثقافية قد تحول من دراسة المجتمعات البدائية التي تكاد تنقرض فى الوقت الحاضر والاتجاه نحو دراسة الجماعات فى المجتمعات الصناعية الحديثة ، ومن ثم أصبح كلاً من علماء الاجتماع والأنثربولوجيا الثقافية يتناولون موضوعات تكاد تكون متشابه إلى درجة كبيرة [1] .

إن أستمرار وجود علم الانثربولوجيا مرتبط باستمرار وجود الشعوب البدائية ذاتها ، وفى حالة انتقال هذه الشعوب إلى عالم متقدم أو حديث ، فإن باستطاعة عالم الأنثربولوجيا أن يتتبع

---

(١) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٢) نفس المرجع ص ٥١ .

دراستهم طالما ظلت تمثل جيوبا أو مجتمعات محلية متميزة داخل مجتمعات أكبر ، أما إذا مرت هذه الشعوب بعملية تثقيف أو تشتت داخل المجتمع الأكبر ، فإن فرصة الأنثربولوجيا فى البقاء تكون ضئيلة للغاية ، وقد تتحول الأنثروبولوجيا حينئذ لتصبح فرعا من علم الاجتماع يدرس القيم أو المجتمعات المحلية الصغيرة[١] .

ويرى رالف لتنون أن هناك نوع من التكامل بين علم الاجتماع وعلم النفس والأنثربولوجيا الاجتماعية ، حيث يركز علم النفس دراسته على علم الاجتماع دراسة على الجماعة كما تركز الانثروبولوجيا على دراسة الثقافة [٢] .

وإذا كان هذا التشابه بين الأنثربولوجيا الثقافية وعلم الاجتماع ، فإن هناك درجة كبيرة من التشابه بين الأنثربولوجيا الاجتماعية وهى أحد فروع الأنثربولوجيا الثقافية من وجهة نظر المدرسة الأمريكية وبين علم الاجتماع ، إذ يتجه كل من العلمين نحو دراسة العلاقات الاجتماعية وتحليل البناء الاجتماعى للمجتمعات الانسانية مما جعل العالم الانجليزى " رادكليف براون" يطلق على الأنثربولوجيا الثقافية الاجتماعية اسم " علم الاجتماع المقارن "[٣] .

---

(١) محمد الجوهرى وآخرون ، مرجع سابق ص ٨٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٧ .

(٣) طلعت ابراهيم – مبادىء علم الاجتماع مرجع سابق ص ٥ .

وقـد أصبح اليوم واضحاً مدى التكامل بين الفرد والمجتمع والـثقافة ومدى التفاعل المستمر بين هذه العوامل الثلاثة ، ومن ثـم فإن الباحث الذى يحاول دراسة أحد هذه العوامل بمعزل عن غـيرها من العوامل الأخرى فإنه لن يحقق هدف من الدراسة ، ومن ثم فقد تنبأ " لينتون " بأن السنوات القليلة القادمة سوف تشهد ظهـور علم اجتماع عام لدراسة السلوك الانسانى يقوم بالتنسيق بين كل من علم النفس وعلم الاجتماع والأنثربولوجيا(١) .

---

(١) بـيرس كوهيـن : الـنظريات الاجتماعية الحديثة - ترجمة عادل الهوارى ١٩٨٥ - دار المعرفة الجامعية - الأزاريطة - ص ١٩ .

ما النظرية السوسيولوجية

أن كلمة نظرية أشبه ما يكون "بصك مفتوح" وقيمتها المتضمنة تعتمد على مستخدمها وعلى كيفية استعماله لها وإذا قلنا أن تقارير النظرية تميل أحياناً إلى زيادة قيمتها أو معنى آخر أن تقارير النظرية تتجاوز الحقائق المجردة عندما يقول أحد الأفراد أنه يملك نظرية عن شيء ما محدد ، وهو يعنى ذلك أنه غير منخدع بها ولكن أحياناً ما نستخدم كلمة نظرية بوضوح للتقليل من قيمة فكرة تأملية[1] .

وذلك عن طريق إنكار أرتباطها الوثيق مع الحقيقة ، وبهذا المعنى فإن الأشياء تكون سليمة نظرياً وليست كذلك تطبيقياً .

ولا قيمة للنظريات إذا لم تتجاوز الحقائق فالحقائق ما هى إلا مجرد تقارير نعتقد فى صحتها عن وقائع معينة تم حدوثها .

فى الواقع أن كل النظريات تتجاوز الحقائق ولكن ليست كل التقارير التى تتجاوز الحقائق فمثلاً إذا قلنا إن الغزاة النورماند لانجلترا قد أسسوا النظم الاقطاعية التى لم تكن لتتطور بدونهم فإننا هنا نتجاوز الحقائق حيث لا يوجد أى شخص يمكنه أن يعرف أياً من النظم كان من الممكن أن تتطور فى انجلترا لو لم يحدث ذلك الغزو النورماندى ، ولكن يمكن للمرء أن يخمن وفى هذه الحالة يعتبره أفتراض لكن هذا الفرض ليس أهم نظرية حيث

---

(١) بيرس كوهن — النظريات الاجتماعية الحديثة — مرجع سابق ص ٢٠ .

أنـــه يقـــرر أشياء معينة عن وقائع معينة أو عن مركبات معيـــنة مـــن من الوقائع ولكنه لا يعطينا شيئاً عاماً عن السمات العسكرية والسياسية لذلك الغزو(١) .

وتمـــيزت النظرية السوسيولوجية فى إطار المناخ الأوربى بازدهـــار المـــيل نحـــو الأرتباط بالانساق الفلسفية من ناحية أو محاولة تمثل العلوم الطبيعية من ناحية أخرى من منطق الادراك والبحث ، إن انتقال علم الأجتماع إلى القارة الأوربية جعله يسقط فى أسار البرجماتية والميل نحو الأرتباط بالنزعة الأمبريقية إلى أن أيقظـــته أزمة الثلاثينات التى أكدت لديه عدم جدوى البحوث الاميريقية ذات الأدراك الجزئى ، ولذلك تخلق لدى علم الاجتماع مـــيل واضح بضرورة تأسيس نظرية شاملة تيسر إدراك الواقع وفهمه وحمايته(٢) .

ولقـــد اتجـــه علـــم الاجتماع فى السنوات الأخيرة إلى جمع الحقـــائق والأعتماد على الواقع الأجتماعى فى فحص النظريات المخـــتلفة وفى خلق نظريات جديدة ، أجمع كل الباحثين فى هذا الميدان أن البحث دون سند من نظرية أو دون اتجاه إلى نظرية لـــيس إلا نوعاً من العبث ، وهنا يجب أن نشير إلى حقيقة هامة منذ البداية حتى لا يختلط الأمر على الطلاب وهى أن المشككين فى النظرية السوسيولوجية أو المقللين من اهميتها إنمـا يقيمون(٣) .

---

(١) بيرس كوهن : النظرية الاجتماعية الحديثة - مرجع سابق ص ٢٠ .

(٢) على ليلة ، النظرية الاجتماعية المعاصرة ، دراسة لعلاقة الانسان بالمجتمع درار المعارف ١٩٨٣ ص ٢٦ .

(٣) بيرسى كوهن ، النظرية الاجتماعية الحديثة ترجمة عادل الهوارى .

دعـــاواهم على وهم وبطلان لأنهم قليلو المعرفة بالعلم من حيث طبيعته ومنهجه [١] .

توحـــى المناقشـــة السابقة بشكل غير مباشر معنى النظرية السيولوجية وماهيتها[٢] .

أن بـــناء النظرية السوسيولوجية تطلب وجود ثلاثة عناصر أساسية وهى :

(أ) المفاهـــيم : والمفهـــوم كما يعرفه ماكيلاند فهو تمثيل مختصر لمجموعة من الحقائق ، أى أن الوظيفة الأساسية للمفهوم أن يجرد الواقع تحت رمز معين ... ، ويؤكد ميرتون أن المفاهيم لا تشكل فى ذاتها نظرية وأن كانت تشارك فى النسق النظرى ، أى أن المفاهيم ليست سوى تحديدات لما ينبغى ملاحظته .

(ب) القاضـــايا : وتعرف القضية على أنها تعبير عن الواقع الاجـــتماعى يتضمن مفهومين أو أكثر ، والعلاقة بينهما ، ويمكن إخضـــاعهما للبحث العلمى ، ومن ثم فالقضية تعبر عن العلاقات بيـــن المفاهيم ، وقد يشار أحياناً إلى القضية باعتبارها فرضاً أى تعميماً مبدئياً أو احتمالياً يخضع للاختبار الأمبريقى للتعرف على صدقه أو على خطئه[٣] .

---

(١) محمد عاطف غيث — علم الاجتماع ص ٤ .

(٢) نيقولا تيماشيف : نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ١٣ .

(٣) على ليله : النظرية الاجتماعية المعاصرة ، مرجع سابق ص ٣٩ .

<u>(د) البناء المنطقى :</u> ويشير إلى الهيكل البنائى الذى تنتظم فـيه قضايا النسق النظرى ، وحتى تصبح النظرية العلمية أكثر نضجا فإنها تميل لأن تشكل نسقا مغلقا ومتسقا ، ويساعد امتلاك النظرية لبناء منطقى متسق على اشتقاق الفروض التى من غير المحـتمل أن تتـناقص بعضـها مع البعض ، وتساعد النظرية المـتكاملة على تأكيد إثباتها بدرجة تفوق الحالة التى يكون فيها الاطـار الـنظرى متضمنا بعض الفروض المتميزة والمنفصلة بعضها عن البعض(١) .

أن الوظـيفة الأساسية للنظرية هى محاولة تفسير أو شرح ظاهـرة خاصـة فى إطار ظاهرة أخرى تعتبر مفسره للظاهرة الأولـى ، وتلك الوظيفة التفسيرية هى ما يميز مفهوم نظرية ما عـن المفهومات التى لها صلة بمفهوم النظرية ، ولكنها لا تقوم بالوظـيفة التفسيرية ، وهكذا فالوصف يشير إلى تحديد أو سرد خصائص ظاهرة ما دون تفسير لوجودها أو تغيرها(٢) .

والـنظرية هـى مجموعة القضايا التى تتوافر فيها الشروط التالية :

أولاً : ينـبغى أن تكـون المفهومات التى تعبر عن القضايا محددة بدقة .

---

(١) على ليله : النظرية الاجتماعية المعاصرة ، مرجع سابق ص ٤٠ .

(٢) جـراهام كيـنلوتش : تمهـيد فى النظرية الاجتماعية : تطورها ونماذجها الكبرى ترجمة محمد سعيد فرح ، ص ١٩ .

ثانيا : يجب أن تتسق القضايا الواحدة مع الأخرى .

ثالثا : أن نوضع في شكل يجعل من الممكن اشتقاق التعميمات القائمة اشتقاقا استنباطيا .

رابعا : أن تكون هذه القضايا خصبة ومثمرة تستكشف الطريق لملاحظات أبعد مدى وتعميمات تنمى مجال المعرفة[١] .

والنظرية لا يمكن أن تستقى من الملاحظات والتعميمات عن طريق استخدام وسائل الأستقراء المضبوطة والدقيقة ، فبناء النظرية يعد انجازاً خلاقاً ، ومن هنا فإن الأمر لا يدعو إلى الدهشة حين نجد نفراً من المشتغلين فى ميدان علمى معين هم القادرون على القيام بمثل هذا العمل فهناك دائما قفز فوق الأدلة وإحساس خفى متصل بالجهد الخلاق ، لكن أى نظرية يتم بناؤها على هذا النحو ، لابد أن تخضع للتحقيق فهى تعد صادقة ومحققة بصفة مبدئية فى حالة عدم وجود وقائع معروفة أو تعميم قائم يناقضها ، أما إن كان هناك ما يناقض مثل هذه النظرية المؤقته فإن الأمر يتطلب رفضها أو تعطيلها على الأقل[٢] .

وهناك فى العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء بوجه عام نظرية واحدة فقط على مستوى عال من التجريد ، أو مجموعة من النظريات المرتبطة التى يكمل بعضها البعض ، ولكن هذه العلوم

---

(١) نيقولا تيماشيف — مرجع سابق ص ١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤ .

وصــلت إلــى هــذه المرحلة من النضج بعد أن مرت بمرحلة الــنظريات المتصــارعة الــتى قــد تتمثل فى نظريتين أو أكثر يتعايشون معاً ، ومازال الحال كذلك بالنسبة لعلم الاجتماع حيث لا يوجد أطار من القضايا المتسقة أو المتجانسة ، أو اصطلاحات صــادقة يــتفق علــيها علمــاء الاجتماع تسمح بعرض الوقائع المعروفة والتعميمات بوصفها اشتقاقات منطقية لمبادىء محدودة، بــل أن علم الاجتماع قد تميز فى نموه وتطوره بظهور مجموعة كبــيرة من النظريات المتصارعة ، ومع أن هذا الموقف لم ينته بعــد ، فإن الصراع لم يعد على نفس الدرجة من الشدة التى كان عليها فى نهاية القرن التاسع عشر ، ويتفق علماء الاجتماع على عــدد من القضايا المتضمنة على عدد من القضايا المتضمنة فى نظــرية سوســيولوجية شاملة مع أنهم غالباً ما يبررون عن هذه القضايا باصطلاحات مختلفة ومتباينة[١] .

ومن الواضح أن الاختلاف بين السيوسيولوجين أخــذ الآن فــى التناقص والتقلص ويصاحب ذلك تزايد فى درجــة الاتفاق ومداه[٢].

---

(١) نيقولا نيماشيف ، مرجع سابق ص ١٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦ .

أنمـــاط النظرية

يحـــدد كوهـــن الأنمـــاط الرئيسية لطبيعـــة النظرية النسقية وهي :[١] .

١ – الـــنمط الأول : الـــنظريات التحليلـــية ، وهـــي تماثل النظريات المنطقية والرياضية ، والتي لا تحدد شيئاً يتعلق بالعالم الواقعـــي ، ولكـــنها تتشـــكل من مجموعة القضايا البديهية التي تكتســـب صدقها من خلال التعريف ، والتي يمكن اشتقاق قضايا أخرى منها .

٢ – الـــنمط الثاني : النظريات المعيارية : وهي التي تحدد مجموعة من الحالات المثالية التي يرغب فيها الإنسان ، ويتعلق هذا النوع من النظريات بالمسائل الاخلاقية والجمالية .

٣ – الـــنمط الثالـــث : النظريات العلمية : ... وفي شكلها المثالي نجدها عبارة عن صياغة شاملة وامبريقية ، تؤسس علاقة بيـــن نموذجين أو أكثر من الوقائع ، وفي أكثر مستويات بساطة نجدهـــا تتخذ الشكل الذي يتمثل في أنه حينما تقع (أ) فإن (ب) لابد أن تقع ، وعادة ما تتسم النظرية العلمية بالشمول[٢] .

ومـــن الواضح أن النظرية السوسيولوجية يمكن أن تتضمن الانماط الثـــلاثة التي أشـــار إليهـــا كوهن ، فهي ينبغي أن تكون ذات

(١) على ليله ، النظرية الاجتماعية المعاصرة – مرجع سابق ص ٤٠ .

(٢) على ليله ، مرجع سابق ص ٤١ .

بناء منطقى ، إلى جانب أن العلاقة المنطقية ذاتها عادة ما تكون علاقة بين مفهومين أو أكثر يشيران إلى متغيرات واقعية محددة، وهـو مـا يجعلهـا تستوعب النمط الثالث ، وبطبيعة الحال فإن الـنظرية السـيولوجية على اختلاف نماذجها عادة ما يكون لها متضمناتها الايديولوجية أو مثلها وتفضيلاتها المعيارية التى تكمن وراء قضاياها العلمية[١] .

---

(١) على ليله ، النظرية الاجتماعية ، مرجع سابق ص ٤١ .

الفصل التاسع

ابن خلدون

- النشأة .
- التعريف الاجتماعى للتاريخ .
- اثر المناخ فى الحياة الاجتماعية .
- منهج البحث العلمى .
- طبيعة المجتمع البشرى .
- ضرورة قيام علم مستقل لعلم الاجتماع .
- الضبط الاجتماعى .
- الدراسات الاجتماعية الحديثة التى مهدت لنشأة علم الاجتماع .

الفصل التاسع

ابن خلـــدون

النشـــأة :

هــو عــبد الرحمن بن محمد بن خلدون ولد فى تونس سنة ١٣٣٢ مــيلادية وتوفــى فى مصر ١٤٠٦ وهو من رواد الفكر الاجــتماعى وخاصـــة ما أضافه من تفكير اجتماعى تميز بناحية هامة كان بها سابقا على غيره . هى الناحية الوضعية التى تقوم علـــى مشـــاهدة الظواهر وملاحظتها ومحاولة الخروج بقوانين معيـــنة . ولقـــد أستفاد من دراسة التاريخ حيث إن ما يحدث فى العـــالم من ظواهر إجتماعية إنما تسير وفق قوانين ثابتة لا تقل بتاتاً عن القوانين التى تخضع لها الظواهر الأخرى . ورأى ابن خلـــدون أن التاريخ لكى يكون صحيحاً فلا بد من وضع طريقة دقيقة لتحقيق ما يتعلق به من حقائق لأنه ليس مجرد قصص وهو علم بكيفيات الوقائع وأسبابها ويعد المؤسس الأول لعلم الاجتماع(١) .

وابـــن خـــادون كان عبقرية لامعه فى الشرق ، وهو يعتبر تلميـذاً لأستاذه ابن رشد فى الفلسفة ، وقد شهد الحوادث التى أدت

---

(١) عبد الحميد لطفى ، مرجع سابق ص ٢٣٣ .

إلـــى اخــتفاء الدول الأخيرة الإسلامية فى أسبانيا ، ومولد الفوضى التى تفشت فى شمال افريقية وفى الشرق وصول جيوش التتار..، ولا يخفى علينا مالمؤلفه " المقدمة " من أهمية كبيرة من الناحية الاجتماعية[1] .

وقد اتخذ ابن خلدون من التاريخ علما يدرس لا رواية تدون فقط ، وقد كتب على ضوء طريقة جديدة من الشرح والتحليل ، فانتهى به التأمل والدرس إلى وضع نوع من الفلسفة الاجتماعية[2] .

١ – التعريف الاجتماعى للتاريخ

أعطى ابن خلدون التاريخ تعريفاً إجتماعياً حيث يقول : يهدف التاريخ إفهامنا الحالة الاجتماعية للإنسان ، أعنى الحضارة ، ويهدف كذلك إلى أن يعلمنا الظواهر التى ترتبط بهذه الحضارة ، وإلى معرفة الحياة البدائية وتهذيب الأخلاق وروح الأسرة والقبيلة ، وتباعد وجهات النظر فى أن سمو شعوب على أخرى يؤدى إلى نشـــأة إمبراطوريات وأسر حاكمة ، وفوارق الطبقات والمصالح التى يكرس لها الناس أعمالهم ومجهوداتهم ، مثل المهن المريحة والصناعات التى تعين على الكسب ، والعلوم ، والفنون ، وأخيراً جميع التغيرات التى تحدثها طبيعة الاشياء فى سلوك المجتمع[1] .

(١) محمد سعيد فرح ، تاريخ الفكر الاجتماعى ، مرجع سابق ص ٢٦ .

(٢) جاستون بوتول ، تاريخ علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٢٣ .

(٣) جاستون بوتول ، مرجع سابق ص ٢٤ ..

وقــد عالج ابن خلدون مسائل على جانب عظيم من الأهمية أعتبر بدراستها رائداً لغيره من المفكرين الغربيين الذين درسوها بعدة بمئات السنين .

٢- أثر المناخ فى الحياة الاجتماعية

ومثال هذا ما كتبه عن " أثر الهواء فى أخلاق البشر " وهو عــنوان الفصــل الرابع فى مقدمته . وحيث يرجع خفة السودان وطربهم إلى شدة الحرارة ببلادهم بالاضافة إلى حرارة أرواحهم الراجعة إلى أصل تكوينهم . ويدخل مصر فى هذا الأقليم فيقول عن أهل مصر كيف غلب الفرح عليهم والخفة الغفلة من العواقب، حــتى أنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم ، وعلى العكس فارس من بلاد المغرب كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الخزن وكــيف أفــرطوا فى نظرة العواقب حتى أن الرجل يدخر قوت ســنتين من حبوب الحنطة . وتتبع ذلك فى الأقاليم والبلدان تجد فى الأخلاق أثراً من كيفيات الهواء [١] .

ونجد أن ابن خلدون يحاول تأكيد نظرياته أكثر من مرة وهذا واضح فى النتيجة التى خرج بها من أن للهواء أثراً على الأخلاق .

وكمــا نرى أن آراء ابن خلدون علمية وموضوع أثر الهواء فــى أخلاق البشر يبحثه العلماء فى القرن العشرين . ولعل أول مــن قــام بدراسة اثر الهواء بعد ابن خلدون . إلورت هنينجتون وذلك ما كتبه فى " الحضارة والمناخ " .

(١) المرجع السابق ص ٢٣٣

٣- منهج البحث العلمى :

اختار ابن خلدون للعلم الجديد - " علم العمران " - "الاجتماع البشرى " منهجا متميزاً يختلف عن المناهج التقليدية القياسية التى كـــان يتبعها جمهور الفلاسفة والمؤرخين فهو يتشكك فى امكان الوصول إلى الحقيقة العمرانية التقنية عن طريق هذه المناهج ، ولذلك نجده يقول - يحتاج صاحبها - (شئون العمران) إلى مراعاة ما فى الخارج وما يلحقها من الاحوال ويتبعها ... ، ولعل المراد من ذلك التأكيد على فكرة النسبية الاجتماعية التى تعتبر من أهم الاراء الحديثة فضلاً عن الاشارة إلى أخطاء التعميم التجريدى الاستدلالى دون الاستفادة إلى تحقيق واقعى استقرائى[١] .

ويرى ابن خلدون فى أصول المنهج ، أن صاحب هذا الفن يحـتاج إلـى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الاســم والبقاع والامصار فى السير والاختلاف ... ، كما أكد ابن خلـدون على ضرورة الدراسة الدينامية للظواهر : حيث يقول : ذلك لأن أحوال الأمم وعوائدهم ونحلهم لاتدوم على وتيرة واحدة ، ومـنهاج مستقر ، وإنما هو إختلاف على الايام والازمنة وانتقال من حال إلى حال[٢] .

ويدعـو ابن خلدون إلى المعرفة اليقينية الواقعية التى يمكن الوصول إليها ، بالملاحظة والمشاهدة والتى نستطيع أن نجد فيها

---

(١) محمد على محمد - تاريخ علم الاجتماع - مرجع سابق، ص ٣٠ .

(٢) محمد على محمد - المرجع السابق ص ٣٠ - ٣١ .

وقـــائع يمكن البحث عن تحقيقها وبرهانها ، ويمكن الكشف عن عللهـــا ، ولذلـــك فليس ابن خلدون فيلسوف على نحو ما صوره كثـــير مـــن المفكرين ، وإنما كان عالماً يؤمن بالمنهج التاريخي العلمى القائم على الملاحظة والمشاهدة والوصف والتحليل والنقد ومحاولة التفسير .

علـــى أن دراسة عميقة لرؤية ابن خلدون الفلسفية تمكن من الاســـتنتاج بـــأن المـــيل المادى هو الغالب فيها ، وهو ما تؤكده الأمور التالية .

١– محاولـــة المفكـــر تأكيد وحدة المادة وذلك برد ظواهر الكون المتنوعة بما فيها الإنسان إلى أصل واحد .

٢– دفاعه الثابت عن وجود قوانين موضوعية تسير الطبيعة والمجتمع والتزامه بمبدأ الحقيقة .

٣- انطلاقه فى نظرية المعرفة من مواقف حسية وتصورية ، ودحضه لمذهب الشك والانا وحدى .

٤– تأكـــيده الدائم على المعطيات التى تقدمها التجربة والتى تشكل الأشياء الخارجية مصدرها الأساسى(١) .

٤– طبيعة المجتمع البشرى :

حـــاول ابـــن خلـــدون مـــن أن يخـــرج بقـــانون يحكـــم حـــركة المجتمعات الانسانية فكل مجتمع يســير فـى طريق طبيعى يجتاز فيـه أطوار ثلاثة ، طور النشأة والتكوين ثم طور النضج والأكتمال

---

(١) غريب سيد أحمد – مرجع سابق ص ١١٦ .

وأخـيراً طـور الهدم والشيخوخة . ثم يفنى ليقوم على أنقاضه مجتمع آخر .

يقـول ابـن خلـدون أن فى كتابه " فصل فى أن الدولة لها أعمـار طبيعـية كمـا للإشـخاص " أعلـم أن العمر الطبيعى للإشـخاص أربعون سنة والدولة فى الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجـيال . حيـث يقول أن الجيل الأول لم يزل على خلق البداوة وخشـونتها وتوحشـها مـن شظف العيش والبسالة والافتراس والأشـتراك فـى المجد . وأما الجيل الثانى تحول حالهم بالملك والـترفة من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف ومن الأشـتراك فى المجد إلى أنفراد الواحد منهم . وأما الجيل الثالث فينسـون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصـبية بمـا هم فيه من ملكة القهر . فيصيرون عيالاً على الدولة[1] ...،

وهذه الأطوار الثلاثة كما يرى ابن خلدون طبيعية وتتفق مع طبيعـية الأشـياء . ومما يؤخذ على ابن خلدون فى قانونه هذا تحديـده عمـر الدولـة بمائة وعشرين سنة وعمر كل جيل من أجيالها الثلاثة بأربعين سنة لأن ذلك يمكن أن ينطبق على جميع الـدول . لقـد وصـف ابن خلدون ما شاهده فى البلاد العربية والإسـلامية التى طاف بأرجائها مثل تونس والأندلس حيث كان يسـود النظام القبلى . ولكنه لم يكن قد زار كثير من المجتمعات التى تقوم أساساً على نظم دينية أو روحية توتمية كما هو معروف

(١) عبد الحميد لطفى ، مرجع سابق ص ٢٣٤ .

بيـــن قـــبائل الهند . ورغم هذا إلا أن الاتجاه الذى صار فيه ابن خلـــدون اتجـــاه علمـــى وجاء من المفكرين من يقلده حينئذ ومن هـــؤلاء المفكرين الذين حاولوا أن يخضعوا المجتمعات الانسانية فى تطورها لقوانين ثابتة وعلى رأسهم أوجست كونت .

٥ - ضرورة قيام علم مستقل للاجتماع :

إمـــا عـــن صـــلة ابن خلدون بعلم الاجتماع فمقـــلاته تشهد "مقدمـــته" على أنه قد تنبأ به وذلك حينما رأى أن الحاجة ماسة إلـــى كتاب جامع شامل لكتابة التاريخ على أسس ومبادىء جديدة ومـــنهج جديد يقوم على الشرح والتحليل وتعليل الحوادث وقيام علـــم جديد هو " علم العمران " ويقول فى ذلك " وكأن هذا علم مستقل بنفسه فإنه ذو موضوع وهو العمران البشرى والاجتماع الانسانى وذو مسائل وهو بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحده بعد الأخرى[١] .

وهـــذا شأن أى علم من العلوم وضعيا كان أم عقليا ، ويقسم ابـــن خلـــدون كتابه إلى ستة فصول تستوعب تقريبا كل فروع الاجتماع المعروفة عند الاجتماعيين المحدثين وهى على التوالى : فـــى العمران البشرى وأصنافه ، وفى العمران البدوى ، والأمم الوحشـــية وفـــى الدول والخلافة والملك وفى العمران الحضرى والامصار وفى الصنائع والمعاش والكسب وفى العلوم واكتسابها وتعلمها ، وهى تقابل عنـــد المحدثـــين : عـــلم الاجتماع العـــام

---

(١) عبد الحميد لطفى ، مرجع سابق ص ٢٣٦ .

والانثرويولوجيا والاجتماع السياسى والاجتماع الحضرى والاجتماع الصناعى والاجتماع التربوى[١] .

وأشار ابن خلدون إلى نواحى الضعف التى تشوب الدراسات التاريخية لعدم التزامها لأسس معينة نادى ابن خلدون بأهمية مراعاتها لكى تكون هذه الدراسات سليمة وعلمية :-[٢] .

١- عدم التزام الكاتب بالموضوعية وتشجيعه لأراء أو مذاهب معينة ويقول ابن خلدون أن النفس إذا كانت حال الأعتدال فى قبول الخير أعطته حقه من التمحيص أما إذا خامرها تشبع لرأى ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة وكان ذلك الميل أو غطاء على عين بصيرتها .

٢- الجهل بالقوانين التى تخضع لها الظواهر الطبيعية فيسجل المؤلف أخباراً يستحيل حدوثها إن كل حادث من الحوادث ذاتاً أو فعلاً لابد له من طبيعة تخصه فى ذاته وفيما يعرض من أحواله . فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال فى الوجود ومقتضياتها .

٣- الجهل بالقوانين التى تخضع لها ظواهر الاجتماع الانسانى وذلك أن الظواهر الاجتماعية لا تسير بحسب الأهواء والمصادفات وإنما تحملها قوانين ثابتة مطردة شأنها فى ذلك شأن الظواهر الطبيعية[٣] .

(١) محمد على محمد ، تاريخ علم الاجتماع - مرجع سابق ص ٢٩ .

(٢) عبد الحميد لطفى ، مرجع سابق ص ٢٣٦ .

٤- الذهول عن المقاصد فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع وينقل الخبر على ما فى ظنه وتخمينه .

٥ - تقــرب الناس لأصحاب التحية والمراتب بالثناء والمدح وتحســين الأحوال فالنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها [١] .

٦- الضبط الاجتماعى :

أن الضبط الاجتماعي عن " الرفاهية الاجتماعية " كما يطلق علــيه أحــياناً ابن خلدون ، هى كافة الجهود والأجراءات التى يــتخذها المجــتمع أو جزء من هذا المجتمع لحمل الأفراد على السير على المستوى العادى المألوف المصطلح عليه من الجماعة دون انحــراف أو اعتداد ، وقد فطن ابن خلدون فى مقدمته إلى أهمــية الضبط الاجتماعي ، وأنه أساس الحياة الاجتماعية وحنانا لأمتها واستمراراً لبقائها [١] .

يقــول ابن خلدون " أن الاجتماع البشرى ضرورى " ، وهو معنى العمران ، وأنه لابد فى الاجتماع من وازع حاكم يرجعون إليه ... وحكمه فيهم تارة ما يكون مستنداً إلى شرع منزل من الله يوجــب انقيادهم إليه ايمانهم بالثواب والعقاب عليه الذى جاء به مبلغه ، وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم ، ويقول ابن خلدون فــى موضع آخر : " أن الادميين بالطبيعة الانسانية يحتاجون فى كل اجتماع إلى وازع حاكم يزع بعضهم عن بعض" [٢] .

(١) عبد الحميد لطفى ، مرجع سابق ص ٢٣٦ .

(٢) غريب سيد أحمد ، تاريخ الفكر الاجتماعى ، مرجع سابق ص ١٤٠ .

ويـبرر ابن خلدون ضرورة وجود أداة للضبط الاجتماعى بالنسـبة للبشـر إذ أن الناس فى حاجة إلى الضبط أثناء تفاعلهم بعضـهم مع البعض ، ولذلك يؤكد ابن خلدون فى مواضع عدة علـى عملية الضبط الاجتماعى ، ويتكلم عن الضبط الاجتماعى الـذى يتأتى عن طريق القانون ، والضبط الاجتماعى الذى ينجم عـن الدين والشرع ، وكذلك الضبط الاجتماعى الذى ينبثق من الضمير .

ويجعـل ابـن خلدون من الضبط الاجتماعى ظاهرة ملزمة بالنسـبة للمجتمع وأن الانسان سياسى بطبعه ، أى أنه يحتاج إلى من يضبط سلوكه الاجتماعى بقوة قاهرة حتى لا يبغى أحد على غـيره ، كمـا أنه ينظر إلى الضبط الاجتماعى نظره إجتماعية نفسية نفعية ، فيرى أن الضبط لازم للحياة الاجتماعية ، وهو فى الوقـت ذاتـه ناجم عن خاصية طبيعية فى الانسان ، وأن فائدته المحافظـة علـى المصلحة العامة للأفراد فى المجتمع ، وعلى مصلحة الحاكم فى استقامة حكمه[١] .

والانسـان هـو الكائن الحى الوحيد الذى يحتاج إلى سلطة بدونهـا لابـد أن تسـود الاضطرابات والفوضى ، لأن الغرائز الشريرة تكمن فيه[٢] . .

(١) غريب سيد أحمد ، المرجع السابق ص ١٤٠ .

(٢) جاستون بوتول ، مرجع سابق ص ٢٥ .

وبهـــذا نجـــد أن ابن خلدون قد أشار إلى اتجاهات هامة فى البحـــث الاجـــتماعى ، يتصـــل بعضها بالموضوعية ، ويتصل الـــبعض الأخـــير بالـــنواحى التجريبية ، ويعد أول من قرر فى صراحة ووضوح نشأة علم الاجتماع ، وقد سبق فى ذلك كل من فيكو ، وكتيليه ، وكونت ، وسبشر وغيرهم[١] .

وإذا كـــان ابن خلدون قد ربط التاريخ بعلم الاجتماع فى هذا المـــنهج ، فإن مدرسة علم الاجتماع الفرنسية مازالت تسلك هذا الســـبيل ، وهى ترى أن المقارنة التاريخية ضرورة لاغنى عنها فـــى الدراسات الاجتماعية وفى ذلك يقول " إميل دوركايم " " إن المـــنهج المقـــارن نـــوع من التجريب غير المباشر ، وأن علم الاجتماع المقارن ليس فرعا خاصا لعلم الاجتماع ، وإنما هو علم الاجتماع بعينه "[٢] .

---

(١) عبد الحميد لطفى – علم الاجتماع – مرجع سابق ص ٢٣٨ .

(٢) عبد الباسط حسن : أصول البحث الاجتماعى ، مرجع سابق ص ٧٧ .

الدراسات الاجتماعية الحديثة التى مهدت لنشأة علم الاجتماع

أن الفكـــر الاجتماعي القديم وإن كان قد تميز إجمالا بوجهة النظر الغائبة التى ترمى إلى اصلاح المجتمع ، فإن ذلك لا يعيبه فى شيء ، فلا تزال وجهة النظر الغائية هذه تسيطر على تفكير الكثيريـــن حـــتى وقتنا الحاضر ، ولم يظهر التفكير العلمى مرة واحدة ، وانما نتيجة لمرحلة طويلة من الدراسات الاجتماعية التى أفضت إلى ظهور علم الاجتماع بمعناه الحديث ، وقد احتلت هذه الدراســـات معظم القرنين السابع عشر والثامن عشر وجانبا من القرن التاسع عشر ، ونجد هذه الدراسات ممثلة بصورة واضحة فى تلك الأعمال التى قامت حول الدولة وماهيتها وصلتها بالأفراد مـــن ناحية الحقوق والواجبات ، والتى حظيت باهتمام عدد كبير مـــن الفلاسفة ، ومن هؤلاء العلماء على سبيل المثال : هوبز ، وروســـو ، ولوك ، وسبينوز ... ، ومن الدراسات التى أعتبرت أيضـــا ممهـــدة لظهور علم الاجتماع تلك التى قامت حول فلسفة التاريخ الانسانى ، وقد برز فيها فلاسفة مثل فيكو وكونت وهيجل ، هـــذا بالاضـــافة إلى عدد كبير من الدراسات الاجتماعية التى اتجهـــت إلى تفسير المجتمع على أسس جغرافية أو بيولوجية أو نفســـيه أو علـــى أسس اجتماعية متميزة كالأساس الاقتصادى أو الديـــنى ، كل هذه الدراسات وأن كانت لم تتميز بالاتجاه العلمى الكـــامل ، الا أنهـــا كانت الأساس المباشر للدراسات الاجتماعية العلمية التى مهدت لنشأة علم الاجتماع[١] .

---

(١) عبد الحميد لطفى ، مرجع سابق ص ٢٤٢ .
وانظر أيضا : (أ) عبد الهادى والى - مقدمة فى علم الاجتماع - مرجع سابق ص ١٣٥ .

(ب) فادية الجولانى - مبادىء علم الاجتماع - مرجع سابق ص ١٨٠-١٨٥ .

ومـــن ثـــم سوف تتناول دراسات علم الاجتماع فى العصر الحديث مثل أوجست كونت ، وهربرت سبنر ، واميل دوركايم وكارل ماركس ، وفيبر وغيرهم من العلماء ممن ساهموا فى نشأة علم الاجتماع وتطوره حتى ظهر كعلم مستقل فى منتصف القرن التاسع عشر ، وذلك لأن ظهوره كعلم قد تشكل من خلال سلسلة من المحاولات المستمرة لتفسير العلاقات البشرية والسلوك .

الدراسات السياسية التى
مهدت لظهورعلم الاجتماع

كان ظهور الدول الحديثة سبباً فى ظهور عدد من المفكرين الفلاسفة الذين تناولوا موضوع الدولة وصلتها برعاياها ، وتحديد حقـــوق الحـــاكم والمحكومين والمجتمع وشأنه وتطوره ولقد كثر الجدل والنقاش حول هذه الموضوعات بين عدد من المفكرين فى أنحاء مختلفة من العالم إلا إن بحوثهم كانت تأتى فى النهاية ممثلة لأرائهم الشخصية التى لم تكن تقوم على أساس وضعى مما كان يـــبعدها عن الطابع العلمى . أطلق على هذا النوع الموضوعات النظريات التعاقدية بين الحكام والمحكومين وبدأت هذه النظريات عـــند اليونان القدماء حول أصل المجتمع الانسانى وعادت تظهر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر [١] .

ومـــن أبرز من كتب فى هذه الموضوعات : توماس هوبز وقـــد ميز فى دراسته بين مجتمعين ، مجتمع على حاله الطبيعة وهو أى مجتمع لا تكون على رأسه حكومة فهو مجتمع تســـوده

---

(١) انظر : (أ) غادية الجولانى - مرجع سابق ص ١٧٦ .

(ب) عبد الحميد لطفى - مرجع سابق ص ٢٤٣ .

الفوضـــى . وخـــداع الناس بعضهم البعض . ولا مجال للنشاط الصناعى أو الزراعى(١) .

ومـــن ثـــم يذهـــب هوبز إلى أن مخرج الانسانية من حالة الطبيعة والفوضى لا يتم الا عن طريق التعاقد الذى يتم بموجب التـــنازل من قبل الأفراد والجماعات عن جميع الحقوق لشخص واحـــد وذلـــك لبلوغ حالة المدنية فى الدولة أو المجتمع السياسى الذى قام بمقتضى تعاقد إرادى والتزام مطلق يسلطه الحكومة(٢).

وهوبـــز هـــنا لا يتفق مع أرسطو في أن الانسان اجتماعى بطـــبعه ، بل يرى أن الحياة الاجتماعية قامت على أساس خوف الأفـــراد مـــن بعضهم البعض ، أما النوع الثانى من المجتمعات وهـــو مجتمع ترأسه حكونة وله أمير ، حيث أن الانسان يجد ما يحمـــيه من شر الناس بعضهم البعض ، ويرى هوبز أن الأفراد مـــاداموا قد وافقوا على هذا الحاكم أو الأمير ، فلا حق لهم فى الـــرجوع عـــن هذا التنازل مهما كان حكمه سيئاً ، لأن حكومته مهما كانت خاطئة فهى أفضل من المجتمع على حالته الطبيعية ، لذلك لا يكون رقيب على الحاكم سوى الله ... ،

---

(١) عبد الحميد لطفى ، مرجع سابق ص ٢٤٣ .

(٢) فادية الجولانى ، مرجع سابق ص ١٧٦ .

وقــد مــيز " هوبز" بين ثلاث أنواع من الحكومات وهي : الحكومــة الشــعبية ، والحكومة الاوليجاركية ، وحكومة الفرد ، وفضل هوبز من هذه الحكومات حكومة الفرد .

وفلســفته تــرجع إلى أن الفرد الواحد إذا كانت له مصالح شخصية أقتصرت عليه وحدة وهو وضع أفضل من الآخر الذى تــتعدد فــيه المصالح الشخصية وذلك فى حالة أشتراك عدد من الأفراد[١] .

ويــتفق الكاتب الهولندى باروك " أوبنديكتس "دى سبينوزا " مــع هوبــز فــى مــرحلة الفوضــى التى كانت تسبق المرحلة الاجتماعــية وفى أن المجتمع قام على أساس التعاقد بين الأفراد وحاكم معين ، إلا أن هذا السلطان يجب ألا يكون مطلقاً كما رأى هوبز . وعلى ذلك يجب أن يكون الحاكم عــادلاً فى حكمه وإلا للأفــراد الحــق في الخروج عليهم . ويرى سيبنوزا أن أفضل الانواع الحكومة الشعبية[٢] .

وإذا أنتقلــنا إلى آراء جان جاك روسو حول هذا الموضوع فى كتابه العقــد الاجتماعى وجــدناه يختلف عن كل من هــوبز

(١) المرجع السابق ص ١٧٨ .

(١) المرجع السابق ص ١٧٨ .

وسبينوزا فيما يتعلق بحالة الطبيعة فى الوجود للمجتمع المدنى . كـــان يـــرى أن حالـــة الطبيعة هذه لم تكن على هذه الدرجة من السوء بل كانت على العكس مرحلة مثالية تسودها البساطة . ولم تكـــن تتمـــيز بالمساوىء . وإن هذه المساوىء ليست طبيعية فى الانســـان وإنمـــا جاءت نتيجة التقدم الحضارى والمدنى مما أدى إلـــى خلق الأثام والشرور . مما أشاع عدم الاطمئنان والأمن فى المجتمع - مما أدى إلى التعاقد الاجتماعى[1] .

ويؤكـــد روســـو علـــى ضـــرورة العودة إلى حالة الحرية والمساواة ، إلا أن هذه العودة بالصورة التى تتقبلها العادات التى ألفها الناس والتى تحكم تفاعلهم مع بعضهم ، ومن ثم يؤكد على ضـــرورة إقامة الحياة الاجتماعية على التعاقد الذى يتم بمقتضاه تحريـــر كل عضو فيه تحريراً تاماً وتسليمها للجماعة ، وبمجرد أن يقبل الانسان الدخـــول فى المجتمع ، فإنه بذلك يتنـــازل عن حريـــته الطبيعـــية والـــتى يستعوض بها عن حرياته المدنية من الحكومـــة ، وهـــنا يســـتطيع الانسان أن يجد فى المجتمع سمتى الحالة الطبيعية المتمثلتين فى المساواة والحرية[2] .

(١) نفس المرجع ص ١٧٨ .

(٢) فادية الجولانى ، مرجع سابق ص ١٧٩ .

ورأى روســـو أن قوة الدولة وسلطانها لا يمكن إلا أن تكون تعبيراً عن إرادة المجتمع مما أدى إلى قيام النظرية الديمقراطية بمعناها الحديث .

وما يتعلق بهذه النظريات الاقتراح الشعبى فيما تختص بأى تغيير فى الحكومة وضرورة الخضوع لرأى الأغلبية[١] .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٥ .

الفصل العاشر

علم الاجتماع فى العصر الحديث
نشأة علم الاجتماع وتطوره
أوجست كونت

- المرحلة المبكرة لعلم الاجتماع
- علم الاجتماع وموضوعه .
- الموقف النظرى لأوجست كونت .
- منهج علم الاجتماع .
- تقسيم علم الاجتماع :
  (أ) الاستكاتيكا الاجتماعية .
  (ب) الديناميكا الاجتماعية
- تقييم إسهامات أوجست كونت .

الفصل العاشر

علم الاجتماع فى العصر الحديث

نشأة علم الاجتماع وتطوره

بـدأ القرن التاسع عشر فى أعقاب ثلاث ثورات : الأولى الـثورة الأمريكـية التى كانت ثورة فى صورة تمرد وعصيان شـعب مسـتعمر ، والـتى انبثق من خلالها تكوين أول حكومة جمهوريـة فـى الأزمنة الحديثة ، والتى من خلالها تمثل أفكار المسـاواة والحـرية والسـعادة البشرية حجر الزاوية فى النسق الاجتماعى والسياسى ، والثانية الثورة الفرنسية التى تعتبر أكثر عنفا ، لأثرها السريع على الانساق السياسية لأوربا وأمريكا ، أما الثورة الثالثة فهى الثورة الصناعية التى إتجهت نحو تحول البناء الاجتماعى والاقتصادى فى أوربا وبقية أنحاء العالم ، وعمل تقدم العلـم والرياضـيات على تعجيل عملية إختراع الآلة لتحل محل العمل الانسانى لكى تزيد من الانتاج ، وبهذا حدثت تأثرات لقوى الانتاج الجديدة فى النسق الاجتماعى[1] .

فى ذلك الحين ، وضع " آدم سميث " أسس علم الاقتصاد ، والـذى عن طريقه يمكن تحليل عوامل الانتاج المعقده والتجارة والسوق ، على أساس مبادىء عقلية ثابتة ، وكان " سان سيمون" أول من عمـل على تعمـق النظرة فى المضامين الاجتماعيـة

---

(١) غريب سيد أحمد ، مرجع سابق ص ٢٣٣ .

والسياسية للتصنيع ، وكانت لأفكار سان سيمون أثرها فى أفكار أوجست كونت الذى نظر إلى المجتمع نظرة وضعية كان لها أثرها فى الفكر الاجتماعى .

ومن خلال آراء أوجست كونت أستطاع علم الاجتماع أن يقف فى وجه التغيرات السريعة التى لحقت بالمجتمع والتى تحتاج إلى علم يكتشف أسباب هذه التغيرات والنتائج المترتبة عليها(١) .

والواقع أن ظهور علم الاجتماع وتطوره كعلم مستقل للدراسة لم يقم حتى قرابة منتصف القرن التاسع عشر لأن ظهوره كعلم مثل العلوم الأخرى قد تشكل من خلال سلسلة من المحاولات المستمرة لتفسير العلاقات البشرية والسلوك .

ورغم وجود المحاولات التى تهدف إلى تحليل الحياة البشرية قبل قيام علم الاجتماع إلا إن هذه المحاولات كانت متركزة على التكامل بصفة أولية . وبذلك أعتبرت هذه المحاولات المبكرة الخلفية التى إرتكز عليها علم الاجتماع فى نشأته وتطوره كعلم يعنى بدراسة المجتمع .

ونشأ علم الاجتماع بعد أن صاغ العالم أوجست كونت مصطلح علم الاجتماع وتأسيس الاتجاه الوضعى السوسيولوجى الذى أرسى دعائمه كل من " سان سيمون "و" أوجست كونت "

---

(١) غريب سيد أحمد - تاريخ الفكر الاجتماعى ، مرجع سابق ص ٢٣٤ .

ومازالت المحاولات مستمرة لتفسير المجتمع والحياة الاجتماعية . وقــد ترتــب على ذلك تطور علم الاجتماع عبر خمس مراحل متمايزة تمثلت فى المرحلة المبكرة ، ومرحلة الرواد ، ومراحل المذاهــب المتــنازعةومرحلة نمــو الاتجاهــات العامة فى علم الاجتماع ثم علم الاجتماع المعاصر[١] .

(١) فادية الجولانى ، مرجع سابق ص ١٨٩ .

أوجست كونت

المرحلة المبكرة لعلم الاجتماع

وهى مرحلة الاتجاه الوضعى السوسيولوجى الذى ظهر فى فرنسا على يد " سان سيمون " وأوجست كونت ويتسم هذا الاتجاه بتناقض وجدانى نحو الاتجاه النفسى التقليدى لدى الطبقة الوسطى. وأصبح فى هذه الفترة علم الاجتماع يهتم بالمنظورات المتمايزة عن منظرات العلوم الأخرى التى تجعل منه نظاما تحليليا يتناول السلوك البشرى وجوانب الحياة الاجتماعية . وتتسم هذه المرحلة بتوسيع الدعاوى النفعية للطبقة الوسطى واهتمامهم بالمنفعة الجمعية مقابل المنفعية الفردية وبالحاجات الاجتماعية التى تحفظ له استقراره [1] .

وسوف نعرض لأعمال أوجست كونت بأعتباره من أكثر ممثلى هذه الفترة إسهاما فى بلورة الاتجاه الوضعى السوسيولوجى .

وهو أول من صاغ مصطلح علم الاجتماع وقد سعى لفصله عن الميتافيزيقيا والتأكيد على المناهج الموضوعية فى بحث الظاهرة الاجتماعية . كما قام بحصر المعارف الانسانية والتى حددها فى ست علوم مرتبة من حيث تعقيد تركيبها فى :

الرياضة ، الفلك ، الفيزياء ، الكيمياء ، البيولوجيا ، وعلم الاجتماع . ويستند كونت فى ترتيبه للعلوم على هذا النحو على

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٩ .

أســـاس أن العلوم البسيطة نشأت قبل العلوم المعقدة ولذلك يعتبر علم الاجتماع من أكثر العلوم تعقيدا[١] .

ويـــرى كونـــت أن تعقيد الظواهر التى تدرسها هذه العلوم يـــزداد كلمـــا انتقلنا من علم إلى العلم الذى يليه ، ولذا وجب أن تزداد الاساليب المنهجية اللازمة لدراسة ظواهر العلوم المختلفة بالانتقال من علم إلى آخر[٢] .

ونعرض اسهامات " اوجست كونت " فى هذه المرحلة . من حيث :

١- علم الاجتماع وموضوعه .

٢- الموقف النظرى لاوجست كونت .

٣- تقسيم علم الاجتماع .

٤- تقدير اسهامات " كونت " .

٥- منهج علم الاجتماع .

١ - علم الاجتماع وموضوعه :

وذهـــب أوجســـت كونت إلى ضرورة إنشاء علم الاجتماع لإعـــتقاده بأنـــه ســـوف يســـاهم فى إصلاح المجتمع البشرى . وتخليصـــه من صور الاضطراب التى عمتـــه وإعـــادة تنظيم

---

(١) فادية الجولانى ، مرجع سابق ص ١٨٩ .

(٢) عبد الباسط حسن - أصول البحث الاجتماعى ، مرجع سابق ص ٨٠ .

المجـــتمع ومن هنا أعتبر أوجست كونت علم الاجتماع هو الذى يضـــطلع بهذه المهمة . ويخلص التفكير فى شؤون المجتمع من الـــنزعات الثيولوجية والميتافيزيقية . وصبغه بالصبغة الوضعية لفهـــم ظواهـــر المجـــتمع ، بنفس الطريقة العلمية التى تفهم بها مخـــتلف الظواهر الكونية الأخرى عن طريق العلوم المتقدمة فى طريقة البحث والتفكير .

ولعلـــم الاجتماع موضوعه المتمثل فى المجتمع وهو يتصف بقابليته للتغير وبذلك يهتم علم الاجتماع بالجانب الدينامى للمجتمع بدراســـة قوانيـــن الحـــركة الاجتماعية التى تحكم عملية تطور الاجـــتماع الانســـانى وانـــتقاله مـــن حالة لأخرى ، كما إن علم الاجتماع يهتم بتناول أيضاً نظم المجتمع ووظائفها وهى فى حالة ثـــبات . وذلك لتحديد القوانين التى ما بين تلك النظم من ترابط وظـــيفى ، ويـــرى أن علم الاجتماع يهتم بدراسة جميع الظواهر التى تقع فى نطاق العلوم الأخرى[١] .

وقد حاول " كونت " فى " السياسة الوضعية " أن يدعم تعريفه الشكلى لعلم الاجتماع الذى أورده فى " الفلسفة الوضعية " ... ، ويوضح " كونت " أن علم الاجتماع لا يدرس العقل فى حد ذاته وإنمـــا يهـــتم بالنـــتائج المتراكمة والمتجمعة عن إستخدام العقل وممارسته[٢] .

---

(١) فادية الجولانى ، مرجع سابق ص ١٩٠ .

(٢) نيقولا تيماشيف : نظرية علم الاجتماع – مرجع سابق ص ٣٢ .

ولـــم يـــتخل كونت عن تصوره لعلم الاجتماع بوصفه علم نظرى للظواهر الاجتماعية ، فإن المحصلة الكلية لهذه الظواهر كمـــا يعـــرفها الآن تتمـــثل فى النتائج المتراكمة والمتجمعة عن اســـتخدام العقـــل وممارســـته ، ويشـــبه هذا التصزر للظاهرة الاجتماعـــية تصـــور علماء الاجتماع المعاصرين لمفهوم الثقافة الذين أخذوه من الانثروبولوجيا[١] .

وهكـــذا يـــتوج هذه العلوم علم جديد هو علم الاجتماع الذى يعتـــبر أكـــثر العلوم تعقيداً وتركيباً ، وهو علم يقوم على دراسة المجـــتمعات من الناحية الموضوعية والطبيعية ، ومن هنا يجب تطبيق الموضوعية على دراسة الظواهر الاجتماعية على أساس الملاحظـــة الموضـــوعية التى يمكن أن تنتهى بعلم الاجتماع إلى قوانين سوسيولوجية عامة تفسر الظواهر الاجتماعية .

لقد وضع أوجست كونت "علم الاجتماع" على خريطة العلم ، ليس فقط لمجرد إختراع المصطلح للعلم الذى يدرس المجتمع ، ولكن لأنـه الدراسـة العلمية الأولى للمجتمع ، بحيث يمكن الاهتمام بدراسة حقيقية موضوعية خالصة من خلال التزام ذلك بالوضعية، وفـــى هـــذا مـــزج كونت بين التجديد الفكرى ووضوح التصور والمعالجة الواسعة المدى للأفكار ، بحيث لا تجد نظيراً له يجمع هذه الخصائص فى تاريخ الفكر الاجتماعى[٢] .

---

(١) نيقولا تيماشيف – نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٣١ .

(٢) غريب سيد أحمد – تاريخ الفكر الاجتماعى ، مرجع سابق ص ٢٣٧ .

ومن ثم يرى أن جميع الظواهر البشرية بما فى ذلك ظواهر علــم الــنفس مـــا هى إلا ظواهر إجتماعية وهى تشير إلى أن الانســـانية تمثـــل الموضوع الأساسى لعـــلم الاجتمـــاع فى نظر " كونت "[١] .

٢- موقف كونت النظرى :

تأثـــر الموقـــف الـــنظرى لكونت بالاتجاه الوضعى وإيمانه بأهمـــية التطبـــيق السلمى للعلم والمعرفة لاكتمال المجتمع دون تعرضـــه لإعـــادة البـــناء وبذلـــك فهـــو يـــتخذ موقف الرفض للايدبولوجـــية الأشتراكية والأيدلوجية المادية وما ذلك إلا لإيمانه بأن المجتمع الإنسانى يعتمد على التنظيم ، ومن ثم اتخذ من علم الاجـــتماع وسيلته لتوفير المعرفة العلمية التى يستند إليها تنظيم المجتمع .

ولهـــذا اجـــتهد كونت لتوفير الاجراءات المنهجية الصحيحة التى يعتمد عليها علم الاجتماع فى توفير المعرفة الأمبريقية التى استطاع بها تقديم الحلول لمشكلات عصره [٢] .

٣- منهج علم الاجتماع :

كـــان " كونت " يعتقد أن مناقشة المناهج لا يمكن أن تنفصل عن دراسة الظواهر ، وهو الموضوع الذى تستخدم هذه المناهج فى

(١) فادية الجولانى ، مرجع سابق ص ١٩١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩١ .

بحثها[١] .

ويـــرى كونـــت أن المعـــرفة العلمـــية تستقى عن طريق أربعة إجراءات هى :

١- الملاحظة ٢- التجربة ٣- المقارنة .

٤- المنهج التاريخى [٢] .

ولكـــى تقـــف على حقيقة المنهج الوضعى لابد من الاشارة إلى قـــانون المراحل الثلاث الذى انتهى إليه أوجست كونت ، والذى اهـــتدى بفضـــله إلى وضع علم الاجتماع وما يلزمه من أساليب منهجـــية ، ويتلخص هذا القانون فى أن الانسانية مرت بمراحل ثلاث هى :

١- المرحلة الدينية ٢- المرحلة الميتافيزيقية

٣- المرحلة الوضعية[٣] .

أكـــد كونـــت على ضرورة اصطناع علم الاجتماع المنهج الوضعى . والذى يشير به إلى ضرورة تبعية المفهومات للوقائع

وجعـــل الظواهـــر الاجتماعـــية موضوعا للقوانين العامة . وكونت هنا لا يربط الوضعية بالتطبيق الرياضى وانما يؤكد على

(١) نيقولا تيماشيف - نظرية علم الاجتماع - مرجع سابق ص ٣٢ .

(٢) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ص ٣٢ .

(٣) عبد الباسط حسن - مرجع سابق ص ٧٨ .

إجراءات منهجية أساسية تتمثل فى الملاحظة والتجربة[1] .

وهو يؤكد على امكانية القيام بالملاحظة إذا ما وجهت عن طريق نظرية . أما التجربة فهى تشير للملاحظة المضبوطة المنظمة .

فى حين أن المقارنات على درجة كبيرة من الاهمية فى نظر كونت لعقد المقارنات بين المجتمعات الانسانية والحيوانية وبين نماذج من المجتمعات التى توجد فى فترة زمنية معينة وكذلك بين الفئات الاجتماعية فى مجتمع واحد ، وبالنسبة للمنهج التاريخى فهو يمثل البحث عن القوانين العامة للتغير المستمر فى الفكر الانسانى. وأدى استخدام المنهج التاريخى إلى قانون " المراحل الثلاثة " وهو أن البشر خلال محاولاتهم الدائمة لفهم وتفسير الكون الذى يحيط بهم قد مرو خلال مراحل ثلاث متتابعة وهى المرحلة التيولوجية " الدينية" والمرحلة الميتافيزيقية ثم المرحلة الوضعية .

٤ – تقسيم علم الاجتماع :

تأثر كونت فى تقسيمه لعلم الاجتماع بالعلوم الأخرى مثل الفيزياء والكيمياء حيث ذهب إلى إنه على نحو ما يتم دراسة الطاقات فى تلك العلوم من حيث توازنها ثم من حيث فاعليتها فإن ذلك ينسجم مع تقسيم الدراسة فى علم الاجتماع ، حيث تقتضى أن تتوزع بين الدراسات الاستاتيكية الاجتماعية للظواهر ، والدراسات الديناميكية للظواهر ، وقد صنف هذه الدراسات تحت الاستاتيكا الاجتماعية أو الاجتماع

---

(١) فادية الجولانى ، مرجع سابق ص ١٩١ .

الأســـتاتيكى . وهـــو الذى يهتم بدراسة الأحوال الثابتة للإحوال الاجتماعـــية وشـــروط وجـــود المجـــتمع فى حين أن الديناميكا الاجتماعـــية أو الاجتماع الديناميكى فيهتم بدراسة حركة المجتمع المســـتمرة وتتابع مراحل تطوره وتقدمه ، ويؤكد كونت على أن الـــنظام يمثل الحقيقة التى يعنى بها الاجتماع الأستاتيكى[١] . فى حين أن التقدم يمثل الحقيقة التى يعنى بها الاجتماع الديناميكى . وبذلـــك تكـــون الأســـتاتيكا عند كونت نظرية النظام القائم على الـــتوازن والاتساق بين الانسان والمجتمع فى حين أن الديناميكا تمثل نظرية التقدم الاجتماعي للمجتمع .

(أ) الأستكاتيكا الاجتماعية : الاتساق :

أن الحقيقة الاساسية فى النظام الاجتماعى تتمثل فى الاتساق العام ، وهو الارتباط الضرورى بين عناصر المجتمع ، ومع أن هذا الاتساق قائم فى جميع مجالات الحياة ، فإنه يصل إلى ذروته فى المجتمع الانسانى[٢] .

ويعد الاتساق العام بالنسبة لكونت الأساس الحقيقى للتضامن ، كمـــا يعد أساس تقسيم العمل الاجتماعى ، وهنا نلمح مقأبلة بين المجتمع والكائن فهنا وهناك يتم إنجاز وظائف معينة يترتب عليها وجود كائنات قائمة على التضامن[٣] .

(١) المرجع السابق ص ١٩٢ .

(٢) نيقولا نيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٣٧ .

(٣) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ص ٣٧ .

أن الاستاتيكا هى نظرية النظام الذى يشير إلى الانسجام والتوازن بين ظروف وجود الانسان فى المجتمع[١] .

ويمثل النظام الموضوع الرئيسى للدراسات الاستاتيكية وذلك لأن تلك الدراسات تهتم بتناول حالات التوازن والاتساق بين الانسان والمجتمع . وكما أن مصطلح الاستاتيكا أصبح غير مقبول من قبل المتخصصين فأصبح يتستخدم مصطلحات أخرى مثل البناء الاجتماعى[٢] .

ويقوم النظام الاجتماعى على أساس الاجتماع العام بين أعضاء المكونين للمجتمع ، كما أنه يؤكد على ناصية الاتساق العام الذى يعد أساس تحقيق التضامن وتقسيم العمل .

وعندما يزداد تقسيم العمل فى المجتمع أزداد المجتمع تعقيداً وهنا استخدم كونت مفهوم الوظائف التى تنجز فى المجتمع وحاول أن يقيسها على وظائف الكائن الحى إلا إنه أكد على ما بينها من فروق أساسية تتعلق بثبات الكائن الحى وتقدم المجتمع وإصلاحه القائم على أساس معطيات العلم الاجتماعى الوضعى[٣] .

كما أن كونت قام بدراسة العلاقة بين الفرد والمجتمع إلا إنه أعتبر الجماعة " الأسرة " الوحدة الاجتماعية الأساسية فى الدراسة السوسيولوجية . كما أنه أتخذ من المجتمع وحدته للتحليل[*]

(١) نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٣٧ .

(٢) فادية الجولانى ، مرجع سابق ص ١٩٣ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩٣ .

وانظر أيضا : نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ص ٣٨ .

فــى علم الاجتماع . وذلك لأن المجتمع وحده حية تتسم بالتعاون والتضــامن . كما أن التضامن الاجتماعى فى نظر كونت يعتمد علــى مــدى قــيام المســؤولين بتوجــيه نظم التربية والأسرة والسياســية فــى الدولــة لأنها النظم الأساسية التى يعتمد عليها إصلاح المجتمع ودعم تقدمه[١] .

(ب) الديناميكا الاجتماعية التطور والتقدم :

عــرض كونت الديناميكا الاجتماعية كتاريخ خلواً من أسماء الــرجال والشعوب ، وكان عمله فى هذا الصدد بمثابة اكتشاف نظام مجرد ، تتابع فيه التغيرات الكبرى فى الحضارات الانسانية ، ويــرى كونــت أنه ينبغى أن يصان التضامن ويحفظ من خلال الحركات ، وإلا فإن الحركة سوف تؤدى إلى انهيار وتفكك تأمين فى النسق الاجتماعى[٢] .

ولذلك فإنه لا يمكن أن يجرى تطور أو تقدم فى جانب واحد من جوانب الحياة الاجتماعية ، ولا يمكن أن يدرس فى حد ذاته ، ويــنهض هــذا التصــور على وجهات نظر " كونت " المنهجية العامة وفكرته عن الاتساق العام[٣] .

---

(١) انظر : نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٣٩ .

(٢) نيقولا تيماشيف مرجع سابق ص ٣٩ .

(٣) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ص ٣٧ .

والديناميكا الاجتماعية تبدأ بدراسة النمو فى حد ذاته ، ولكن قد ينشأ تساؤل عما إذا كان النمو مساويا للتقدم أو معادلا ويبدوا أن تـزايد السكان ونمو القدرات العقلية يوضح أن النمو فى هذه القدرات هو الأمر المهم [١] .

والـتطور أو النمو التقدمى لا يسير - فى رأى كونت - فى خـط مسـتقيم ، ذلك بالاضافة إلى التقلبات والذبذبات ، ويمكن تعديل سرعة التقدم بواسطة التدخل الانسانى .

واعـتقد كونـت أن التطور الاجتماعى ما هو إلا استمرار للـتقدم العـام الذى يبدأ من مملكة النبات ، فالسلسلة الاجتماعية الكـبرى تـتطابق مع سلسلة الكائنات الكبرى ، وليس مع تتابع المـراحل العمـرية لكائن عضوى بسيط ، ويعد هذا الافتراض عنصراً أساسياً فى نسق فكرى يؤكد التقدم المستمر [٢] .

وكما تدرس القوى فى الطبيعة والكيمياء أولاً بطريقة التعادل وثانياً بطريقة الحركة ، فيجب أن يقوم علم الاجتماع على شيئين :

١- التعادلـية التى تقوم على دراسة الشروط الثابتة لوجود المجتمع .

٢- الديناميكا التى تقوم على دراسة قوانين تطور المجتمع [٣] .

إن الفائدة العملية لعلم الاجتماع هى اكتشاف شروط التنظيم الاجتماعى من ناحيـة التعـادل الاجتماعى ومن ناحيـة الديناميكـا

(١) نيقولا تيماشيف - مرجع سابق ص ٣٦ .
(٢) نيقولا تيماشيف - مرجع سابق ص ٤٠ .
(٣) جاستون بوتول - تاريخ علم الاجتماع - مرجع سابق ص ٧٤ .

الاجتماعية اكتشاف قوانين التقدم والنظام يؤدى إلى التقدم دائماً ، والتقدم والنظام هما شعار السياسة الوضعية[١] .

يماثل مصطلح الديناميكا مصطلح التغير حالياً ، وفهم الدراسات الديناميكية عند كونت بتقدم المجتمع ومراحل تطوره وكان كونت يسعى للحفاظ على النظام الاجتماعى وتضامنه من خلال الحركات ، وإلا تفكك النسق الاجتماعى ، والتطور الاجتماعى فى نظرة بمثابة استمرار للتقدم الذى تحكمه مجموعة عامة من العوامل مثل تزايد السكان ونمو تقسيم العمل الاجتماعى[٢] .

ويحدد كونت تقدم الانسانية فى ضوء قانون الحالات الثلاثة حيث أن التفكير البشرى قد مر من الحالة التيولوجية ثم الميتافيزيقية ثم الحالة الوضعية . حيث كان الانسان فى الحالة الأولى يرجع كل شىء للفهم الدينى ومن ثم خضع تفسير الانسان لظواهر المجتمع لقوى خارجة عن نطاق الظاهرة نفسها مثل الشياطين والأرواح والالهه . وفى الحالة الميتافيزقية يفسر الانسان الظواهر على أساس تجريدى أى يردها لعلل أولية لا يستطيع أثباتها[٣] .

وفى الحالة الوضعية تفسر الظاهرة الاجتماعية بردها لقوانين تمثل الأسباب المباشرة التى تؤثر فيها وهو فى ذلك يرجع إلى تاريخ العلوم للتدليل على صدق الحالات الثلاث لتطور الفكر البشـــرى . كما أن كونت يؤكد على فهم تاريخ النظم وتطورها

---

(١)

(٢) فادية الجولانى ، مرجع سابق ص ١٩٤ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩٤ .

ولا يمكــن أن يــتم إلا بفهــم تاريخ التطور العقلى وقانون الحالات الثلاثة[1] .

وكونــت أقام أرتباطا واضحا بين الحالات العقلية ومراحل تقــدم حياة الانسان المادية وماتنطوى عليه من أشكال للوحدات الاجتماعــية وأنماط للنظام الاجتماعى بالاضافة إلى ما يسود كل منها من أشكال عامة للمشاعر السائدة فى كل منها .

ونوضح ذلك فيما يلى[2] :

الحالات العقلية	الحالة المادية	الوحدة الاجتماعية	النظام الاجتماعى	طابع المشاعر
اللاهوتية	عسكرية	الأسرة	منزلى	محبة
الميتافيزيقية	تشريعة	الدولة	جمعى	احترام
الوضعية	صناعية	الانسانية	عالمى	إحسان

٥ - تقييم اسهامات " كونت " :

كــان دعــوة أوجست كونت إلى استخدام المنهج العلمى فى دراســة المجــتمع ومطالبــته باتــباع أســاليب المنهج الطبيعى كالملاحظــة والتجربة ، ثم الاستعانة بالمنهج المقارن وبالطريقة التاريخــية الاجتماعــية ذات أثــر فعــال فى توجيه الدراسات الاجتماعية وجهة تجريبية امبريقية [3] .

(١) المرجع السابق ص ١٩٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٥ .

(٣) عبد الباسط حسن - مرجع سابق ص ٨٣ .

لم يستطيع أوجست كونت التحرر من أساليب التفكير الفلسفى حيث وضع القوانين والنظريات العامة ثم حاول أن يفسر على ضوئها حقائق الاجتماع ، وقد أرجع كونت تطور الظواهر الاجتماعية إلى تطور التفكير ، مع أن تطور التفكير ذاته ليس إلا مظهراً من مظاهر تطور المجتمع ولا يعتبر هو نفسه سبباً لهذا التطور[١] .

وقد قامت كثير من الأدلة والبراهين على خطأ كثير من قضايا كونت حيث أنه كان ميتافيزيقيا مفلسا ، حيث أنه قضى على إمكان قيام ميتافيزيقا وكان مفكراً دينياً مفلساً مع أنه اعتقد اعتقاداً جازماً بأن الدين واحد من دعامات المجتمع[٢] .

وقد أساء كونت إلى منهجه ببعده عن الاساليب العلمية التى وضعها ، وباعتماده على التفكير الفلسفى والأفكار القبلية التى كونها فى تفسيره لحقائق الاجتماع .

وقام كونت بتصنيف صور المعرفة . وحلل المناهج التى تساعد على انجازها . كما أنه أهتم بتحديد طبيعة المجتمع البشرى والقوانين والمبادىء ، بالأضافة إلى تحديده للمناهج المستخدمة فى دراسته للظاهرة الاجتماعية . كما قام بتأليف "الفلسفة الوضعية " إذ تتضمن هنا العمل صياغته لنظريته عن المراحل الثلاث التى تنمو خلالها المعرفة البشرية . وحيث قرر فيها أيضاً أن الظواهر الاجتماعية شأنها شأن الظواهر الطبيعية . يمكن دراستها موضوعياً باستخدام المنهج الوضعى .

---

(١) عبد الباسط حسن ، مرجع سابق ص ٨٣ .

(٢) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ص ٤٤ .

وإن كانت الكتابات المعاصرة لكونت لا تعطى تقديراً يناسب حجم اسهاماته فذلك يرجع لاعتقاد البعض أنه قد أهتم أساساً بوضع برامج لعلم الاجتماع . وذلك لا يقلل من دور كونت ومعطيات تحليله لقضايا أساسية تتعلق بالجماعات الاجتماعية والثقافة والبناء الاجتماعى والتغيربالاضافة إلى الاسهامات المنهجية (١) .

هذا بالاضافة إلى ما يتعلق بتعريف علم الاجتماع وتحديد أقسامه الأساسية . كما إن ظهور المذاهب المتقابلة فى المراحل الثانية من تطور علم الاجتماع أتخذ من عمل كونت منطلقاته الأساسية رغم ما بينها من تقابل .

ثم جاء التفكير السوسيولوجى فى المرحلة الثالثة وهى المرحلة الكلاسيكية تأكيداً لبعض أفكار أوجست كونت . وأيضاً ظهور المفاهيم الأساسية التى استخدمها كونت وذلك مثل مصطلحات الأستاتيكى الذى يقابلها مصطلح البناء الاجتماعى والديناميكا الذى يقابله حاليا مصطلح التغير .

كما أكد كونت على أثر العامل الفكرى على عملية التغير وأكد أيضاً على استخدام معطيات التاريخ . لفهم التطور الاجتماعى . كما أكد على الغائية الاجتماعية التى تقوم على العمل السياسى القائم على المعرفة الوضعية للتعجيل بالتقدم(٢) .

---

(١) فادية الجولانى - مرجع سابق ص ١٦٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٥ .

وقــد ظلــت أفكــار كونت توجه الاتجاهات الفكرية خلال مــراحل تطــور علم الاجتماع فأخذ عنه سبنسر فكرة التطورية وأيضاً فكرة العامل الواحد وفكرة العامل المسيطر فى التغير كما أخــذ عــنه " لســتروارد " فكــرة الغائية الاجتماعية وأخذ عنه المعاصــرون العديد من الأفكار المتعلقة بالثقافة والنظرة الشاملة وعــدم فصل الأجزاء الاجتماعية بغرض التحليل وذلك ما يتفق مع مدخل النسق الاجتماعى(١) .

ويتبيــن لنا من عرض أفكار أوجست كونت أنه قدم نموذجاً طبيعــياً للــنظام الاجــتماعى هــو نظام إجتماعى يعمل بطريقة ديناميكــية من أجل التقدم إلى أطوار معينة محددة مسبقاً ... ، إن آراء كونــت تمــثل القاعدة التى قام عليها كل من علم الاجتماع المعاصــر والــنظرية الاجتماعــية ... ، ولقد كان تصور كونت للمجتمع هو الأساس الذى قام عليه علم الاجتماع(٢) .

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٦ .

(٢) جراهام كينلوتش تمهيد فى النظرية الاجتماعية ، ترجمة محمد سعيد فرح ، مرجع سابق ص ٨٨ .

الفصل الحادى عشر

كارل ماركس

- خلفية تاريخية .
- أهم مؤلفات ماركس .
- علم الاجتماع وقضاياه .
- ماركس والظاهرة الاجتماعية .
- الحتمية الاقتصادية .
- الطبقات الاجتماعية .
- منهج البحث الاجتماعى .
- النقد الذى وجه إلى النظرية الماركسية .

الفصل الحادى عشر

كارل ماركس (٨١٨ – ١٨٨٣)

يـزداد فـى وقتـنا الحاضر الاهتمام بأفكار ماركس وبنقد وتحليل كتاباته بأعتبار أنها تطرح على علم إجتماع له طابع مميز، وله مضمونه ومنهجه الخاص الذى يتعين دراسته والافاده منه ، أن ماركس لم يخصص كتاباً مستقلا يحمل عنوان علم الاجتماع ، ولكـن على الرغم من ذك ، فإن كتاباته التى تصنف اصطلاحاً على أنها تنتمى إلى ميدان الاقتصاد أو السياسة أو الفلسفة ، تمثل محاولة منظمة لإقامة علم المجتمع ، إن الصعوبة التى تواجه كل من حاول التعرف على أبعاد نظرية ماركس فى علم الاجتماع ، تتمثل فى أن عليه أن يجمع أفكاره من مختلف كتاباته وأن يقدمها فى اطار نظرى متكامل[١] .

خلفية تاريخية :

ولد ماركس فى مدينة تريف ١٨١٨ فى القطاع الالمانى من حوض الراين ببروسيا من أسرة يهودية ،[٢] وكان أبوه يحفظ عن ظهر قلب كلمات فولتير ورسو ، ويقتبس عن كانط مبدأ : " سياد الشخص وحق جميع أفراد الأمة فى تسيير شئون الدولة " ... ،

---

(١) محمد على محمد – تاريخ علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٤٩ .

(٢) جاستون بوتول ، تاريخ علم الاجتماع – مرجع سابق ص ٨٠ .

والتحق ماركس بكلية الحقوق ببرلين عام ١٨٣٧ وتأثر فيها "بكارل فون سافينى" صاحب المذهب التاريخى فى القانون ، كما تأثر بالأستاذ "جانس" الذى كان هيجلياً ثم تأثر بفلسفة "هيجل وفوير باخ"[١].

وهجر ماركس دراسة القانون وكرس نفسه لدراسة الفلسفة ... ، وتعلم اللغة الفرنسية عن طريق قراءة المؤلفات للمفكرين الاشتراكيين أمثال " فوربيه " " وبرودن " وقرأ التاريخ الالمانى والفرنسى الحديث ... ، وفى عام ١٨٤٣ تزوج ماركس ... ، وكانت زوجته تتمتع بخيال عاطفى عميق ، وقد كرست وجودها كله لحياته وعمله واندمجت فيه عاطفيا وأخلاقيا ، وهاجر معها إلى باريس حيث تجد ماركس متسعا لنشر مبادئه وأفكاره[٢] .

لقد عاش ماركس أوضاعا اقتصادي واجتماعية متقلبة ، حافلة بالثورات ، وعاش بين أكثر من مدينة وعاصمة أوروبية ، الأمر الذى وسع نطاق مسرح ملاحظاته ، وهو وان كان قد نشأ نشأة برجوازية .. ، ولكنه عاش فقيراً عانت إسرته من الفاقة والبؤس ...، ويتميز كارل ماركس " عن معاصريه بالتحرر من الاوضاع الاقتصادية والفكرة السائدة ، فالدرب الذى يقوده إلى المادية التاريخية – لب علم الاجتماع وموضوعه الأساسى – يمر عبر تجاوز جدل " هيجل " ومادية " فيورباخ " وفى كل هذا

---

(١) غريب سيد أحمد – تاريخ علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٢٥٢ .

(٢) جاستون بوتول ، مرجع سابق ص ٨٢ .

يسلك ماركس سبلا أصيلة تؤكد عبقريته ، أن تطور ماركس الفكرى سار جنبا مع جنب مع تطوره السياسى الذى قاده من الديموقراطية الثورية إلى الاشتراكية ، فهو من الناحية الفكرية ، قد أفاد من الفلسفة الالمانية المثالية والاقتصاد السياسى الانجليزى والاشتراكية الفرنسية ... «[1] .

ويعتقد ماركس كما ذهب الفلاسفة من قبله أن قوى الانسان الجوهرية غير محدوده فى قدرته على التطور ، فهو قادر على الوصول لأعلى درجات الابداع من ناحية الفكر والعمل ، وهذا هو التصور الكامن الذى يؤكد عليه ماركس فى تقييم الانساق الاجتماعية ، فلقد ذهب أن مفهوم الانسان الطبيعى ليس مثلما ذهب روسو ، ولكن عن طريق نقده للنظام الرأسمالى ، وذلك لأنه يأمل فى الوصول إلى مجتمع إنسانى حقيقى ، ومن الواضح أن ماركس يرى أن الانسان كما ينبغى أن يكون هو مقياس الوجود الاجتماعي ، ويمكن إعتبار وجهة نظر ماركس نظرية للانسان والمجتمع والتاريخ .

ومن أهم مؤلفات كارس ماركس :

١- الفرق فى فلسفة الطبيعة بين ديموقريطس وأبيقور(١٨٤١) .

٢- نقد فلسفة القانون عند هيجل (١٨٤٤) .

---

(١) غريب سيد أحمد - مرجع سابق ص ٢٥٣ .

٣- الاقتصاد السياسى والفلسفة (١٨٤٣-١٨٤٤) .

٤- المسألة اليهودية (١٨٤٤) .

٥- العائلة المقدسة (١٨٤٤) .

٦- الايديولوجية الالمانية (١٨٤٦) .

٧- العمل المأجور ورأس المال (١٨٤٨) .

٨- بيان الحزب الشيوعى (١٨٤٨) .

٩- مشاركة فى انتقاد الاقتصاد السياسى .

١٠- رأس المال[١] .

ولقــد تأثــر ماركس بالفلسفة المنطقية للفيلسوف " هيجل" وبالفلاســفة الانجلــيز الكلاســيكيين ، ولذلك فلقد استند إلى أن التاريخ لا يمكن أن ينشأ عن طريق حوادث استبدادية مستقلة عن إرادة الانســان ، بل هو خاضع لارادة تحددها دوافع ، وتتطور الصــور الاجتماعــية تــبعا لــبعض القوانين ، وبالوقوف على هــذه القوانين ، فإن ذلك يعنى فى الوقت نفسه تلمس هذا التطور والتكهن بالمستقبل ، وحتى يومنا هذا يعتبر التاريخ جمعيه تاريخ صراع الطبقات[٢] .

---

(١) غريب سيد أحمد — مرجع سابق ص ٢٥٣ .

(٢) جاستون بوتول — تاريخ علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٨٢ .

علم الاجتماع وقضاياه :

رفض كارس ماركس استخدام تسمية " علم الاجتماع " فى واحد من كتاباته ، وفضل أن يطلق على هذا النوع من الدراسة مصطلح " علم المجتمع " وقد يرجع ذلك إلى كراهيته للفلسفة الوضعية التى روج لها " أوجست كونت " والذى أعطى لهذا العلم اسمه ، والذى رفضه لما إنطوت عليه هذه الفلسفة من آراء وذلك بعد دراسته لها دراسة نقدية ، وإدانتها بأنها نوع من التفكير الذى يغلب عليه الروح اللاهوتية والنزعة التنبؤية .

أن المهمة التى على علم الاجتماع أن يطلع بها فى رأى ماركس تتمثل فى رسالة قوامها إثبات الطابع الانسانى والاجتماعى للمجتمع ، أن ماركس يعتبر علم الاجتماع حلقة إتصال بين العلوم الطبيعية والعلوم المهتمة بدراسة الانسان ... ، ومن يتفحص كتاباته يجده يعرض للعديد من الموضوعات والقضايا التى على عالم الاجتماع أن يتطرق إليها بالبحث والتفسير والدراسة(١) .

أن تصور ماركس بعلم المجتمع يستند إلى مسلمات مختلفة عن تلك التى وضعها أوجست كونت ، ويمكن فى هذا الصدد الاستعانة بما يقوله " رايت ميلز " : " إذا كان علماء الاجتماع يدرسون تفاصيل وحدات اجتماعية صغرى ، فإن ماركس يدرس هذه التفاصيل على مستوى بناء المجتمع فى كليته ، وإذا كان علماء الاجتماع الذين لا يعرفون من التاريخ الا القليل يدرسون

---

(١) غريب سيد أحمد - مرجع سابق ص ٢٥٦ .

الاتجاهـــات القصـــيرة المدى ، فإن ماركس يأخذ الحقبة بأكملها باعتبارها وحدة الدراسة مستخدما فى ذلك المواد التاريخية بقدرة خلابة ، وإذا كانت قيم علماء الاجتماع عموما قد أدت بهم إلى أن يتصوروا مجتمعهم فى صورة متفائلة باسمه ، فإن قيم ماركس قد دفعـــته إلـــى أن يديـــن المجتمع فى جذوره وفروعه ، وعلماء الاجـــتماع الذين ينظرون إلى مشاكل المجتمع باعتبارها مظاهر للـــتفكك فقـــط يختلفون عن ماركس الذى نظر إلى هذه المشاكل بوصـــفها متناقضات فطر عليها البناء القائم لهذا المجتمع ، وإذا كنا نجد أن علماء الاجتماع ينظرون إلى مجتمعهم باعتباره يسير فـــى طـــريق تطـــورى دون انهيارات كمية تصيب بناؤه ، فإن مـــاركس يرى فى مستقبل هذا المجتمع إنهيارا كيفيا أى صورة جديـــدة للمجـــتمع ، أو حقـــبة تاريخية جديدة تستمر عن طريق الثورة(١) .

ماركس والظاهرة الاجتماعية :

إن علم الاجتماع عند ماركس أكد الصفات النوعية للظاهرة الاجتماعـــية بقوله : " ليس شعور الانسان وحده هو الذى يحدد وجوده ، ولكن على العكس إن وجوده الاجتماعي هو الذى يحدد شـــعوره " ، وقـــد أوضـــح فى كتابه " رأس المال " أن الانتاج والتبادل والسلع هى فى أساسها أشـــياء اجتماعية ، ومن الحقائق

---

(١) محمد على محمد – مرع سابق ص ٥٨ ، ٥٩.

الــتى يراها " ماركس " عن صفات الظاهرة الاجتماعية هى صــفة الالزام ، فقد أشار إلى أن الناس أثناء إنتاجهم الاجتماعى يدخلــون فـــى علاقـــات محددة ، وهذه العلاقات يدخلونها ضد رغبتهم ، ولكنهم مضطرون إلى الدخول فيها[1] .

وفـــى هـــذا الـــتقاء بين " ماركس " و " دوركيم " ، فقد أكد الأخـــير علـــى صفة " الالتزام " فى الظاهرة الاجتماعية كصفة أساسية فيها ، ولقد بنى ماركس تحليله للظواهر الاجتماعية على الظروف المادية بدلاً من التركيز على القوى الروحية أو المثالية ، ومـــن هنا أصبح من اليسير تعريف الظاهرة الاجتماعية بطريقة يصـــبح أخضـــاعها للدراسة العلمية ممكنا ، وليس معنى ذلك أن مـــاركس يـــنكر الانتاج الروحى والقوى الروحية تماماً ، بل أن الانتاج المادى والروحى يتداخلان فى النشاط الاجتماعى الكلى ، وأن انـــتاج الأفكـــار والتصورات والوعى ، انما هو فى المقام الأول متضمن فى النشاط وفى التعامل المادى بين الأفراد ..

وإذا كانـــت مهمـــة علـــم الاجتماع عند أوجست كونت هى الضـــبط فـــان العلـــم لـــدى ماركس لم يكتفى بالرصد والتحليل والوصـــف والتفســـير ، بل يتعدى كل هذا ويتجاوزه لأنه يشمل أيضـــا التغيـــير ... ، وإذا كـــان أوجست كونت كان غامضا فى تحلـــيله لمكونات البناء الاجتماعى والمجتمع ، فإن ماركس كان أكثر وضوحاً عنـــدما حدد المجتمع وبنـــائه كجمـــاع عضـــوى

---

(١) غريب سيد أحمد ، مرجع سابق ص ٢٥٨ .

للعلاقات بين الناس ، وفى الوقت الذى وجد فيه كونت جوهر الظاهرة الاجتماعية فى الأسرة وأخيراً فى الدين ، فإن ماركس وجد ذلك فى تحليل البناء الاقتصادى للمجتمع ، أو أساسه المادى ، وهذا هو الفرق بينهما فى تحليل وتفسير الوجود الاجتماعى[1] .

الحتمية الاقتصادية :

كانت فلسفة ماركس مادية ، والمادية تشكل أساس علم الاجتماع عنده ، والمادة فى رأى ماركس هى التى توجد فقط ، أما " الوعى أوالشعور" فظاهرة لاحقة وهى مظهر الحركة فى خلايا المخ .

ويمكن رد الماركسية بوصفها نظرية سوسيولوجية إلى مسلمتين أساسيتين هما :

أما أولى المسلمات فإنها تنتمى إلى النزعة الحتمية الاقتصادية التى تذهب إلى أن العامل الاقتصادى هو المحدد الأساسى لبناء المجتمع وتطوره ، هذا العامل يتكون أساساً من الوسائل التكنولوجية للانتاج يحدد التنظيم الاجتماعى للانتاج ، الذى يعنى العلاقات التى ينبغى على الناس أن يدخلوا فيها ، أو هم يدخلون فيها بالفعل لانتاج السلع بطريقة أكثر كفاءة ، مما لو عملوا منعزلين ، وتنمو هذه العلاقات - فى رأى ماركس -

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥٩ .

مستقلة عن الارادة الانسانية ، بل أن تنظيم الانتاج (الذى يسميه ماركس البناء الاقتصادى للمجتمع) لا يحدد فقط البناء الفوقى الكلى ، بل هو يشكله أى أنه يشكل التنظيم السياسى والقانونى والدين والفلسفة والآداب والعلم والأخلاق ذاتها[١] .

وتتصل المسلمة الثانية فى علم الاجتماع الماركسى بميكانزمات التغير الذى ينبغى أن يفهم - وفقا لهذه النظرة - فى ضوء المراحل الثلاث الازلية ، وذلك هو الاطار الجدلى الذى استعاره ماركس من الفيلسوف الالمانى " جورج هيجل " فكل شىء فى العالم بما فى ذلك المجتمع يمر - وفقا لضرورة جدلية - خلال مراحل ثلاثة هى : الاثبات أو الموضوع ، والنفى أو نقيض الموضوع ، ثم تصالح الاضداد أو مركب الموضوع ، وتستمر العملية الجدلية عند هذا المستوى بصراعات جديدة وتوافقات جديدة تسم العملية التاريخية دائما[٢] .

وإذا ما ركبنا المسلمتين الاساسيتين لماركس معا ، خرجنا ببعض النتائج اللاحقة ، فكل نسق من الانتاج الاقتصادى يبدأ بحاله الاثبات حيث يكون أكثر النظم الممكنة كفاءة فى ذلك الوقت ، لكنه متى عزز إجتماعيا يصبح عقبه أمام تطبيق الاختراعات التكنولوجية والافادة من الأسواق الحديثة والمواد

---

(١) نيقولاتيماشيف ، مرجع سابق ص ٧٥ .

(٢) نيقولاتيماشيف ، مرجع سابق ص ٧٦ .

الخـــام ، ولا يمكن للتطور التاريخى أن يقف عد هذه المرحلة ، فالـــنظام المعـــزز اجتماعـــياً ينبغى القضاء عليه بواسطة ثورة إجتماعية تخلق نظاماً جديداً للانتاج مركب من القديم والجديد(١) .

الطبقات الاجتماعية :

تمـــثل نظـــرية الطبقات الاجتماعية مكانه أساسية فى أعمال مـــاركس ، وقـــد أحدثت معالجته لهذا الموضوع أثر كبير على الفكر الاجتماعى الحديث بأكمله . حيث أن ماركس قد افلح على نحـــو مـــا ذهب إليه " نيسبت " فى أن " يقدم لنا صورة للمجتمع الحديـــث باعتـــيار أنـــه يســـتند إلـــى واقع طبقى متماسك ، إن الصراعات والتناقضات التى نشأت بين الناس بحكم تباين مكانتهم فـــى المجتمع قد نبهت عدداً من المفكرين قبل ماركس إلى وجود طبقات اجتماعية مختلفة ، وإلى صراع ينشأ بين هذه الطبقات(٢) .

وتوجـــد طبقـــتان رئيسيتان فى أى مجتمع من المجتمعات ، تمـــثل أحدهما نظام الانتاج البائد ، بينما تمثل الثانية النظام الأخذ فـــى التكوين ، والصراع الطبقى هو الوسيلة التى تنقل المجتمع مـــن مرحلة إلى أخرى ، وتنتصر فى النهاية الطبقة الصاعدة أو المنبـــثقة فـــى هذا الصراع ، وتشيد نظاماً جديداً للانتاج يحمل بـــدوره فـــى داخلـــه بذور دماره والقضاء عليه لتستمر العملية الديالكتيلية من جديد (٣) .

(١) نيقولاتيماشيف ، مرجع سابق ص ٧٦ .
(٢) نيقو٧ تيماشيف ، المرجع السابق ص ٧٦ .
(٣) المرجع السابق ص ٧٦ .

وقد استخدم ماركس وأتباعه هذا الاطار الجدلى فى تحليل المجتمع الغربى المعاصر (المجتمع الرأسمالى) وذكروا أن التنظيم الاجتماعى للانتاج فى هذا المجتمع الذى واكب الثورة الصناعية يتجلى فى وجود طبقتين هما : الأولى : الطبقة البرجوازية أو الماكه لوسائل الانتاج ، والثانية : طبقة البروليتاريا أو العمال ، والصراع بينهما حتمى لا مفر منه ، وسوف يؤدى من خلال الوعى الطبقى والعمل العسكرى الطبقى إلى تدمير النظام لاحلال النظام الاشتراكى الذى يتميز بالملكية الجماعية لوسائل الانتاج ، ويسلم فى النهاية لمجتمع بلا طبقات ولا دولة ، وذلك هدف طوباوى تطلع إليه مفكرون سابقون على ماركس ونعت اشتراكيتهم بأنها غير علمية[١] .

وفى ضوء ذلك عرف ماركس الطبقة الاجتماعية بأنها " تجمع من الأشخاص يؤدون نفس الوظيفة فى عملية تنظيم الانتاج، فالأحرار والعبيد ، والسيد والخادم ، أو بعبارة أخرى المستغل والمستغل ، هى كلها مسميات لطبقات اجتماعية فى عصور مختلفة ، وتتميز الطبقات أحداها عن الأخرى باختلاف الوضع الذى تشغله تاريخيا فى عملية الانتاج الاجتماعى ، ويرجع ذلك أساسا إلى الحقيقة التى مؤداها : أن العمل هو صورة الانسان الأساسية لتحقيق الذات ، فلا يمكن للانسان أن يحيا بدون عمل ، ومن ثم يعد الأسلوب الذى يعمل به الانسان بمثابة الدليل على الطبيعة البشرية[١] .

(١) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ص ٧٧ .

(٢) محمد على محمد — تاريخ علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٨٠ .

منهج البحث الاجتماعى :

إن المناهج والأدوات البحثية التى استخدمها ماركس فى كتاباته ، أول ما يبرز فيها الاهتمام بالتاريخ وفلسفته وضرورة إعادة كتابه " التاريخ اجتماعياً "أن الدراسات التاريخية فى علم الاجتماع تمثل دفعة قوية نحو مزيد من التكامل المنهجى والنظرى الذى يضفى على ذلك العلم المزيد من الملامح التى تؤكد أهميته وقدرته على الوصول إلى تعميمات وقوانين علمية ، هذا بالاضافة إلى أن علم الاجتماع الماركسى لم ينكر أهمية دور الفلسفة فى تعميق وأصالة الفكر الاجتماعى بتوجيهه نحو الجذور الثابتة الراسخة ، ومن ثم قام العلم لديه على أصول فلسفية عميقة ففى كتاب " رأس المال " نجد المنهج التاريخى المقارن ، وقد استخدم ماركس أيضا المنهج الأحصائى استخداماً واسعاً ، وقد لجأ زميل الكفاح " فريدريك انجلز " إلى استخدام المنهج الاثنوجرافى فى دراسته عن " أصل الأسرة والملكية الخاصة وملكية الدولة " ... ، وقد استخدم فى كتابه عن " العمل المأجور ورأس المال " ١٨٤٧ " إستبياناً " طبقة على مجموعة من العمال ، وبذلك لم يفصل " ماركس " بين النظرية والتطبيق ، وهذا ما يضيف بعداً آخر إلى فكر " ماركس " الاجتماعى [1] . ،

كما أن ماركس قد استخدم أيضا المنهج الأحصائى والامبريقى عندما اشترك فى اجراء استفتاء للعمال فى فرنسا استخدم فيه الاستخيار الذى استعان فى تطبيقه بالصحف

---

(١) غريب سيد أحمد — مرجع سابق ص ٢٦٠ .

الفرنسية[١] .

نقد النظرية الماركسية :

تعرضت النظرية الماركسية لأوجه نقد عديدة منها :

١- الارتباطات الصارمة بين الأساس الاقتصادى للمجتمع وبين البناء الفوقى ، وربما كان الأمر على النقيض من ذلك ، فقد إتضح أن نفس النسق الاقتصادى الرأسمالى يتعايش مع نظم سياسية مختلفة كالملكية المطلقة والديموقراطية ، كما أنه خلال سيطرة النظام الرأسمالى ، ظهرت اتجاهات متباينة جداً للفنون والفلسفة وغيرها من الظواهر الثقافية .

٢- ومن خلال المنظور التاريخى يلاحظ : أن التغير من نموذج معين للتنظيم الاجتماعى للانتاج إلى نموذج أخر ، ليس بالضرورة نتيجة لانتصار الطبقة المقهورة والمستقلة ، حيث يوضح التاريخ الأوربى أن الطبقة البرجوازية الصغيرة القوية هى التى قضت على النظام الاقطاعى .

٣- أن تنبؤات ماركس عن زوال الطبقة المتوسطة والانتصار النهائى للاشتراكية فى أكثر الأمم تقدما وتصنيعاً (ومن ثم تضم أكثر البروليتاريا تقدما) فقد ناقضتها الأحداث التاريخية الفعلية[٢] .

(١) غريب سيد أحمد ، مرجع سابق ص ٢٦٠ .

(٢) نيقولا تيماشيف — نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٧٧ .

إلا أن كل ذلك لا ينتقص من الأهمية السوسيولوجية للنظرية الماركسية حيث أنها نظرية تطورية ظهرت بعد خمس وعشرين عاماً من اكتشاف كونت العظيم ، وظهرت قبل أن ينشر " سبنسر " مؤلفه " المبادىء الأولى بخمسة وعشرين عاماً ، وأن النظرية السوسيولوجية الماركسية تستطيع أن تنهض مستقلة عن مقدماتها الفلسفية على أساس الدراسة الامبريقية ، بالاضافة إلى أنها تضمنت أفكاراً عديدة حول مجالات المشاكل الاجتماعية والنفسية، وتعد ظاهرة الاغتراب واحدة من أكثر المشاكل أهمية ، وكذلك فإن للفكر الماركسي أهمية فى مجال تطور علم الاجتماع ، بوصفه محاولة لاقامة نظرية منظمة عن البناء الاجتماعى والتغير الاجتماعى ، وتعد أقوى نظرية تؤكد العامل الوحيد المحدد للتغير الاجتماعى[١] .

---

(١) نيقولا تيماشيف – المرجع السابق ص ٧٨ .

الفصل الثانى عشر

هربرت سبنسر

- الجذور الاجتماعية .
- الأهداف .
- الافتراضات الأساسية .
- المنهج .

القضايا الأساسية .

الفصل الثانى عشر

هربرت سبنسر ١٨٢٠-١٩٠٣

الجذور الاجتماعية والسياسية لفكر سبنسر :

يعتبر سبنسر إبنا متمرداً ومنشقا عن الكنيسة ، تلقى سبنسر تعلـيماً كلاسيكيا فى محيط أسرته ، بدأ نشاطه العلمى فى مجال تصـميم الات السـكك الحديديـة ، ثم عمل فى الصحافة وشغل منصـب رئيس التحرير فى مجلة الايكونوميست ، وعايش تأثر المجـتمع الانجلـيزى بالثورة الصناعية والتضخم الاقتصادى ، وفسـر هذه التغيرات من خلال منظور " الداروينية الاجتماعية " ونظـرية سبنسـر إلـى حد كبير تقترب من " النمط العضوى " **مماثلة لنظرية كونت عن تقسيم المجتمع إلى الأستاتيكا الاجتماعية والديناميكا الاجتماعية**[١] .

أهداف سبنسر :

كـان الاهتمام الأكبر لسبنسر تتبع عملية التطور الاجتماعى الـتى تحدث فى المجتمع سواء أكان التطور تاريخيا أو إجتماعيا مـن أجـل تفسـير التجانس الاجتماعى ، ولا غرابة فى تطبيق سبنسر لمبـدأ النظرية التطورية على دراسـة المجتمع نظـراً لتوحـيده الشديد بفكر داروين ، وبتأثر النظرية التطورية طبقت فكرة المماثلة العضوية على المجتمع تطبيقا مباشراً ، وأصبح فهم

(١) نقلا عن : جراهام كنيلوتش : تمهيد فى النظرية الاجتماعية — مرجع سابق ص ٩٠ وما بعدها .

التطور العضوى ضروريا للسيطرة على المجتمع وبكيفية تؤدى إلى أرتباط وثيق بين حاجات الفرد وحاجات المجتمع وكما حدث عـند كونت نجد سبنسر يقدم نموذجا عضويا تطوريا عمليا عن المجتمع يقوم على الحاجات الاجتماعية الأساسية[١] .

وقد اعتمد سبنسر على المماثلة بين المجتمع والكائن الحى ، ثـم المماثلة بين التطور الاجتماعى والتطور البيولوجى (اختيار الأصلح) وقد قطع شوطا كبيرا فى هذا قبل أن ينشر " داروين " كـتابه عـن أصل الأنواع ، وصور سبنسر للناس نظاما طبيعيا متجانسا يسود الطبيعة كما يسود المجتمع[٢] .

الافتراضات الأساسية لسبنسر :

١- اقتداء بتقاليد العصر الفيكتورى ، رأى سبنسر الكون فى حالة دائمة من التطور والتفكك وأكد أن مهمة علم الاجتماع تتبع تطورهاتين العمليتين فى المجتمع .

٢- أفترض سبنسر أن التطور عملية كونية عامة شاملة أى أنـه يمكن تطبيق قوانين الطبيعة تطبيقيا عاما على كل ما يوجد فى الكون من ظواهرطبيعية واجتماعية واجتماعية وهكذا فاطار عمله الأساسى هو مبدأ التطور الطبيعى الشامل[٣] .

وبلور سبنسر المماثلة بين المجتمع والكائن الحى حيث ينتظم المجتمع على نفس نسق الفرد أو على غراره تماما[٤] .

---

(١) المرجع السابق ص ٩٠ .

(٢) محمـد الجوهـرى - علم الاجتماع ، النظرية الموضوع ، المنهج ، مرجع سابق ص ٥٣ .

(٣) جراهام كينلوتش - مرجع سابق ص ٩٠ .

(٤) نيقولا تيماشيف - مرجع سابق ص ٥٦ .

٣- أمـــا فـــى مجال علم الاجتماع فقد رأى سبنسر المجتمع باعتباراً كلا عضوياً متطوراً وأن هذا الكل يغاير مجموع أجزائه المكونـــة له ، ولا يخضـــع هذا الكل إلى تشريح شامل ، إذ أن العلاقات بين أجزاء الكل تماثل تلك العلاقات الوظيفية ، والكفيلة باستمرار الحياة فى الكائنات الحية وإستناداً على هذه الطريقة فى تفســير المجــتمع يمكـــن أن نقول أن سبنسر كان رائداً للنزعة البنائية الوظيفية المعاصرة .

٤- وكمـــا فعـــل كونـــت قسم سبنسر المجتمع إلى جزئين أساســين الأســتاتيكا الاجتماعـــية والديناميـــكا الاجتماعية وفهم الأستاتيكا الاجتماعية بأعتبارها البناء التنظيمى للمجتمع والانساق الاجتماعـــية ، بيـــنما تعـــنى الديناميكا الاجتماعية عنده التطور المستمر لبناء المجتمع ..

٥ - رأى سبنســـر أن نظم المجتمع الكبرى تتكون من نظام الأســـرة والـــنظام الشـــعائرى والنظام السياسى والنظام الكنسى والنظام المهنى ورأى سبنسر أن بناء المجتمع يتطور من النسق البدائى وتعدد الزوجات والنظام العسكرى والقبلى والعبودية إلى مجتمع يقوم على نظام الزواج الأحادى والدولة والأعمال المهنية ونظام العمل المأجور .

٦- قســم سبنسر المجتمع إلى نسقين كبيرين النسق الداخلى ويرتـــبط بتوزيع الوظائف والنسق الخارجى ويؤكد على الضبط الاجـــتماعى أو التنظـــيم الاجتماعى وتعمل هذه الأنساق الفرعية للمحافظة على المجتمع كوحدة عضوية فى تطورها المستمر(١).

وبالرغم من أن سبنسر قد استخدم المماثلة العضوية بوصفها الهدف المركزى للقسم الثانى من مبادىء علم الاجتماع ، إلا أنه

(١) جراهام كينلوتش - مرجع سابق ص ٩١ .

أنكـر تبـنى هـذا المبدأ ، حيث رد على الانتقادات بقوله " لقد استخدمت المماثلات كصقاله لاقامة إطار متماسك من الاستقرار السوسيولوجى " [١].

٧- حـدد سبنسـر عـددا من العمليات المتميزة فى إطار الديناميكية الاجتماعية وهذه العمليات هى :

(١) استمرارية الحركة .

(٢) الـتحول من التجانس إلى اللاامتجانس أى التحول من الشكل البدائى إلى المجتمع الصناعى الحديث .

(٣) تراكم العناصر فوق العضوية كلما تطور المجتمع .

(٤) حـركة المجـتمع المستمر نحو تحقيق التوازن وهى حالـة تـؤدى إلى تحطيم النظم السائدة وتقضى إلى التغـير بمجرد أن يتجاوز التوازن الحد المقبول من الجمود والتزمت .

وموجـز القول أن سبنسر يرى المجتمع كلا عضويا يتكون من نسقين أحدهما داخلى والآخر خارجى ويتطور باستمرار نحو مستويات جديدة من التوازن أثناء إرتقائه من المجتمع البدائى إلى المجـتمع الحديث الصناعى ، وأن مهمة علم الاجتماع الأساسية هـى فهم تلك العمليات فهما متعمقا من أجل تحقيق أقصى درجة من التجانس الاجتماعى [٢].

إلا أن سبنسـر أشـار إلـى أن حياة كل الكائن الاجتماعى تخـتلف تمامـا عن حياة الوحدات ، علما بأن هذه الوحدات هى التى أنتجت حياة الكل هذه[٣].

(١) نيقولا تيماشيف — مرجع سابق ص ٥٩ .

(٢) جراهام كينلوتس — تمهيد فى النظرية الاجتماعية — مرجع سابق ص ٩٢ .

(٣) نيقولا تيماشيف — مرجع سابق ص ٥٩ .

أن سبنسر لم يطور نظرية سوسيولوجية فحسب ، ولكنه طور نظرية شـــاملة للكون بما فيه ، الطبيعة والمجتمع على السواء ، فقوانين التطور التى صاغها هى عبارة عن قوانين كونية ، أى تصدق على كل ما فى هذا الكون من تكوينات ونظم ، وقد اعتمد سبنســـر فى بلورة آرائه على علم الفيزياء فى عصره ، واعتقد بوجـــود عملية تطور هائلة ، هى التى تعمل فى صياغة الواقع الماثل أمامنا وتوجيهه[1] .

المنهج :

مـــا هـــى المـــناهج الـــتى ينبغى على علماء الاجتماع أن يســـتخدمونها ؟ يجيـــب " سبنسر " عن هذا السؤال بأنه يجب أن نعـــرف طـــريق البحث والتنقيب علاقات التعايش والسياق الذى تـــتابع فيه الظواهر الاجتماعية ، كما يجب أن نقارن بين أشكال مختلفة من المجتمعات وبين مجتمعات تنتمى إلى مراحل مختلفة مـــن التطور ، كما يجب أن أن يحدد مدى درجة ارتباط السمات بعضها بالبعض كالحجم والبناء والوظيفة .

ويمـــاثل المنهج الذى تبناه سبنسر منهج كونت الوضعى إذا استخدم سبنسر الملاحظة الأمبريقية والمنهج المقارن والأستدلال الـــتاريخى والقياســـى واســـتفاد مـــن تحليل البيانات التاريخية والأثنولوجـــية وقـــد اســـتخدم سبنسر هذه الأدوات لتتبع عملية التطور الاجتماعى[2] .

---

(١) محمد الجوهرى ، مرجع سابق ص

(٢) جراهام كينلوتش — مرجع سابق ص ٩٢ .

" نمط المجتمع " :

يأخذ النمط الأساسى للمجتمع عند سبنسر صورتين الصورة الأولـــى : الأستاتيكا الاجتماعية ، والديناميكا الاجتماعية بيد أنه قـــدم نموذجـــا تفصـــيليا لخصـــائص النمط المثالية لنمطين من المجـــتمعات : أولهمـــا المجـــتمع العســـكرى والآخر المجتمع الصناعى فالنمط الأول يصور مجتمعا يقوم على استعباد الأفراد والتزمت والصرامة العسكرية والقانون وعدم العدالة فى توزيع الأجـــور والمعـــاملات وخضوع هذه الأجور لأهواء المالك أو رئـــيس العمل وتتخذ الحكومة صورة مركزية شديدة ، أما النمط الآخـــر فهو المجتمع الصناعى الذى يتيح للفرد مكانة أرقى لأنه أقل تزمتا وتشددا فى تطبيق العسكرية ، ويقوم على نظام التعاقد أى تحول العمل التطور من المجتمع البدائى إلى المجتمع الحديث الذى يؤمن بالفردية والارادة واللامركزية(١) .

غير أن سبنسر أوضح أنه ليست هناك ضرورة ملحة لتحول المجتمعات خلال مراحل التطور المحددة ، كما أن كل مجتمع لا يشبه الآخر تماما ، وأوضح أن هناك فروقا بين المجتمعات التى ترجع إلى الاضطرابات التى تدخل فى خط التطور المستقيم(٢) .

القضايا الأساسية عند سبنسر :

وقـــد آثـــار المدخل العضوى الارادى عند سبنسر عددا من القضايا شغلت اهتمام المعاصرين من علماء الاجتماع .

(١) جراهام كينلوتش ، مرجع سابق ص ٩٢ .

(٢) نيقولا تيماشيف – مرجع سابق ص ٦١ .

(١) تطبيق النظرية التطورية فى علم الاجتماع ، وثمة محاولة حديثة لاحياء هذه النظرية التطورية نجدها عند بارسونز .

(٢) أن رؤية سبنسر للمجتمع ككل عضوى يتكون من عدد من الانساق الفرعية المحددة ترتبط مع القضية المعاصرة للنزعة البنائية الوظيفية باعتبارها شكل من أشكال التفسير فى علم الاجتماع[١] .

(٣) تعتبر فكرة التوازن الاجتماعى فكرة أساسية فى كل دراسات علم الاجتماع الغربى عامة والمدخل البنائى الوظيفى تصور حالة التوازن هذه وفائدتها العامة فى التفسير الاجتماعى العلمى[٢] .

(٤) تماثل تعريفات سبنسر لكل من نمط المجتمع العسكرى ونمط المجتمع الصناعى قانون المراحل الثلاث عند كونت وفكرة المجتمع المتجانس آلياً والمجتمع المتماسك عضويا وفكرة الجماعة المحلية والمجتمع عند توينز[٣] .

أن سبنسر قام بصياغة نظرية تكاملية عن الحقيقة كلها ، فقانونه عن التطور قانون كونى ولذا تعد نظريته فلسفية فى المحل الأول وليست سوسيولوجية ... ، ويمكننا أن نلاحظ أن فلسفة سبنسر كانت تمجيداً لفزياء عصره[٤] .

(١) جراهام كينلوتش - مرجع سابق ص ٦٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٩٥ .

(٤) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ص ٦٥ .

ملخـــص للـــنمط الطبيعى للنظرية العضوية بعض مظاهر الاتفاق بين كونت وسبنسر .

(١) تفـــاعل وتأثـــر كـــل مـــنهما بالمشـــكلات الأساسية والاقتصادية والاجتماعية التى ظهرت في عصرهما وتأثرهما بفلسفة عصر التنوير وانفراد سينسر بتأثره بفكر العصر الفيكتورى . ويدور محور الأرتكاز فى أعمالهما حول فهم كيفية عمـــل القوانين الطبيعية فى المجـــتمع . أثناء تطوره تلقائيا ، وذلك من أجل تقديم أساس علمى للضبط الاجتماعى والسياسية الاجتماعية وسعادة الإنسان[١] .

(٢) فهـــم كـــل منهما أن ثمة عدداً من القوانين الطبيعية تنظيم المجتمع .

(٣) إدراك كـــل مـــنهما أن المجتمع كل عضوى متطور يرتقى فى أطوار معينة محددة نحو المرحلة العضوية أو الصناعية .

(٤) وصـــف كل منهما بناء المجتمع باعتباره يتكون من جانبين الأستاتيكا الاجتماعية والديناميكا الاجتماعية .

(٥) أكـــد كـــل مـــنهما على أهمية الملاحظة الأمبريقية والمـــنهج المقـــارن بأعتـــبارهما أداتين ملائمتين فى البحث الاجتماعى .

(٦) حدد كلاهما أنماط للمجتمعات عند المراحل الخاصة للتطور ورغم أن كونت أكد القيم الاجتماعية أو العقل. وبيـــنما عـــرض سبنســـر الكائن العضوى كنموذج للمجـــتمع عنـــده فإننـــا نستطيع أن نقـــول أن آراء كل منهمـــا تعبر عن النمـــوذج الطبيعى التطـــورى

(١) جراهام كينلوتش - ارجع سابق ص ٩٦ .

العضـــوى كـــنموذج أساسى لتفسير **المجتمع** ، وهذا النموذج هو الأساس الذى قام عليه علم الاجتماع عندما حاول الأكاديميون فهم المجتمع فهما علميا أى فهم **المجتمع** ودراسته وفق قواعد المنهج العلمى ليوجهوا تطوره ويحلوا مشكلاته[١] .

وقد لاقت آراء سبنسر – على خلاف آراء كونت – رواجا وذيوعـــا ضخما خلال حياته ، وسيطرت على عقول الدارسين وغيرهم ... ، حتى أنه كان من المستحيل – عبر ثلاثة عقود – أن يعـــترف مثقف بأنه لم يقرأ أعمال سبنسر ... ، وكان يوضع دائما موضع الاعتبار .

وقد تمتعت نظريته بجاذبية شديدة ، لأنها استجابت لحاجتين أساســيتين لهــذا العصـــر ، **الأولـــى** : وهى الرغبة فى توحيد المعـــرفة **والثانية** : الحاجة إلى مبرر علمى لمبدأ " دعه يعمل " وهو المبدأ الذى كان يسيطر على المناخ الايديولوجى فى انجلترا والولايات المتحدة فى ذلك الوقت[٢] .

---

(١) المرجع السابق ص ٩٦ .

(٢) نيقولا تيماشيف – مرجع سابق ص ٦٦ .

الفصل الثالث عشر

دوركايم

النشـــأة .

- دراسة الظواهر الاجتماعية .
- الأهـــداف .
- الافتراضات .
- الاسهامات المنهجية .
- تقويم منهج دوركايم .

الفصل الثالث عشر

دوركايم (١٨٥٨ — ١٩١٧)

يمـــثل دوركـــايم نقطـــة تحول فى تاريخ الفكر الاجتماعى والـــنظرية السوسيولوجية ، فلقد بذل جهداً كبيراً تميزه عن علم الـــنفس والفلسفة مما أدى إلى ظهور النزعة السوسيولوجية التى ترتـــبط بدوركـــايم وتمثل وجهة النظر التى تعتبر علم الاجتماع علمـــاً مستقلا له كيانه الخاص كعلم وضعى ، وأنه كاف للتفسير الشامل للواقع الاجتماعى .

وحـــاول دوركـــايم تدعـــيم موقفه بمجموعة من الدراسات الامبريقية مثل تقسيم العمل والانتحار والدين ، وكون من حوله مدرســـة فكـــرية تميز الفكر الاجتماعى الفرنسى بخاصة والفكر الاجتماعى فى العالم بأسره ، وكذلك أثره فى ميادين متعدده مثل الاثنولوجيا والتاريخ وعلم النفس والقانون واللغات والدين[١] .

ولد اميل دوركايم فى فرنسا وهو ابن عائلة يهودية ، وتعلم القـــانون والفلسفة الوضعية فى الجامعة ، تربى فى أحضان فكر عصـــر التـــنوير وعاش أيام الثورة السياسية فى فرنسا والتفكك الاجتماعى ، اهتم دوركايم بالادارة العامة والتماسك الاجتماعى ، وترتب على ذلك تصوره للمجتمع فى إطار المعايير أو أشـــكال

---

(١) غريب سيد أحمد ، مرجع سابق ص ٢٩١ .

التكامل الاجتماعى (أى أنه تصور المجتمع حسب الطريقة التى يرتبط بها الفرد أرتباطا إجتماعيا مع البناء الاجتماعى من خلال الحقائق الاجتماعية) ، وكانت فكرة التماسك الاجتماعى لعناصر المجتمع احدى اهتماماته الأساسية[١] .

دراسة الظواهر الاجتماعية :

يوصـــف مـــنهج إمـــيل دوركايم ، بأنه نزعة سوسيولوجية واقعـــية ، بمعنى أنه منح الجماعة واقعا إجتماعيا مطلقا بدلا من الفـــرد ، ولعل ذلك يجعل آراء دوركايم قريبة الشبه من آراء " جمبولوفـــتش " ، بيـــنما تقـــف نظريته فى تعارض مع النزعة الفـــردية عـــند سبنسر ، ويرجع ذلك إلى أن دوركايم يقرر أن الظواهر الاجتماعية لا يمكن إرجاعها إلى ظواهر فردية .

والظواهـــر الاجتماعية تمثل تيارات اجتماعية قائمة ، حتى وأن لـــم يكن هناك تنظيم إجتماعى محدد بوضوح مثل موجات الحمـــاس التى تدفع الفرد إلى الاندماج فى الحشد أو الجمهرة ، هـــذه التيارات اجتماعية فى جوهرها لأن لها واقعا موضوعيا ، كما تمارس ضغطا على الفرد لأنها واقعا موضوعيا .

وتســـتمر الظواهر الاجتماعية أصولها من المظاهر الجمعية للمعتقدات والممارسات الجماعية ، وليست العمومية هى العلامة

---

(١) جراهام كينلوتش ، مرجع سابق ص ٩٨ .

المميزة لهذه الظواهر ، فالفكرة التى تتحقق فى شعور كل فرد لا تكتسب لهذا السبب صفه الاجتماعية ، ذلك لأن هناك تميزاً هاماً بين الظواهر الفردية والاجتماعية ، وتشير الظواهر الاجتماعية إلـى درب مـن السلوك والفكر يتحقق لها الاستمرار ، فتتبلور كأنمـاط متميزة عن الحوادث الجزئية الفريدة التى أدت إليها ، ويلاحـظ دوركايم أن هذه الانماط (الوقائع الاجتماعية) تصاغ فـى بـناء معين ، فتصبح حقيقة واقعة فى ذاتها ، مستقلة عن تجلـياتها الفـردية ، وبذلك نصبح أمام ظواهر اجتماعية بمعنى محدود جداً لمصطلح " إجتماعى " ومع ذلك فإن التجليات الفردية قـد تشير إلى ظواهر اجتماعية – نفسية يهتم بها عالم الاجتماع على نحو غير مباشر(١) .

فعلـم الاجـتماع إذن عـند دوركـايم هو دراسة الظواهر الاجتماعـية ، بالاضافة إلى ذلك ، فهو دراسة تحددت طبيعتها من خلال موضوعها .

ويمكننا الكشف عن الظواهر الاجتماعية بطريقتين : الأولى: من خلال القوة القهرية التى تمارسها على الأفراد ، والتى تتجلى عمومـاً فـى الجزاءات المصاحبة لانماط السلوك ، أما الطريقة الثانـية : فتتمثل فى انتشارها وعموميتها فى الجماعة ، ويشير دوركايم فى هذا الصدد إلى أن المحاكاة ليست ظاهرة إجتماعية حقيقيـة كما ذهب " تارد " ، ذلك أنها أى (المحاكاة) عمليـة

---

(١) نيقولا تيماشيف – نظرية علم الاجتماع – مرجع سابق ص ١٧٧ .

فـــردية تكمن فى الفرد ذاته ، برغم ما قد يترتب عليها من نتائج إجتماعـــية ، وقد تكون المحاكاة ظاهرة عامة ، إلا أنها مع ذلك ليســت ملـــزمة ، وهذا بدوره يجعلها غير اجتماعية ، أما حينما تتصـــور النظم على أنها معتقدات ، وضروباً للسلوك نتجب عن الحـــياة الجمعـــية للجماعة ، حينئذ فقط تصبح ظواهر اجتماعية حقيقـــية ، لأن لهـــا وجوداً خارجياً مستقلاً عن الفرد ، وتمارس قهـــراً علـــيه ، وهكذا ينتهى دوركايم إلى أننا نستطيع أن نعرّف علم الاجتماع بأنه علم النظم من حيث نشوؤها ووظائفها[١] .

ويؤكـــد دوركـــايم أنه ينبغى أن تعالج الظواهر الاجتماعية بأعتبارها اشياء ، وذلك بدلاً من الفكرة التى كانت سائدة فى علم الاجتماع حيث كان العلم يعنى بالتصورات بدلاً من التركيز على الأشـــياء ، فقـــد كـــرس كونت وسبنسر جهودهما فى كتاباتهما لمناقشة مجرى التقدم الانسانى ، فى حين أن التقدم تصور عقلى وليس ظاهرة يمكن التحقق منها بالبحث التجريبى ، فالاشياء إذن تخـــتلف عن الأفكار التصورية ، تماماً كما تختلف المعرفة التى نكتســـبها مـــن الخارج عن معرفتنا الداخلية بالأشياء ، ويذهب دوركـــايم إلى أن الأشياء تتضمن كافة موضوعات المعرفة التى يـــتعذر إدراكها بالنشاط العقلى الخاص ، والتى يتطلب تصورها توافـــر بـــيانات خارجة عن العقل ، نحصل عليها بالملاحظات والتجارب ، أى تلك التى أمكن تشييدها من السمات[٢] .

---

(١) المرجع السابق ص١٧٧ .

(٢) نيقولاتيماشيف مرجع سابق ص ١٧٨ .

أن الغاية الأساسية لعلم الاجتماع هى تحقيق الموضوعية ، بمعـــنى أن عـــالم الاجتماع حينما يدرس المجتمع يتعين أن يتخذ موقفا يماثل موقف العالم الطبيعى ، الذى يفترض أنه يرتاد ميداناً غير معروف وغير مكتشف ، وحينما يقوم باجراء بحثه يستطيع أن يتعرف على الظواهر من خلال ملاحظة الظواهر الخارجية الملموسة مثل الولاء الدينى ، المكانة الزواجية ، معدل الانتحار ، المهـــنة الاقتصـــادية وغـــيرها ، ويؤكد إميل دوركايم أن هذه الظواهر التى أمكن إدراكها عن طريق التحليل المتعمق لها ، انما هى بمثابة إنعكاس لظروف إجتماعية معينة ، فمعدلات الانتحار مثلا قد تصور درجة من التضامن الاجتماعى فى مختلف أنماط الجماعات (١) .

ومـــن ناحـــية أخرى فإن الظواهر الاجتماعية ليست نتاجاً للارادة الانسانية الفردية ، ولذلك يتعذر دراستها بواسطة البحث الســيكولوجى ، وهـــى فـــى الوقت ذاته تشكل الافعال الانسانية وتعدلها ، ومع ذلك فقد يبدو أن هناك قدراً من التداخل والتساند بين الظواهر الفردية وظواهر الحياة الجمعية ، ويعطى دوركايم مـــثالا بالخلية الحية التى تتألف من عناصر كيميائية ، ومع ذلك فان لهذه الخلية حياة خاصة بها تختلف عن عناصرها المكونة ، وتكـــون خارجـــة عنها ، وهذا ما يتحقق تماما فى كل مجتمع ، حيث نجد ظواهر اجتماعية لها خصائص متميزة عن خصائص

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٨ .

الأفـــراد أعضاء المجتمع وخارجه عنهم ، وهذا بدوره هو الذى يجعل تلك الظواهر مختلفة نوعيا عن الظواهر السيكولوجية[١] .

الأهــــداف :

أهــتم دوركـــايم اهتماما أساسيا بفهم الظواهر الاجتماعية وتأثيرها على ظهور المشكلات الاجتماعية ، وكان ذلك الاهتمام معارضا للتفسيرات النفسية الفردية التى طرحت فى ذلك الوقت ، وقـــد رأى دوركايم أن علم الاجتماع يهتم بالظواهر الاجتماعية والالتزامات الأخلاقية الجمعية ، وخاصة تلك الظواهر التى تقهر الفــرد على أن يسلك سلوكا معينا داخل الجماعة ، وهكذا فعلى نقــيض التفســيرات النفسية ، التى تهتم بالحالات الداخلية والتى سيطرت على المناخ الفكرى فى تلك الفترة ، قدم إميل دوركايم إطـــار عمل سوسيولوجى يهتم بالظواهر الموجودة فى الخارج ، مـــثلما عرض منهجا لدراسة هذه المعطيات الاجتماعية ، وكان هذا المنهج الاجتماعى ، وهذا التفسير للظواهر الاجتماعية ، هو المساهمة الكبرى من دوركايم فى تأسيس وتطوير علم الاجتماع باعتــباره علما جديدا متميزا يركز على المجتمع كظاهرة حقيقية لهـــا وجـــود مستقل ، وقد أعطى دوركايم اهتماما لكل مظاهر المجــتمع ، وهـــى القـــانون والاخلاف وأساليب الضبط والبناء السياسى والاقتصادى والدين والجريمة[٢] .

(١) نيقولاتيماشيف — مرجع سابق ص ١٧٨ .

(٢) جراهام كينلوتش — تمهيد فى النظرية الاجتماعية ، مرجع سابق ص ٩٨

الافتراضات :

١- بدأ دوركايم بافتراض هام مؤداه أن المجتمع بوصفه ضميراً جمعيا - الشعور الجمعى - تمثلات جمعية - له وجود مستقل ، وقد قصد دوركايم كما فعل سبنسر توضيح أن المجتمع ككل يختلف عن مجموع أجزائه ، فالمجتمع كل عضوى يختلف عن مجموع أجزائه ويعمل أساساً من خلال أساليب القهر التى يفرضها على البناء المعيارى للمجتمع .

٢- يترتب على ذلك أن الوقائع الاجتماعية (المعايير الجمعية) هى وقائع حقيقية ، كما يتجلى ذلك فى قوة القهر التى تمارسها المعايير والابنية التنظيمية وتبعاً لذلك اهتم دوركايم بواقعية المعايير وما تمارسها من قوة قهر .

٣- تعتمد القوة الجمعية على العقل الجمعى ، أى تعتمد الأشكال المختلفة للسيطرة والقهر والالزام على بناء المعايير السائد خلال جماعة ما ، عندما يمارس الضبط الاجتماعى على أعضاء الجماعة من خلال هذه المعايير .

٤- يوضح دوركايم أن تطور وقائع المجتمع أو المعايير السائدة فى ذلك المجتمع يعتمد على الحاجات الأساسية لذلك المجتمع ، وبهذه الكيفية تمثل الظواهر الاجتماعية .

٥ - أن التماسك الاجتماعى أو التكامل الاجتماعى يقوم على نظام تقسيم العمل فى المجتمع ، أى كلما تزايد التماثل فى مظاهر تقسيم العمل أى كلما كان بناء الأدوار أقل تعقيداً ، ارتفع مستوى التماسك الاجتماعى (١) .

---

(١) جراهام كننلوتش - مرجع سابق ص ٩٩ .

٦- أوضـح دوركـايم أن ثمـة رابطة منطقية بين حجم المجـتمع والكـثافة السكانية من جانب ، ومستوى تقسيم العمل والتماسك الاجتماعى من جانب آخر ، أى كلما زاد عدد السكان وارتفعت الكثافة الاجتماعية ، ترتب على ذلك زيادة تقسيم العمل ، وضمور التماسك الاجتماعى[١] .

٧- أدرك دوركـايم أن هـناك شكلين أساسيين للتضامن الاجـتماعى الأول وهو التماسك الآلى ، والثانى : وهو التماسك العضـوى أمـا عـن التماسك الآلى فهو خاصية من خصائص المجـتمع التقلـيدى التى يتضاءل فيها تقسيم العمل ، وتمثل فيها المعايـير قـوة ضـاغطة ، ويظهـر مستوى عال من التماسك الاجـتماعى وتـتماثل فيها المعايير والتقاليد والمتقدات وتتقارب الآراء ، أمـا التماسـك العضـوى : فهو خاصية من خواص المجـتمعات الصناعية المتقدمة والتى تتميز بتعقد نظام العمل ، وشـيوع علاقات تقوم على التعاقد وانخفاض مستويات التكامل وندرة مظاهر التماسك والتضامن ، وفى مثل هذا البناء تضعف قـوة أسـاليب الضبط التى تمارس على الأفراد مما يؤدى إلى ارتفـاع الانحراف والتمرد على المعايير أو رفضها ، وفى مثل هذه المجتمعات تتزايد معدلات الانحراف والجريمة نتيجة ضعف الرابطـة بين الأفـراد والبنـاء الاجتمـاعى ، ويصبح البنـاء

---

(١) جراهام كينلوتش — المرجع السابق ص ١٠٠ .

الاجـــتماعى عاجــزا وغير قادر على تنظيم العلاقات تنظيمـــا ملائما(١) .

٨- افـــترض إميل دوركايم أن الجريمة وأشكال الانحراف الأخــرى تــؤدى وظيفة فى المجتمع بقدر ما هى تدعم معايير الجماعـــة وبقـــدر ما تساهم فى التغيير المستمر بتعديل معايير الجماعة .

وخلاصـــة القول أن إميل دوركايم يرى أن المجتمع عبارة عـــن وحده عضوية معيارية تمثل الحاجات الاساسية للمجتمع ، وإذا كـــبر هـــذا النســـق أى ازدادت وتعقد تقسيم العمل يتحرك المجـــتمع مـــن التماسك الالى إلى التماسك العضوى ، والمشكلة العملـــية الـــناجمة عـــن ذلـــك هى إعادة تكامل الأفراد وبيئاتهم الاجتماعية ، أى تطوير الوحدة الاخلاقية بعد حالات التفكك .

ويقـــترح إمـــيل دوركـــايم أن إعـــادة هذا التكامل تتطلب الاســـتفادة من التربية والتعليم والدعوة إلى تربية أخلاقية جديدة تـــتجاوز اهـــتمامات الفـــرد وتتيح رابطة أخلاقية متجانسة مع المجتمع(١) .

الاسهامات المنهجية :

أن الميتودولوجـــيا عـــند دوركايم تتكون إلى حد بعيد من صياغة القواعـــد التى يتعين اتباعها لتميز الظواهر الاجتماعيـــة

---

(١) نفس المرجع .

(٢) جـــراهام كيـــنلوتش — تمهيد فى النظرية الاجتماعية ، مرجع سابق ص ١٠١ .

وتحديدها ، فمن الضروري أن نتخلى عن تصوراتنا المسبقة عند ملاحظاتنا للظواهر الاجتماعية ، وهذا يعنى أن على عالم الاجتماع أولاً : أن يتجرد تماماً من الأفكار الشائعة والمسيطرة على تفكير رجل الشارع أو كما يقول دوركايم "إن على (الباحث) أن يتحرر – دفعة واحدة – من سيطرة تلك المقولات الواقعية التى اكتسبت قوة من خلال تعودنا عليها منذ زمن بعيد " .

ثم علينا ثانياً : أن نحدد موضوع كل بحث فى علم الاجتماع ، بحيث نعطى مجموعة من الظواهر التى أمكن تحديدها فى ضوء خواصها الخارجية والعامة ، وأن نعتبر الظواهر الاجتماعية مستقلة عن مظاهرها الفردية .

وهذا يجعل الباحث فى علم الاجتماع يتخطى حدود السلوك الفردى فى محاولته للكشف عن مظاهر أكثر دوماً واستقراراً للعادات الجمعية[1] .

أن القاعدة المنهجية الأساسية عند إميل دوركايم تعتمد على الاستقلال الذى يميز الظاهرة الاجتماعية ، أن تفسير الظواهر الاجتماعية فى ضوء علم النفس قد تجاهل ما تمارسه تلك الظواهر على حياة الانسان من قوة جبرية ... ، ويجب أن نأخذ فى الاعتبار أن المجتمع لا يساوى مجموع الأفراد ، بل أنه نسق اجتماعى له واقع محدد وخصائص نوعية ، ويرى دوركايم أنه من الخطأ أن تفسيرظاهرة اجتماعية معينة ، باعتبارها نتاجاً

---

(١) نيقولا تيماشيف نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ١٩٠ .

للعمليات النفسية الفردية ، أن مصدر الالتزامات الاجتماعية العديدة يكمن خارج نطاق الفرد ذاته ، فطاعة الابناء والحب والتدين والولاء والزواج وغيرها من العواطف التى تنشأ عن الحياة الاجتماعية ، ليست أسبابا للظواهر الاجتماعية ولكنها فى الواقع نتائج مصاحبة للضغوط التى تمارسها تلك الظواهر على الشعور الفردى ، ومعنى ذلك أن الحياة الجمعية مستقلة عن حياة الفرد الخاصة[١] .

ويؤكد دوركايم فى مناقشته لقواعد إقامة البراهين فى علم الاجتماع أن التجربة غير المباشرة (أو المنهج المقارن) هى المنهج الوحيد الذى يلائم طبيعة الدراسة فى هذا العلم ، حيث يرى دوركايم أن لكل نتيجة سببا محددا .. ، ويعتقد دوركايم أن علم الاجتماع يجب أن يصبح علم اجتماع مقارن ، طالما أنه لا يكتفى بمجرد الوصف ، بل يسعى إلى دراسة الظواهر الاجتماعية ، فضلا عن أن الاسلوب العلمى الصحيح يتطلب مقارنة المجتمعات خلال مرحلة تطورية واحدة ، ويؤكد دوركايم على طريقة التلازم فى التغير ، وتذهب هذه الطريقة إلى أنه إذا كان التغير فى متغير معين (مثل معدل الانتحار) يصاحبه تغير فى متغير آخر (كالانتماء الدينى مثلا) فإن هذا التلازم فى التغير قد يرجع إلى ارتباط سببى مباشر بين المتغيرين ، أو إلى ارتباط بينهما من خلال ظاهرة إجتماعية أساسية (ولتكن مثلا درجة التضامن الاجتماعى فى الجماعة[١] .

(١) نيقولا تيماشيف — مرجع سابق ص ١٩١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٢ .

ويرى دوركايم أن البحث عن العلاقات السببية بين الظواهر الاجتماعية ، ليس إلا جانباً يسيراً من مهمة علم الاجتماع ، لذلك حاول أن يطور منهجاً وظيفياً يلائم دراسة الظواهر الاجتماعية ، وهو منهج يحظى باهتمام علماء الاجتماع في الوقت الحاضر ... ، ويخلص دوركايم إلى أن علم الاجتماع سوف يعنى بالبحث عن الوظيفة التى تؤديها الظاهرة الاجتماعية ، إلى جانب اهتمامة بالكشف عن أسبابها الكافية[١] .

أى أن إميل دوركايم طالب بتطبيق قواعد المنهج الاستقرائى فى الدراسات الاجتماعية ، ووضع قواعد خاصة بملاحظة الظواهر الاجتماعية[٢] .

تقويم منهج دوركايم :

كان لدوركايم فضل كبير فى تحديد خصائص الظواهر الاجتماعية وفى تفصيل قواعد المنهج التى يمكن إتباعها فى البحوث الاجتماعية ، وقد اجتهد دوركايم فى البرهنة على أن الظواهر الاجتماعية أشياء خارجية ، وأن لها صفاتها النوعية التى تتميز بها عن غيرها ، فهى : توجد خارج شعور الفرد ، وتجبره على أنواع معينة من التفكير والشعور والسلوك ، وهى مستقلة عن الظواهر البيولوجية والظواهرالنفسية ، وليس فى

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٢ .

(٢) عبد الباسط حسن : أصول البحث الاجتماعى . مرجع سابق ص ٨٨ .

استطاعة الانسان أن يغير من طبيعتها كما يشاء ، بل لابد له من معـرفة القوانيـن الـتى تخضع لها ، ولذا أوجب دوركايم على الباحـث الاجـتماعى أن يتبع قواعد المنهج العلمى فى دراسته للظواهر الاجتماعية حتى يتسنى له الوصول إلى نتائج سليمة من الوجهة العلمية .

وقد اجتهد دوركايم فى تفسير الظواهر الاجتماعية بظواهر اجتماعية أخرى ، فالظواهر الاجتماعية وأن كانت أشياء خارجية إلا أنها من نوع خاص ، وهى تنشأ بسبب الشعور الجمعى .

ويؤخذ على إميل دوركايم أنه لم يفطن إلى أهمية الفروض فى البحوث الاجتماعية ، وكان يرى أن الممكن الانتقال مباشرة مـن الملاحظـة والمقارنـة إلى القانون ، كما أن طريقة التغير النسـبى التى نادى باستخدامها تضيق مجال المقارنة وتؤدى إلى التعميم السريع[١] .

---

(١) عبد الباسط حسن : أصول البحث الاجتماعى ، المرجع السابق ص ٨٩ .

فريناند تونيز ١٨٥٥ - ١٩٣٦

النشـــأة :

ولــد تونــيز في ريف مقاطعة أيزنستاد ، وهي إقليم ريفي يعــتمد علـــى الزراعة ، وتعلم وتلقى دروسه عن هويز وهيجل وكونـــت وسبنســـر ، وقد عاش مظاهر الاضطراب الاقتصادى والسياســـى والـــتطورات الصناعية في عصره ، وأهتم اهتماماً أساسياً بدراسة المجتمع باعتباره محصلة الارادة الانسانية ، ومن ثــم يمكن أن يقال أنه أضاف بعداً اجتماعيا ونفسياً إلى النظرية العضوية ، ومن أهم أعماله الجماعة المحلية والمجتمع ، ومقدمة في علم الاجتماع[١] .

وقــد ظهــر في وقت مصاحب لازدهار النزعة التطورية اتجـــاه تحليلي جديد في علم الاجتماع ، وخلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر قدم أربعة مفكرون مساهمات جوهرية في هذا الاتجـــاه ، وكـــان من بين هؤلاء المفكرين دوركايم الذى يعتبر أيضـــاً عالمـــاً تطورياً ، وكذلك فرديناند تونيز الذى سنتناوله ، وكذلك جورج زيمل وجبريل تارد[٢] .

وتعتبر البدايات المبكرة لعلماء الاجتماع الألمان ، وخاصة عند " تونيز " " وزيمل " ، البـــدايات المبكرة للاتجاه التحليلى في

---

(١) جراهام كينلوتش – تمهيد في النظرية الاجتماعية – مرجع سابق ص ١٠٦

(٢) نيقولا تيماشيف – مرجع سابق ص ١٥٩ .

علـم الاجتماع ، مثلما كانت أيضا الأعمال الممهدة لتأكيد أهمية القياس الاجتماعي الحديث فى علم الاجتماع ، وإذ دل ذلك علــى شىء إنما يدل على وحدة المصدر المعرفى للاتجاهين من ناحية ، وعلــى الارتــباط القائم بين القياس والتحليل من حيث أدائهما الوظيفى بالنسبة للنظرية السوسيولوجية من ناحية أخرى ، وتكشــف البدايات المبكرة فى أعمال كل من تونيز وزيمل ، عن الالــتقاء بين الاتجاه التحليلى وكل من الاتجاه الوظيفى والاتجاه النفســى الاجــتماعى فى التراث السوسيولوجى الفرنسى ، حيث تحققت الرابطة بين الاتجاه الوظيفى والاتجاه التحليلى من خلال اسهامات " دوركايم " فى حين تحققت الرابطة بين الاتجاه النفسى الاجتماعى والاتجاه التحليلى تتكشف معالمها من خلال اسهامات عالم الاجتماع الفرنسى " جبريل تارد "[١] .

إذا كنا قد أخترنا فرديناند تونيز كممثل للتفكير الاجتماعى الألمــانى فانما يكون ذلك لأنه من أهم من ساهموا فى نشأة علم الاجتماع فى ألمانيا لما تقدم به من نصيب كبير فى علم الاجتماع الــنظرى بنظريته الخاصة بالجماعة والمجتمع والتى نشرها فى كتاب بهذا الاسم فى ١٨٨٧ .

الأهــــداف :

ويــرى تونيز فى هذه النظرية أن كل العلاقات الاجتماعية تنشــأ عن طريق الارادة الانســانية ، وأن الحقائق الاجتماعيــة

(١) السيد شتا – نظرية علم الاجتماع – مرجع سابق ص ٣٩٣ .

لا توجـد إلا عن طريق إرداة الأفراد للتجمع ، وأن هذه الارادة تختلف من موقف إلى موقف آخر ، فقد تدفع هذه الارادة إلى قيام جماعـة مـن الجماعات أو علاقة معينة ، لأن الأشخاص الذين تشـملهم هـذه الجماعـة أو تهمهـم هذه العلاقات يرغبون فى الوصول عن طريقها إلى هدف معين أو إلى غاية معينة ، ويقوم تعاونهم معا بقصد تحقيق هذا الهدف ،برغم ما قد يكون بينهم من برود وكراهية . وفى هذه الحالة تكون الارادة السائدة هى الارادة العقلية(١) .

وقد يجتمع الناس كما يجتمع الأصدقاء لأنهم يؤمنون بأهمية العلاقـات كغايـه فى حد ذاتها ، وفى هذه الحالة تكون الارادة السـائدة هى الارادة الطبيعية ، وتعتبر هذه الارادة هى المعنصر السائد فى أية عملية يكون مصدرها الصفات الخلقلية والاتجاهات العقلية للفرد ، سواء كانت نابعة من الحب أو الميل أو العادة(٢) .

ويـرى أن الارادة الطبيعـية تـبدو فى أظهر أشكالها فى العلاقات الأربع التالية وهى جميعا تقوم على رابطة الدم .

١– العلاقة بين الأم وأطفالها .

٢– العلاقة بين الزوج وزوجته بمعناها الطبيعى .

---

(١) عبد الحميد لطفى – علم الاجتماع – مرجع سابق ص ١٨٠ .

٣- العلاقـــة بيـــن الاخوة والأخوات ، وبنوع خاص بين هؤلاء الذين أنجبتهم أم واحدة .

٤- العلاقة بين الأب وأبنائه .

ثم يلى ذلك فى العلاقات عدد من العلاقات الأخرى ، مثل العلاقـــة الـــتي تقوم على أساس الحوار ، وخاصة ما تميز منها بالمعيشـــة المشتركة كما هو الحال فى القرى الريفية ، ويلى ذلك العلاقـــات الـــتى تقوم على أساس الصداقة ، وأهم ما يميز تلك العلاقـــات جميعاً الملكية المتبادلة والمتعة المتبادلة ، كما يميزها أيضاً وحدة الخير ووحدة الشر[١] .

أى أن تونـــيز يـــرى أن علم الاجتماع هو دراسة للارادة الانســـانية باعتبارها أساس الحقيقة الاجتماعية ، فنظرية الارادة الانســـانية تقوم على محاولة فهم الطبيعة البشرية ، ومن ثم فقد حاول فهم المجتمع كدالة على الارادة الانسانية[٢] .

أما الجزء من النظرية الخاص بالمجتمع ، فيهتم بالجماعات الـــتى تقـــوم على أساس صناعى والتى تشبه الجماعة من ناحية ســـطحية تبدو فى مجرد معيشة الأفراد أو سكناهم معاً ، مع ما يصاحب هذا التشـابه السطحى من اختلاف واضح يتمثل فى أن

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨١ .

(٢) جراهام كينلوتش ، مرجع سابق ص ١٠٦ .

الأفــراد فــى حالة الجماعة نجدهم مترابطين برغم ما قد يكون بيــنهم مــن عوامــل الانفصــال بينما نجدهم فى حالة المجتمع منفصلين برغم ما يبدو حولهم من عوامل الاتصال[١] .

ويرى " تونيز" أن كافة العلاقات الانسانية هى نتاج للارادة الانسانية - كما أشرنا - وأنها تتخذ خطين أساسيين : الأول : هو الارادة الرئيسية وهى تمثل اتجاهاً أساسياً ، وغريزيا ، وعضوياً يكمن وراء النشاط الانسانى كدافع له ، والنمط الثانى هو الارادة التحكمــية ، وهى الشكل المتعمد والقصدى للإرادة ، الذى يحدد النشاط الانسانى بالنظر إلى المستقبل ، ويؤكد فرويناند تونيز أن الإرادة الرئيسية تسيطر على حياة القرويين ، وأصحاب الحرف العامة ، بينما التحكمية هى الطابع المميز لنشاط رجال الأعمال ، والعلمــاء ، والذين يمارسون السلطة ، ومن ينتمون إلى الطبقة العلــيا ، ويميل النساء والشباب إلى إشباع إرادة رئيسية ، بينما نلاحــظ أن الــرجال وكــبار السن يسيرون وفقا للنمط التحكمى للارادة[٢] .

معالم التحليل فى التراث السوسيولوجى الألمانى :

جــاءت إســهامات " فرديناند تونيز " فى مؤلفه " الجماعة المحليــة والمجتمع " والذى نشرت ترجمتــه الانجليزية ١٩٤٠

---

(١) عبد الحميد لطفى - مرجع سابق ص ٢٨٢ .

(٢) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ص ١٦٠ .

بعـــنوان " مفاهـــيم أساسية فى علم الاجتماع " حيث أقام تصوره لتحليل المجتمع وظواهره على أساس نمطى الارادة المتمثلان فى نمـــط الارادة الرئيســـية – كما سبقت الاشارة – والتى ينظر لها باعتبارها إتجاها غريزيا وعضويا أساسيا وراء النشاط البشرى ، وبذلـــك فهـــى إرادة غير رشيدة ، ونمط الارادة التحكمية وهى قصدى ومتعمد ورشيد فى تحديد النشاط البشرى ، وعلى أساس ذلـــك يـــرد " تونـــيز" جميع أشكال العلاقات الاجتماعية ، والتى يـــردها لنمطى الإرادة واللتان أقام على أساسهما تصيفه للنماذج الاجتماعية ، وكذلك تصنيفه للمعايير الأجتماعية (١) .

والجديـــر بالذكـــر أن اسهامات " تونيز" المتعلقة بتصنيف نماذج المجتمعات البشرية والخصائص المميزة لكل من المجتمع المحلى المتسم بالتجانس والمجتمع المتسم بعدم التجانس ، والتى تضـــمنت تأكـــيده على أهمية ربط تصوره النظري هذا بالتحليل الامـــبريقى للمجتمع وظواهره ، قد تركت تأثيرها بشكل واضح علـــى التحلـــيل السوسيولوجى لدى بعض رواد علم الاجتماع ، ومنهم " إميل دوركايم " فى تصنيفه للنماذج الاجتماعية ، إضافة إلى أنها ما تزال توجه التحليل السوسيولوجى المعاصر للمجتمع وظواهـــره ، وبذلـــك نجد أن تونيز قدم نموذجا تصوريا لتحليل أشـــكال الـــتجمعات البشـــرية وتطورها ، حيث استندت الحياة الاجتماعية المبكرة على العلاقات الطبيعيـة الغريزية التى تحكمها

---

(١) السيد شتا – نظرية علم الاجتماع – مرجع سابق ص ٣٩٣ .

الارادة الأساسية ، ثم تطورت الحياة الاجتماعية وأصبحت تقوم علـــى علاقات جماعية فى المجتمع المحلى والتى تحكمها أيضا الأرادة الأساســـية ، ثـــم قامت الحياة فى المجتمع على العلاقات الاجتماعية التى تحكمها الارادة التحكمية الرشيدة[١] .

الافتراضات الأساسية :

١- إفـــترض تونيز فرضا اساسيا أن المجتمع بما يتضمن من علاقات وروابط هو محصلة الارادة الانسانية .

٢- تـــتكون هـــذه العلاقـــة من أفعال الارادة الفردية التى تـــترابط سويا لتشكل الأفعال الجمعية للارادة ، وعلى هذا النحو يتكون البناء الاجتماعى .

٣- يمثل التفاعل الاجتماعى بين أفراد المجتمع تعبير عن أفعال الارادة أثناء تبادل الفعل .

٤- تأخذ هذه الارادة نمطا واحدا من هذين النمطين :

(أ) الارادة الطبيعـــية وهـــى الأســـاس الذى تقوم عليه الجماعة المحلية .

(ب) الارادة العقلانـــية وهـــى القـــاعدة التى يستند عليها المجـــتمع ، أى أن الارادة الطبيعـــية تعبر عن القاعدة التى يقوم عليهـا المجتمع التقليدى ، أما الارادة العقليـة فتعبر عن الأساس

---

(١) السيد شتا - المرجع السابق ص ٣٩٤ .

الـــذى يبـــنى عليه المجتمع الصناعى ، وهكذا تتباين المجتمعات حســب المعايير السائدة والحركة من النمط الفطرى الطبيعى إلى النمط العقلانى .

٥ - المجـــتمع كــل عضـــوى يقوم على نوع خاص من الارادة[١] .

ويرى تونيز أن المجتمع يتكون من الأفراد الذين يندمجون ويـــتفاعلون طـــبقا لرغباتهم أو إرادتهم الشخصية الصادرة عن العقـــل لتحقـــيق مصالح تهمهم ، وهو إذا ليس من نتائج الطبيعة وانمـــا من نتائج عمليات صناعية ، وأبرز الأمثلة التى يمثل بها تونـــيز لذلـــك ، العلاقات التى تقوم حول تبادل السلع والخدمات والنقد والعقود والديون ، وحيث تسودها جميعا المصلحة الفردية وحكم العقل والتضامن التعاقدى[٢] .

نمط المجتمع :

تـــرجع شـــهرة تونيز إلى اكتشافه نمطين أساسيين للارادة الاجتماعـــية - كمـــا ســـبقت الاشـــارة - وهما الجماعة المحلية والمجـــتمع ، وتعبر الجماعة المحلية عن المجتمع التقليدى الذى يعيش أفراده حيـــاة محلية تقـــوم على العلاقات العائلية الوثيقـــة

---

(١) جراهام كينلوتش ، مرجع سابق ص ١٠٧ .

(٢) عبد الحميد لطفى ، علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٢٨٢ .

الدافــئة ، ومعايير المحبة والفهم والحماية والروابط الاجتماعية الــتى ترسخها القرابة واللغة المشتركة (أى أن الجماعة المحلية هــى المجــتمع الطبيعى) ، أما النمط الأخير فيعبرعن المجتمع الصــناعى الحديث الذى يقوم على علاقات إقتصادية لا شخصية وروابط الطبقة الاجتماعية والتبادل الاقتصادى القائم على التعاقد .

ويقابل هذا النمط الاجتماعى الانماط الثلاثة للمجتمعات عند كونت وثنائيه هربرت سبنسر عن المجتمع العسكرى والصناعى وأشكال التضــامن عند دوركـايم ، بيد أنـه لا ينـبغى أن نؤكـد أن المجتمع شكل خاص لحالة عقلية داخلية تناقض الصيغ الخارجية والألية عند الرواد مثل : كونت وسبنسر ودوركايم[١] .

ويذهــب " تونــيز " أن مفهومــى الجماعــة والمجتمع ، لايشــيران فقط إلى ظاهرة التجمع الانسانى ، بل أنهما يعكسان مراحل تطورية للنمو ، فالمجتمع ينبثق حينما ينفصل الأشخاص ، وتتحرر الجماعات فى إطار الجماعة المحلية ، ولقد أبدى تونيز تفضــيله للقيم المرتبطة بنموذج الجماعة المحلية .. ، مما جعل بعــض الكــتاب يفسرون أفكاره على التطور التاريخى على أنها تمثل نظرية نكوصية – غير أن تونيز أنكر أنه أتخذ هذا الموقف فالــناس كمــا يقــول يموتون منذ أزمان سحيقة إلا أن احداً من العلماء الطبيعيين،لا يستطيع أن يدين العصور القديمــة فى شىء

(١) جراهام كينلوتش : تمهيد فى النظرية الاجتماعية ، مرجع سابق ص ١٠٨.

ويعترف تونيز فى أعماله الأخيرة بأن هذا الاتجاه يمكن أن يسير فـــى خط عكسى " على نحو يماثل الأشتراكية الوطنية عند هانز ولكـــن هـــذا لـــن يحـــدث باستخدام مناهج شكلية مثل الخطابة والأستغراق فى تأمل الماضى . ولقد ترتب على أرتباط الجماعة المحلـــية والمجـــتمع بـــنمطى الارادة . أن عالج تونيز العلاقات الاجتماعية على أنها تجليات أو مظاهر لها فالإرادات الانسانسة قـــد تدخـــل فى أنماط عديدة من العلاقات فإما أن يؤكد استمرار الـــنظام الاجتماعى بالمحافظة عليه أو تعمل على هدمه وتحطيمه غير أن علماء الاجتماع يدرسون فقط النوع الأول وهو العلاقات الايجابية المتبادلة[١] .

وتخـــتلف هذه العلاقات من حيث درجة شدها وهكذا ينشأ كيان إجتماعى . إذا ما تحقق بين شخصين علاقة محددة . وغالبا مـــا تصـــبح هذه العلاقة موضع اهتمام الآخرين . وحينما يتسع نطـــاق هذا الكيان الاجتماعى لأكثر من شخصين تتكون دائرة . أما إذا كانت وحدة الأفراد نتيجة لسمات طبيعية أو نفسية مشتركة بيـــنهم . فهم بذلك يكون تجمعا وأخيرا إذا تحقق نوع من التنظيم يحدد لكل فرد وظائف معينة . فإن الجسم الاجتماعى يأخذ شكل الهيـــئة أو المؤسسة وتعتمد كل هذه الأشكال الاجتماعية فى رأى تونيز إما على إرادة إنسانية أو إرادة تحكمية[٢] .

---

(١) نيقولا تيماشيف – مرجع سابق ص ١٦١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٢ .

ومـــع ذلك كله ، فمن العسير أن ندرك كيف يصبح جماعة محلية ، أو تصبح الهيئة مجتمعاً .

ولقد قدم تونيز تصنيفاً مبتكراً للمعايير الاجتماعية ... ، فهو يقرر أن القانون يتألف من المعايير الاجتماعية التى يتعين - وفقاً لمعانيها - أن تطبقها المحاكم ، أما القواعد الاخلاقية فهى تنطوى على معان معينة ، بحيث يتعين أن تطبق بواسطة قاضى مثالى ، سواء كان شخصاً أو قوة الهية أو رمزاً مجرداً ، ويتكون الاتفاق مـــن تلـــك القواعـــد التى تعتمد على علاقات تنتمى إلى نموذج الجماعـــة المحلـــية ، ونعتـــبرها علاقات ضرورية أو طبيعية ، والاعـــراف هى قواعد لها جذور فى العادات الجمعية ، فى حين أن المواضعات تعتمد على اتفاق - صريح أو ضمنى - يأخذ فى الاعتبار الأهداف المشتركة ، وتكون القواعد المحددة هى أفضل وســـائل تحقـــيقها ، ومـــن الواضـــح أن هذا التصنيف للمعايير الاجتماعـــية مرتـــبط إلـــى حد بعيد بالتمييز الاساسى الذى قدمه تونـــيز بين أنماط الجماعات الاجتماعية ، فالقانون والمواضعات يمـــيزان المجتمعات " المنظمات " أما الأخلاق والاتفاق فيميزان المجـــتمعات المحلـــية ، بيـــنما يمكـــن أن تســـود الأعراف فى النموذجين معاً[١] .

ويـــرى تونـــيز أن الجماعة ظهرت أولا من وجهة النظر التاريخية ، لأن الجماعة البدائية والأسرة والقبيلة تعتبر كلها أمثلة

---

(١) نيقولا تيماشيف - مرجع سابق ص ١٦٢ .

لهـا ، ثـم بدأ المجتمع يطغى على الجماعة بمرور الزمن وأخذ ينمو على حسابها ، ولذلك كلما أخذ ارتباط الانسان بالجماعة يقل وكلمـا أخـذت إتصـالاته التعاقدية والمصلحية تزداد ، أصبح الانسـان عضواً فى أعداد كبيرة من الجماعات ، وكان من أهم العوامـل التى عملت على هذا التغيير النمو الصناعى والتجارى ونمـو الطبقة البرجوازية وقيام الطبقات الاجتماعية على حساب المجتمعات الزراعية والريفية[١] .

القضايا الأساسية :

ولقد فهم تونيز المجتمع بأعتباره تعبيراً عن نوع خاص من الارادة الجمعية ، سواء أكانت الارادة طبيعية فطرية أم عقلانية ، وتعمـل هاتـان الاراداتـان على المستوى الفردى والجمعى ، ويمثلان نسقا عضويا .

ويثير مدخل تونيز عدداً من القضايا من أهمها :

١- الحقيقة المستقلة للإرادة الجمعية على مستوى المجتمع .

٢- المشكلات المتأصلة فى هذا التقسيم الثنائى المبسط .

٣- وجود نمطين للارادة الاجتماعية .

٤- ثمـة عدد من العوامل الاجتماعية الأخرى تساهم فى النسق الاجتماعى .

---

(١) عبد الحميد لطفى ، مرجع سابق ص ٢٨٢ .

وبالـــرغم من هذه القضايا - فإن عمل تونيز يكمل ويساهم فى النمط الاجتماعى للنظرية العضوية ، وصار نمطه الأساسى الـــذى قامـــت علـــيه أعمـــال تالـــية فى كل من علم الاجتماع والانثروبولوجيا[١] .

إلا أن تونيز كان متشائماً فى دراسته هذه لأنه كان يرى أن الانسانية بانتقالها من شكل الجماعة إلى شكل المجتمع إنما تتقهقر وتتأخر[٢] .

أن المســـاهمة الحقيقـــية لتونيز تتمثل فى اقتراحه تصنيف الجماعـــات الاجتماعية ، أو نماذج المجتمعات ، فمن الممكن بعد إجـــراء تعديـــلات طفـــيفة أن نعتبر تمييزه بين الجماعة المحلية والمجـــتمع ممـــاثلا فى بعض الوجوه للثنائيات التى تطورت بعد ذلـــك عـــند كتاب آخرين مثل تمييز هنرى بين المكانة والعقد ، والتضامن الالى والعضوى عند دوركايم ، ومع أن الثنائية تعتبر نوعاً من التطرف فى تبسيط مبلغ التباين والتنوع الذى يميز حياة الانسان فى الجماعة ، إلا أن صياغة تونيز ما تزال مستخدمة فى التحليل السيوسيولوجى[٣] .

---

(١) جراهام كينلوتش ، مرجع سابق ص ١٠٩ .

(٢) عبد الحميد لطفى ، مرجع سابق، ص ٢٨٢ .

(٣) نيقولا تيماشيف – مرجع سابق ص ١٦٣ .

الفصل الرابع عشر

باريتـــــو

- باريتو وكتاباته النظرية .
- علم الاجتماع ومناهجه .
- باريتو والسياق المعرفى والواقعى .
- باريتو والحوار مع الوضعية الاجتماعية .
- باريتو والدروانية الاجتماعية .
- النسق الاجتماعى بناؤه وديناميياته .
- باريتو والقياس الكمى للوضعية المحدثة .
- باريتو والتحليل بمتغيرات غير ماركسية .
- التصنيف الرئيسى للأفعال .
- القضايا .
- تقويم .

فلفريدو باريتو ١٨٤٨ - ١٩٢٣

باريتو وكتاباته :

ولد عالم الاجتماع الايطالي باريتو (١٨٤٨ - ١٩٢٣) في باريس عن أب ايطالي وأم فرنسية ، ولعل ذلك هو ما يفسر المامه باللغتين الفرنسية والايطالية ، وقد عاد باريتو إلى إيطاليا وهو في الحادية عشرة من عمره ، وبعد أن أتم دراسته الأساسية ، تخرج في معهد الهندسة ، وعمل لعدة سنوات في وظيفة منهدس إستشاري بالسكك الحديدية ، ثم عين مراقبا لمناجم استخراج الحديد ، وتمكن من أن يطور اهتماماته بالمشكلات الاقتصادية ، وكرس حياته للدراسة والبحث .

نشر باريتو مجموعة من المقالات الممتازة في الاقتصاد ، مما كان سببا في تعيينه أستاذا للاقتصاد بجامعة لوزان عام ١٨٩٢ ، وقدم مساهمات قيمة في مجال الاقتصاد الرياضي ، ونشر مؤلفه " الأنظمة الاشتراكية ، وبدأ عمله الأساسي في كتابه عبارات انتقالية لاذعة للديمقراطية[١] .

ولعل من الضروري لفهم حياة باريتو وتفكيره أن نتعرف على القراءات العلمية التي تعرض لها والتي كان لها وطأتها على تفكيره :

١- مجموعة قراءات الفكر الاغريقي والروماني ، وكان لدى باريتو عاطفة قوية نحو التراث والتاريخ الاغريقي

(١) نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٢٦٠ .

والـــروماني ... ، ومـــن ثم يرى أن علم الاجتماع يعتبر دراسة لأوربا القديمة بقدر ما هو دراسة للمجتمع الأوربى المعاصر .

٢- مجموعـــة النماذج النظرية التى طرحها فكر التنوير ، حيـــث هـــاجم باريتو فكر التنوير ، وذهب إلى القول بأن العقل يعتـــبر وســـيلة غير ملائمة ، وربما غير صالحة لفهم المجتمع والتاريخ .

٣- وتتمثل فى المؤتمرات الفعلية من داخل علم الاجتماع كـــنظام عقلـــى . وهو التأثير الذى لم يسلم به باريتو أبداً . ربما لأنـــه كما ذهب أرفنج زاتيلين قد شعر بأنه قد فاق كل السابقين عليه بما فيهم أرسطو وميكيافيللى وماركس ودارون وآخرون إذا نجـــده وهو يكمل دراسته "مقدمة فى علم الاجتماع" لا يقتبس من أى شـــيء آخـــر مؤكداً أن ذلك لا أهمية له فى الدراسة العلمية للظواهر الاجتماعية وهو الأمر الذى دفع محرره ومترجمه أرثر لفتجســـتون إلى القول أنه فى إطار عمل ضم ملايين الكلمات لم يذكر باريتو المفكرين العظام الذين أخذ عنهم " فهو لم يذكر تأثره العـــام بكونت ونظرية المشتقات لبنتام " حيث نقل باريتو بعض قضـــاياه حرفـــيا " نظـــرية الرواســـب عن جيمس فريزر هذا بالاضـــافة إلى كثير من التفصيلات التى أخذها عن هيجل ووليم جيمس وأخرين كثيرين[1] .

---

(١) على ليله – المرجع السابق ص ٦٦٩ .

علم الاجتماع ومناهجه :

إن أهـم ما يميز باريتو فى علم الاجتماع هو تأكيده للطابع العلمى (الامبريقى) فهو فى كتابه " المقدمة " يعرض كثيراً من الملاحظـات الـناقدة لما يسى بالنزعة العلمية الزائفة عند كونت وسبنسر ، وكذلك إشارات ساخرة " للديانات " العلمانية عن التقدم، والانسانية ، والديمقراطية [١] .

ويرى باريتو أن ما يجنبنا الوقوع فى هذه الفجوات غير العلمية ، هو أن يستخدم على الاجتماع المنهج التجريبى المنطقى ، والـذى يعـتمد أساساً على الملاحظة والاستنتاج المنطقى ، وفقاً لقواعـد الاستقراء الأساسية التى حددها " حون ستيورات مل " فالعـالم التجريبى " القابل للملاحظة " - فى رأى باريتو - يتكون مـن ظواهر وعلاقات من الممكن إدراكها بالحواس ، وعادة ما يتيسر أخضاعها للقياس ، ومع ذلك كله فقد عالج باريتو فى كتابه " المقدمـة " مجموعة من الظواهر التى لا تنتمى إلى هذا العالم التجريـبى ، وأن كانت تقوم بدور كبير فى الحياة الاجتماعية ، وهـذه الظواهـر هـى : الأفكـار ، والمجررات ، والآراء ، والمعـتقدات والعواطف ، ولكنه إعتقد أن مهمته الأساسية تتمثل فـى أن يجعل من هذه الظواهر وقائع ممكنة الملاحظة ، بحيث تنـتمى إلى عالم الوقائع كما حدده هو ، ولقد ترتب على هذا أن حـذر باريـتو من أتباع إجراءات لفظية ، فهو يذهب إلى أن " العلوم الطبيعية لم تبنى على أساس دراسة وتصنيف مصطلحات

---

(١) نيقو لا تيماشيف – مرجع سابق ص ٢٦١ .

اللغـــة العاديـــة ، بل هى تنهض على دراسة الوقائع وتصنيفها ومن ثم يتعين علينا أن نفصل ذلك بالنسبة لعلم الاجتماع " [١] .

باريتو والسياق المعرفى والواقعى :

شـكل تفكير باريتو جدلا مع فكر التنوير ، وهى المرحلة الفكرية التى انتهت بقيام الثورة الفرنسية والنظرية السوسيولوجية ، أى قيام التفكير العلمى المنظم بشأن المجتمع ، وإذا تمثلت أفكار التنوير الرئيسية فى الايمان بالعقل والايمان بالتقدم ، لأن ما هو أكـثر اكـتمالاً مازال فى قلب المستقبل ، هذا إلى جانب التفكير العلمى الطبيعى ، لحساب التخلى عن الميتافيزيقا فكراً ومنهجاً[٢].

ويرفض باريتو تأكيد تأثير التنوير على العقل كمدخل لفهم المجـتمع ، باعتـبار أن العقـل ليس إلا عاملاً غير ملائم لفهم الـتاريخ ، وإذا كـان ثمة إيمان بعقلانية الانسان وكماله ، وهى القضـية التى ركز عليها فكر التنوير ، فاننا نجد أن باريتو يرى أن الانسان غير عقلانى أساساً ، وأن التاريخ لا يضيف إليه تقدماً ، فهـو كائـن لا يسيرة العقل . وأنما تسيره الرواسب الكامنة فى أعماقـه وإذا كانت الانساق النظرية التى شهدتها مرحلة التنوير وهـى المرحلة التى عايشت ميلاد النظرية الاجتماعية قد أكدت علـى مـبدأ التقدم أو التطور نحو الكمال الانسانى فإننا نجد أن باريتو على خلاف التنوير ينظر إلى التاريخ باعتباره يسير دورياً ومـن ثـم فقـد قدم نظريته عن الصفوة التى تتناوب عناصرها مراكز القوة والسلطة فى المجتمع دون أن يكون لهذا التنـاوب أو

(١) نيقولا تيماشيف – مرجع سابق ص ٢٦١ .

(٢) على ليله – النظرية الاجتماعية المعاصرة ، مرجع سابق ص ٦٧٢ .

التغـــير الـــناتج عـــنه أى تأثير على حالة البشر الذين يشاركون عضـــوية هذا المجتمع فهو الذى قال أكثر من مرة أن المضمون واحد والأشكال هى التى تتغير فقط[١] .

وفى محاولة رصد الاتجاهات النظرية التى عايشها باريتو الـــتى تفاعل معها وأخذ عنها أفكار أو رفض أخرى فإننا سوف نجـــد أن هـــناك ثلاثـــة تـــيارات أساسية هى التى كانت موضع اهـــتمامه وتركيز أول هذه التيارات هو العلم الطبيعى والنموذج الفكـــرى الـــذى وقف أمامه باريتو متسائلا حول إمكانية اتخاذه نموذجا لفهم الظواهر الاجتماعية وتمثل الوضعية الاجتماعية كما اسســـها سان سيمون وأوجست كونت ومن تأثر بهما مثل جبتانو موســـكا . ثـــاتى هـــذه التيارات الفكرية وتمثل الماركسية التيار الفكـــرى الثالث الذى طرح حلولا جريئة أرهقت العقل الأوربى فـــى هـــذه المرحلة هذا إلى جانب كثير من الأفكار التى كان لها تأثـــيرها علـــيه . وهـــى الأفكار التى تنتمى إلى الفلسفة المثالية خاصة ماكس فيبر كتغير سوسيولوجى عن هذه الفلسفة[٢] .

ويؤكـــد باريـــتو أن الأسلوب العلمى يجب لأن يقوم على تفسير ما هو غير معروف على أســـاس ما هو معروف ، ومعنى

---

(١) على ليله – النظرية الاجتماعية المعاصرة ، مرجع سابق ص ٦٧٢ .
(٢) على ليله – المرجع السابق ص ٦٧٣ .

ذلك أن تفسير الماضى من خلال الحاضر ، هو أفضل من تفسير الحاضر على ضوء الماضى ، وهذا المبدأ غالبا ما تفعله البحوث والمؤلفات فى علم الاجتماع ، وهو يؤكد أخيراً ضرورة تعريف المفاهيم الأساسية فى العلم تعريفا محدداً ، وصياغة نظرياته فى مصطلحات دقيقة(١) .

وثمة خاصيتان يميزان أعمال باريتو :

الأولى : أن أعماله تكشف عن إستمرار واضح فى خطه الفكرى .

الثانية : هى أنه تبنى بعض المفاهيم الرئيسية التى كتب لها الذيوع والانتشار خلال القرن التاسع عشر ، فضلا عن الانتقادات اللاذعة التى وضعها ضد أفكار أخرى .

وربما كانت القضية الأساسية التى جذبت إليها اهتمام باريتو هى : تحليله للنسق الاجتماعى فى ضوء العلاقة المتبادلة بين عناصره ، ومكوناته البنائية ، وما تؤديه من وظائف فى الحياة الاجتماعية ، فضلا عن قبوله فكره التطور الاجتماعى (٢) .

ومع أن باريتو يتحدث كثيراً عن الدارونية الاجتماعية والماركسية فإن هربرت سبنسر هو الذى أحدث فيه هذا التأثير ، وبالرغم من أنه انتقد بعض آراء هربرت سبنسر ، فإنه تبنى تصوره وتحليله للتطور الاجتماعى فى ضوء فكرة النمو من

(١) نيقولا تيماشيف – المرجع السابق ص ٢٦١ .

(٢) محمد على محمد ، مرجع سابق ص ٢٠٠ .

حالة التجانس والبساطة إلى حالة الاتجانس والتركيب مع تزايد التساند المتبادل بين الأجزاء أيضاً[١] .

ويـرى باريـتو أن محور إهتمام علم الاجتماع هو تحديد وتصـنيف وتوزيع ارواسب فى المجتمع ، وتتبع مدى تكرارها وتغـيرها ، وقـد اقتضـى ذلك منه استخدام الملاحظة العلمية والتجريـب والتركـيز علـى العلاقات الوظيفية والاضطرادات والانـتظام والارتـباط ، وعلـى العموم فعلم الاجتماع يتضمن الدراسة العلمية للرواسب السائدة فى المجتمع[٢] .

باريتو والحوار مع الوضعية الاجتماعية :

تعتـبر الوضـعية الاجتماعـية كما طرحها سان سيمون وأوجسـت كونت الرافد الثانى الذى كان لباريتو موقفا واضحا معـه ، حيـث كان لدى باريتو طموحاً لخلق علاقة بين النظرية الاجتماعية الميكافيللية ، وهى التى تنتمى إلى الفكر الايطالى من ناحـية ، وبيـن الفكر الوضعى بأشكاله المتعددة ، سواء كانت السـان سـيمونية أو الوضـعية الكونتية أو حتى تلك المتصلة بالدارونـية الاجتماعـية من ناحية أخرى ، ويؤكد باريتو أنه قد صـدم بسبب إصرار أوجست كونت على أن العواطف وليست الأفكار هى المسئولة عن التماسك الاجتماعى ، ويسخر من كونت

---

(١) محمد على محمد – تاريخ علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٢٠٠ .

(٢) جراهام كينلوتش – تمهيد فى النظرية الاجتماعية ، مرجع سابق ص ١٤١.

باعتـــباره قد أصبح نبى الديانات الجديدة ، فبدلاً من دراسة أثار الديانـــات التاريخـــية والمعاصرة ، نجده قد رغب فى خلق ديانة جديدة ، إلا أن باريتو قد تعلم كثيراً من كتاب " النظم " لأوجست كونت [١] .

وتكشف المقارنة عن وجود تشابه كبير بين نظريات باريتو وسان سيمون الذى أكد أن البشر يولدون وهم متباينون من حيث ملكاتهم ، وأنه نتيجة لذلك ينبغى تنظيم المجتمع تنظيماً متدرجاً ، بحيـــث يـــتولى الأمـــر فيه ذوى القدرات العالية ، ويعتبر تأكيد باريـــتو علـــى الفـــرص الكاملة للحراك الاجتماعى ، والمراكز المفـــتوحة أمام الموهبين ، من القضايا التى تتماثل إلى حد كبير مع سان سيمون[٢] .

باريتو والدرونية الاجتماعية :

تعتـــبر الدارونية الاجتماعية من النماذج النظرية التى كان "لباريـــتو علاقـــة واضـــحة بها ، فهو قد أخذ عنها ورفض فيها أفكاراً كثيرة ، ويمكن القول أن باريتو قد أعجب كثيراً بالدارونية الاجتماعـــية خاصـــة فى كتاباته الأولى وكذلك بهربرت سبنسر كـــأحد رواد الدارونـــية الاجتماعـــية ، ويمكن القول بأن كتابات باريـــتو حـــتى ١٨٩٦ كانت تشير إلى اعتقاد واضح فى ليبرالية القرن التاسع عشر ، وهو الاتجـاه الفكرى الذى كان يفرض عليه

---

(١) على ليله – النظرية الاجتماعية المعاصرة ، مرجع سابق ص ٦٨٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٨٠ .

ليس مجرد رفض تدخل الدولة أو مجرد النضال من أجل الحرية التجارية والحرية الفردية ، ولكن أيضاً الاعتقاد فى التقدم كشعار أساسى يحكم تفاعل المجتمعات وتطورها ، ويكشف ذلك عن استفادة باريتو من مفهوم هربرت سبنسر عن التباين الاجتماعى ، مؤكد أن المجتمعات تتحرك خلال التاريخ من مرحلة متجانسة إلى مرحلة غير متجانسة ، وأن الدافع وراء هذه الحركة التاريخية أن هناك درجة من التباين الاجتماعى المطردة التراكم ، والتى بدأت منذ أيام الامبراطورية الرومانية وحتى الوقت الحاضر، أن سبنسر خلال هذه المرحلة كان ناقداً لسبنسر والداروني ة الاجتماعية ...، إلا أنه ظل مديناً للدارونية والأفكار السبنسرية المتعلقة بالتساند والتبادل بين كل الظواهر الاجتماعية[1] .

النسق الاجتماعى : بناؤه وديناميانه :

من أهم إسهامات باريتو فى النظرية السوسيولوجية تصوره للمجتمع بأعتباره نسقاً يحقق توازناً ، فقد استطاع علم الاجتماع على أساس هذه النظرية ، أن يهجر النزعة العضوية الفجة ، دون أن يتخلى عن بعض القضايا العضوية الرئيسية [٢] .

وإذا كان المجتمع يمثل نسقاً ، فهو إذاً كل يتألف من أجزاء متساندة ، بحيث أن التغير فى جزء معين يؤثر على بقية الأجزاء

---

(١) على ليله – النظرية الاجتماعية المعاصرة ، مرجع سابق ص ٦٨١ .

(٢) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ص ٢٦٣ .

والكل معا ، أما " العناصر المادية " أو " الجزئيات " التى يتألف منها النسق الاجتماعى ، فهى فى رأى باريتو - تتكون من الأفراد الذين يخضعون لتأثير قوى اجتماعية ذات سمات عامة أو ثابتة ، وتتحدد حالة النسق الاجتماعى بالظروف التالية :

أولاً : البيئة الخارجية عن الانسان .

ثانياً : مجموعة أخرى من العوامل التى تخرج عن نطاق المجتمع فى وقت معين ، وتشمل المجتمعات الأخرى المحيطة به ، وظروف المجتمع نفسه فى فتراته السابقة .

ثالثاً : عناصر النسق الداخلية ، وبالذات المصالح والمعرفة والرواسب والمشتقات دراسة مفصلة[١] .

والمجتمع فى رأى باريتو يمثل نسقا فى حالة توازن ، وهذا يعنى أنه يوجد بداخل كل مجتمع قوى تعمل على تدعيم الصورة (أو الشكل) التى حققها المجتمع أو استقر عليها دون أن تتعرض لتغيرات ، ويتميز التوازن فى هذه الحالة الأخيرة بأنه توازن دينامى ، ويترتب على ذلك نتجة هامة مؤداها : أنه إذا خضع النسق الاجتماعى لضغط تمارسه قوى خارجية ليست بالغة الشدة ، فإن قوى النسق الداخلية سوف تدفع المجتمع إلى إستعادة التوازن ، وتعمل بدورها على إرجاع المجتمع إلى وضعه المستقر ، وتتألف هذه القوى الداخلية - أساساً - من عاطفة

---

(١) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ص ٢٦٣ .

الـثورة علــى أى شـــىء يعوق التوازن الداخلى ، وبدون هذه العاطفــة يكــون من العسير مقاومة أى تعديل طفيف يطرأ على النسق الاجتماعى ، إن لم تتعذر مقاومته على الاطلاق ، وبالتالى يحقق آثاره دون اعتراض [١] .

ولقد تدعمت نظرية إستعادة التوازن الاجتماعية - إلى حد ما - من خلال دراسة الاستجابات الاجتماعية للجريمة ، والنتائج المترتــبة علــى الثورات ، وأثار الحرب على المجتمعات ، فقد أمكــن الكشف فى هذه الحالات وغيرها عن مجموعة كبيرة من الشواهد التى أكدت الطابع المؤقت للتقلبات الاجتماعية ، والطبيعة الدائمة أو المستقرة للترتيبات الإجتماعية الأساسية [٢].

وكل الانساق النظرية فى هذه المرحلة أهتم باريتو بقضية الـنظام الاجتماعى ولو على طريقته الخاصة ، ولقد دفع باريتو إلـــى الاهــتمام بهذه القضية نوعين من القضايا أو المشكلات ، الأولــى مــا يمكن أن تسميها بالمشكلات التاريخية ، ويقصد بها مجموعة التفاعلات التى خلقت من العوامل ما ساعد على إنهيار الـنظام الاجــتماعى فى المرحلة التاريخية التى عايشها باريتو ، وهــو ما يعنى بداية الاهتمام بقضية النظام الاجتماعى ، وما هى أفضـــل الظـــروف ملائمة لاستمرار النظام الاجتماعى بالحيوية المطلوبة ، أما المشكلات التحليلية ، وهى مجموعة المشكلات أو القضايا التى ينتفى عنها الطابع الواقعى ، والذى يكون مصدرها التصـــورات التحليلية والنظرية للمفكر أساساً ، كذلك التصورات التى تتعلق بالطبيعة الانسانية ، أو التى تتصل بتوزيع الفرص فى

---

(١) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ص ٢٦٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٨ .

المجــتمع ، أو الخاصـــة باســتمرارية الصفوة فى السلطة ، أو إنهيارها لتحل صفوة جديدة فى إطار ما يعرف بدور السلطة[١] .

ذلــك يعــنى أن الــنظام الاجتماعى لدى باريتو يعانى من مشــكلة بنائــية لها عواملها التاريخية التى تتمثل فى : الانقسام البــنائى بيــن الشــمال والجنوب لا يسوده التجانس ، وضعف الصــفوة الحاكمــة ســواء اليميــن أو اليســار ، انتشار الفساد الاقتصــادى والاجــتماعى لغياب التوجيه الايديولوجى والثقافى الملائــم ، وهــذه المشــكلة لها أسبابها التحليلية الآتية : الطبيعة البشرية للانسان واستخدام القوة لغرض أتباع السلوك الاجتماعى ، التناقض فى مصالح الجماعات ، وضعف روابط القوة والسيطرة عــند الصــفوة الحاكمة ، مما قد يفرض تجاوزها بصفوة أخرة تمتلك رواسب قوية للسيطرة والضبط[٢] .

بذلــك نجــد أن باريتو وأن أكد على وجود مشكلة يعانيها الــنظام الاجتماعى الذى يفتقد إلى الاستقرار والتوازن فإنه يرى أن الحــل الوحــيد لفرض النظام والتوازن يتمثل فى أن تتولى الســيطرة علــى المجــتمع صفوة قوية تفرض الأستقرار بالقوة وتكتســب شــرعيتها السياسية والاجتماعية ليس من المجتمع أو المصــلحة الاجتماعــية ولكــن من خلال قوتها وامكانياتها على استخدام القوة لقهر الآخرين وإخضاعهم[١] .

---

(١) على ليله – النظرية الاجتماعية – مرجع سابق ص ٧٢١ .
(٢) المرجع السابق ص ٧٣٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٧٣٤ ، ص ٧٣٥ .

ومن المنطقى أن يحدد باريتو المتغيرات الأساسية التى تتحكم فى التفاعل الاجتماعى .ومن ثم فأى إعاقة لهذه المتغيرات تعنى تخليقا لمشكلة نظامية ، وأن اباحة المجال لفاعليتها يعنى انتفاء إمكانية قيام مشكلة نظامية أساسا ، ومثلما فعل ماركس إلى التأكيد على وسائل الانتاج باعتباره المتغير الحاكم للتفاعل الاجتماعى ، وكما ذهب فيبر إلى التأكيد على البروتسنتية هى المبدأ الذى يستند إليه النظام الاجتماعى ، أو دوركايم ورؤيته بأن تقسيم العمل هو مصدر مشكلة النظام الاجتماعى وطريق حلها ، يذهب باريتو بأن الرواسب هى المبادىء الأساسية أو المتغيرات الحاكمة للتفاعل فى اطار التنظيم الاجتماعى [١] .

وينهض تحليل القوى الداخلية على التميز بين السلوك (الفعل) المنطقى وغير المنطقى ويكون الفعل منطقياً - فى رأى باريتو - إذا ما استطاع أن يحقق غاية بطريقة موضوعية ، وإذا كانت الوسائل المتبعة تتفق موضوعياً مع هذه الغاية فى إطار أفضل معرفة متاحة ، أما الأفعال التى تخرج عن هذا النطاق فيعتبرها جميعاً أفعالاً غير منطقية ... ، ويرتبط السلوك غير المنطقى بالرواسب والمشتقات ، وهذان الأخيران يعدان مظهران للعواطف غير المتناهية ، والتى تشكل حالات نفسية بيولوجية فى المحل الأول ... ، واعتقد باريتو أن العواطف هى بمثابة غرائز أو ميول إنسانية فطرية ، لذلك أطلق على إحدى العواطف الأساسية " غريزة التكامل " ، ويرى من ناحية أخرى ، أن الرواسب مرتبطة بالظروف المتغيرة التى تعيشها الكائنات الانسانية ، وهو يعنى

(١) على ليله - النظرية الاجتماعية - مرجع سابق ص ٧٣٥ .

بذلـــك أن الأفعـــال التى تتبدى العواطف من خلالها تعمل على تدعيم هذه العواطف ، بل أنها تثيرها عند الأفراد الذين لا تتحقق لديهـــم ، كما أن العواطف تحقق وجودها واستقرارها عن طريق اســتمرار الجماعـــات ودوامها ، ومن ثم تساعد هذه الجماعات على البقاء(١) .

ويذهب باريتو إلى أن بعض العواطف قد تدفع الأفراد إلى تـــبرير أفعالهم عن طريق صياغة نظريات غير منطقية ، يظن أصـــحابها أنهـــا منطقـــية إلى حد بعيد ، وفحص هذه النظريات يمكنـــنا مـــن التمييز بين ما هو عميق ودائم ، وبالتالى ما يعتبر عناصـــر هامـــة ، أى الرواسب ، ثم يمكننا من جهة أخرى من التعرف على ما هو سطحى ومتغير وبالتالى ما يعد عناصر غير هامة ، أى المشتقات ، ومن اليسير إذن نكتشف الرواسب - بعد دراســة قضايا متنوعة متعلقة بهذا الموضوع - نتمكن بعدها من استخلاص العناصر الدائمة(٢) .

وفـــى حيـــن يرى ماركس أن الانسان كائنا عقلانيا يمتلك إمكانـــية الكمـــال والاكتمال ، يراه باريتو كائنا لا عقلانيا أساسا وغـــير متغـــير ، وفي مواجهة ذلك يقدم نظريته عن الرواسب بهـــدف شـــرح هذه القضية ، وفى حين يرى ماركس الصراع الطبقى فى التاريخ باعتباره يقع فى الانســـاق الاجتماعية المطرد

---

(١) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ص ٢٦٥ .

(٢) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ص ٢٦٨ .

شـــيوعها أو شعبيتها (على الأقل بمعنى زيادة شوق أو إمكانية الانسان إلى الحرية ، أو السيطرة على قدره) ، ينظر باريتو إلى الـــتاريخ باعتباره دائريا أساسا ، وعلى النقيض المباشر لنظرية مـــاركس عن الصراع الطبقى ، قدم باريتو نظرية الصفوات ... حيـــث تعتـــبر دوره الصفوات هى المادة الحقيقية للتاريخ ، لها نـــتائجها أو آثارهـــا القليلة على الشعب ، أو ربما ليس لها نتائج على الاطلاق[1] .

ويـــرى باريـــتو أن العواطـــف تعتـــبر القـــوى الأساسية والمسيطرة على السلوك الاجتماعى ، وأن المنطق والعقلانية لها أهمية ضئيلة ، وعلى الباحث ألا يتوقف عند تبرير البشر العقلى - الذى يعد لا شىء إلا أن يكون معقولا - وإنما عليه أن يتجه إلى تـــبرير العواطـــف الكامـــنة ، وعلى هذا النحو تصبح العواطف بالنسبة لباريتو ما كان عليه الأساس الاقتصادى بالنسبة لماركس[2] .

وبايجـــاز يرى باريتو البشر - على خلاف ماركس - رؤية ســـيكولوجية مختلفة ، حيث يختلف أبناء الطبقات العليا والسفلى مـــن حيـــث بـــناؤهم السيكولوجى ، وعادة ما يكون ذلك نتيجة للعواطـــف غير المنطقية ، حيث لا يحصل الأفراد من الطبقات الدنيا بصفة خاصة على أى قدر من الوعى أو الادراك العقلانى

---

(١) على ليله – النظرية الاجتماعية المعاصرة ، مرجع سابق ص ٦٨٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٦٨٨ .

لظـــروف حــياتهم أو وجودهـــم ، ثم نجد باريتو يقدم لنا بعض مـــبادىء الحســـاب العلمى المنفعى ، إذ يؤكد أن قدراً معيناً من الارادة الخيرة من جانب الطبقات العليا نحو الدنيا قد يكون له نقع ، غــير أن أى زيــادة قد تكون ضارة ومؤشراً على الانهيار ، إذ تؤدى العواطف الانسانية فى كل فترات التاريخ إلى ظهور نوع مـــن الـــيقظة العاطفـــية . وفيما يتعلق بالصراع الطبقى نجد أن مـــاركس يؤكـــد أنـــه بمجرد اكتمال وعى البروليتاريا وإدراكها لمصالحها ، فإنها عادة ما تقود الثورة والصراع ، ومن ثم تغيير البيـــئة الطبقـــية والبيـــئة الاجتماعية ، ويؤكد باريتو أيضاً على تـــناقض المصـــالح الطبقية .. ، إلا أن باريتو يرى أن الصراع الطبقى من المقرر أن يستمر أبداً وذلك على خلاف ماركس الذى يـــراه ظاهـــرة إنتقالـــية ، أو ظاهرة تاريخية ، ويرى باريتو أن أشكال البناء الطبقى قد تتغير ، بيد أن جوهره يظل كما هو ... ، ذلـــك يعنى أن الصراعات الاجتماعية لها جذورها فى الطبيعة ، وليس فقط فى الطبيعة الأساسية للانسان[١] .

وفـــيما يـــتعلق بالتغير الاجتماعى الذى يراه ماركس نتاجاً للصراع الطبقى وتعبيراً عن وصول التناقض الطبقى إلى منتهاه ، يطرح باريتو رؤية أخرى للتغير الاجتماعى ، أو الاسلوب الذى تنهار بـه الصفوة الحاكمـة ، حيث يؤكد أن الصفوات والطبقات الارستقراطية لا تدوم وانما تفنى بصـورة سريعة ويعبر إنهيار الصفوة عن نفسـه بظهـــور حـالـه متطرفة من النزعـة الانســـانية

---

(١) نفس المرجع ص ٦٨٨ .

المرضية ، بينما تتشكل الصفوة الجديدة الممتلئة بالقوة والحيوية فـــى قلـــب الطبقات الدنيا ... عن طريق إشباع بعض عواطفها ، لكى تحافظ على بقاء القوة أو الحصول عليها(١) .

باريتو : القياس الكمى للوضعية المحدثة :

وقـــد كشـــف دراســـات عالم الاجتماع الايطالى " فلفريدو باريتو " فى مجال علم الاجتماع عن اهتمامه المتزايد بجعل علم الاجـــتماع خاضعا للمتطلبات العلمية ، وذلـك مـا جعلـه يؤكـد علـى الطـابع العلمـى الامبريقى لعلـم الاجتمـاع ، واســـتخدامه المـــنهج التجريـــبى المـــنطقى وفقا لقواعد الاستقراء التى حددها " جون ســـتيوارت مـــل " ، وذلـــك لقناعـــته بضرورة جعل الظواهر الاجتماعـــية ممكـــنة الادراك بالحواس ، وذلك لتيسير خضوعها للقـــياس الكمـــى ، ومن ثم سعى لتاكيد ضرورة تعريف المفاهيم الأساسية فى العلم تعريفا محددا ، ومن ثم جاء تأكيده على أهمية الـــتعريفات الاجرائـــية للمفاهيم والظواهر حتى يمكن جعل هذه الظواهـــر وقائع يمكننا ملاحظتها ، كما أنه اهتم بدراسة السلوك والعقل وتحليله إلى سلوك أو فعل منطقى وسلوك غير منطقى ، ومـــا يرتـــبط بها من ظواهر ، وبذلك كشفت دراسات " باريتو " وتحليلاته السوسيولوجية عن أهمية القياس والسلوك والتعريفات الاجرائـــية باعتـــبارها متطلبات علمية أساسية تدعم علمية علم الاجتماع(١) .

(١) المرجع السابق ص ٦٨٩ .
(٢) السيد شتا : نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٣٤٥ .

ويعتـــبر تأكيد كل من " باريتو " " وبيرسون " على القياس الكمـــى الدقيق فى دراسة الظواهر الاجتماعية ، دعما قويا لهذا الاتجـــاه الذى راج بين المعاصرين الذين يسعون لارساء دعائم المدخـــل الرياضى فى علم الاجتماع كمدخل منهجى يحقق الدقة العلمـــية فـــى معالجة ظواهر الواقع الاجتماعى ، ونظراً لتزايد الاهـــتمام باستخدام الرياضة ونماذجها فى عمليات القياس الكمى للظواهر الاجتماعية ، فقد ساعدت جهود العلماء ، على دعم هذا الاتجـــاه ، إلـــى الحـــد الذى خصص علم الاجتماع له فرعا من فروعه يعنى بتحديد الأسس المنهجية لاستخدام النماذج الرياضية فـــى مجـــال دراسته الظواهر الاجتماعية ، وصياغة النظريات المفســـرة لـــتلك الظواهـــر ، وهو ما يسمى اليوم بعلم الاجتماع الرياضى[١] .

باريتو : والتحليل بمتغيرات غير ماركسية :

يعتبر الحوار مع النظرية الماركسية من المواجهات الهامة الـــتى قادهـــا باريـــتو خلال حياته العلمية ، ونستطيع أن نحدد مواجهة باريتو للماركسية فى مجالين ، الأول المجال المنهجى ، أمـــا الثانى فيمثل مجال القضايا المتعلقة بالواقع العينى المعاش ، وفيما يتعلق بالجوانب المنهجية يرفض " باريتو " اعتبار الجوانب الاقتصـــادية وبالتحديد وسائل الانتاج هى المتغير المستقل ، ومن ثم الضابط الاجتماعى ، إذ اعتبر باريتو الاشتراكية العلمية وليدة

---

(١) السيد شتا : المرجع السابق ص ٣٤٨ .

الحاجة لاضفاء الطابع أو المفهوم العلمى على الطموحات الانسانية ، حيث يعتبر باريتو تحليلات ماركس للنسق الاقتصادى وللعلاقة بين الطبقات ، ثم للاتجاهات البنائية للنسق ، ولمصادر القـــوة السياســـية .. الخ ، مجرد ممارسات لا معنى لها بالنسبة لباريـــتو طالمـــا أن التحليل العقلانى للظروف لا يدفع البشر أو يوجههم بأى معنى فى أى اتجاه[١] .

وتمكنـــنا معرفتـــنا بالرواسب - التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بـــالعواطف أكـــثر مـــن المشـــتقات - من التعمق فى الأفعـــال الانسانية[٢] .

ويرى باريتو أن هناكم ست فئات من الرواسب (وكل فئة تضم عدداً من الفئات الفرعية) وهذه الفئات هى :

أولاً : غريزة التكامل وتعنى القدرة على الربط بين الأشياء.

ثانـــياً : راسب استمرار التجمعات ودوامها ، ويشير ذلك إلى الاتجاه المحافظ .

ثالـــثاً : راســـب ظهـــور العواطف أو تجلياتها فى أفعال خارجية (والتى يدخل فى نظامها صياغة التبريرات العقلية ، أو التعبير عن الذات) .

---

(١) على ليله : النظرية الاجتماعية المعاصرة ، مرجع سابق ص ٦٨٤ .
(٢) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ص ٢٦٧ .

رابعـــاً : راســب الألفة الاجتماعية ، أو الدافع نحو تكوين مجتمعات وفرض سلوك محدد .

خامساً : راسب التكامل الشخصي ، وهو الذى يعمل على إتيان أفعال تعمل على استعادة التكامل إذا طرأ عليه تغيير ، مثل الأفعال التى تعتبر مصدراً للقانون الجنائى .

سادسا : الراسب الجنسي .

ومـــن الملاحـــظ أن هذه الرواسب تتداخل مع بعضها فى الحـــياة الاجتماعية بصورة مختلفة ، فتحقيق التكامل بين التوازن واستمرار الجماعات - مثلا - يعمل على إيجاد قوى مركبة ذات أهمية اجتماعية كبيرة ، ترتبط بعواطف واضحة وقوية من النوع الذى نطلق عليه مصطلحا غامضا هو : " مثال العدالة "[1] .

ويؤكـــد تيماشـــيف أن تصنيف باريتو على ما أوضح أحد دارســـيه " يمثل عملاً جاداً وهاماً لواحد من الرواد " فعلى الرغم مـــن الأضافات والتعديلات التى أدخلت على هذا العمل الهام الا إنـــه من غير المتوقع أن يحاول الباحثون تطوير هذا الجانب من أعمال باريتو نظراً لما ينطوى عليه من أخطاء واضحة .

حيـــث كان تصنيف بارينو معتمداً إلى حد ما على دراسته لبيانات مستمدة اساساً من مؤلفين قدامى . فقد ذهب إلى إن هناك تراثاً هائلاً يصوره الحياة الواقعيـــة عموماً . وبالتـــالى فالتركبز

---

(١) نيقولا تيماشيف – المرجع السابق ص ٢٦٨ .
(٢) وانظـــر أيضا :على ليله ، النظرية الاجتماعية المعاصرة ، مرجع سابق ص٢٩٩

على دراسته هذا التراث الكلاسيكى لا يفسح مجالا للتحيز . ولما كانت الرواسب هى القضايا الدائمة " العامة " فمن اليسير اشتقاقها مـــن التحليل الدقيق للتراث الكلاسيكى . وكل عنصر نختاره من هذه المصادر يتعين أن نفسره منذ البداية إنه مظهر لعاطفة معينة . ومـــن ثـــم نخضـــع العناصـــر الجزئية للمقارنة . ثم نؤلف من مجموعات العناصر المتشابه فئات محددة أو فئات فرعية والواقع أن هـــذا الأجزاء والذى يصعب أعتبارها خطوة متقدمة على ما يعرف الآن بتحليل المضمون هو أقرب شىء للمنهج الاستقرائى يمكن أن نعثر عليه فى أعمال باريتو[١] .

التصنيف الرئيسى للأفعال : أن التصنيف الرئيسى للأفعال الذى ينبغى أن يأخذ به علم الاجتماع كعلم هو أن يصنف نماذج العقل إلى نماذج منطقية ونماذج غير منطقية ، وقد اعتقد باريتو أن كـــل الجهود الانسانية لتفسير السلوك الانسانى قد سارت فى الاتجـــاه الخطـــأ ، حيـــث اتجهـــت معظم التفسيرات البيولوجية والفلسفية وحتى العلمية إلى تجاهل العناصر غير المنطقية فـى السلوك الانسانى ، ويمكن أن نجد أمثلة فـى أعمـال : ارسطو ، وأفلاطون .. وكونت وسبنسر ، وتشـــكل الملامح الرئيسية للفعل (الرواسب) وليست العناصر المتغيرة (المشتقات) نقطة البدء الحقيقية لعلم الاجتماع التجريبى المنطقى وتعتبر الرواسب ثوابت غـــير منطقـــية وهـــى بطبيعـــتها تجليات للعواطف ، وتتطابق الرواســـب - عند باريتـــو - من مختلف الجوانب مع ما يصفـــه

(١) على ليله - النظرية الاجتماعية المعاصرة ، مرجع سابق ص ٧٥٣ .

" شــوبنهاور" و " نيتشــه " بتجليات الارادة ، ويرى باريتو أن الرواســب تعتــبر القــوى الحقيقية الكامنة وراء تأكيد التوازن الاجتماعى[١] .

مسلمتان أساسيتان :

أن التحلــيل المــنهجى الذى قدمه باريتو للمجتمع والتغير الاجتماعى لا يعد فحسب تحليلاً يركز على الظروف الاجتماعية ـ النفســية ، ولكــنه يركــز أيضــا على الارتباط بين الامكانيات الســيكولوجية الكامــنة فى العقل الانسانى والتى تفسر بها كافة أنشطة التنظيمات الاجتماعية والثقافية فى كل المجتمعات [٢] .

أن فهــم أفكار باريتو تنطلق من مسلمتين رئيسيتين يمكن صياغتهما وتفسيرهما على النحو التالى :

المسلمة الأولى : أن علم الاجتماع هو العلم الذى يسعى إلى تحليل شروط توازن الانساق الاجتماعية تحليلاً علمياً:

أن اهتمام باريتو الأساسى بتطوير علم الاجتماع كان يدور حــول تحقــيق تــوازن النسق الاجتماعى ففى مؤلفه مقدمة علم الاجــتماع يصــرح بــأن دراسة (أصل) العواطف الانسانية والرواســب تعتــبر ذات أهمية لعدة أغراض ... ، فهو يتضمن افتراضــا بنائياً وظيفيا حول التفاعل والتساند بين مكونات النسق الاجتماعى ويفترض وجود تفاعل مستمر بين مجموعة كبيرة من

---

(١) المرجع السابق ص ٦٩٨ .

(٢) محمد على محمد – تاريخ علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٢٠٨ .

العناصـــر ، ومـــن ثـــم يرفض التفسير التطورى الأحادى لكل المجـــتمعات فـــى كل المواقف التاريخية ، وهو يمثل توسعاً فى مقولة تحليل التوازن واللاتوازن فى التغير الاجتماعى التى قدمها واستعان بها عديد من المفكرين السابقين عليه ، فضلا عن إضافة الـــبعد الاقتصادى لهما .... ، أن باريتو يتحدث عن " بناء " أو " فزيزلوجـــية " النسق الاجتماعى ، ويقبل التصور العضوى عند التفكير فـى الـتطور الاجـتماعى ، ولكـنه يـرفض الاعـتماد المطلق علـى الممـاثلات العضـوية كأسـاس لتحـليل الـتوازن الاجـتماعى ، وهكذا نجد أنـه يتبنى عن قصد " نموذجاً آليا " لا يقوم على حتمية جامدة وانما ينطوى علـى درجة كبيرة من المرونة ، ولعل هذا هو ما يفسر تصوره عن " التوازن الدينامى "[١] .

وحول مكونات البناء الاجتماعية يركز باريتو بصفة خاصة على عنصرين أساسيين هما :

الأول : الاســـتعدادات النفســـية الأساســـية التى ذودت بها الطبيعة البشرية .

والثانى : كيفية توزيع هذه الاستعدادات بين الصفوات .

المســـلمة الثانـــية : العقـــل والفعل فى المجتمع : أى ضرورة التفرقة بين الفعل المنطقى وغير المنطقى :

أن التحلـــيل الكلـــى الذى قدمه " باريتو " للمجتمع وتوازنه يستند إلى تصـــوره عن استمرار بعض الصفات المتميزة للعقـــل

---

(١) محمد على محمد – مرجع سابق ص ٢٠٨ .

الانسـاني ومـن ثـم فإنه يتعذر على علم الاجتماع العلمي عند باريـتو أن يقـبل أى قضـية أو فكرة مسبقة ، وليست الأفكار والقضـايا الـنظرية فى علم الاجتماع أفكاراً أو قضايا مطلقة ، ولكـنها عـبارات نسبية أو قضايا احتمالية تخضع للتغيير والنقد طالمـا أن الواقـع الاجتماعى هو محل صدقها أو كذبها ، وعلم الاجتماع فوق كل ذلك يستبعد كافة المقولات الفلسفية التى تؤمن بالمطلق أو الحتمية المطلقة [١] .

وعلى هذا الأساس أخذ باريتو باريتو قضايا علم الاجتماع الشـائعة فـى عصره فهى كلها قضايا لا تخضع لشروط المنهج المـنطقى التجريبى ، غير منطقية وغير تجريبية فى صياغتها ، وإذن فعلـم الاجـتماع عند كونت وسبنسر هو علم اجتماع غير علمـى لأنـه بضرب عذوره فى الروح اللاهوتية وهما يقدمان نظريات سوسيولوجية ارتكزت على مفاهيم يستعصى أخضاعها للمعالجة العلمية المنطقية[٢] .

وقد أصبح تصور باريتو عن المجتمع كيف يوجد فى حالة توازن ، أو يسعى إلى الوصول إلى حالة التوازن ، أحد الأسس الهامة التى يقوم عليها علم الاجتماع المعاصر ، وذلك بالطبع من خلال وساطة بعض المفكرين النظريين الأمريكيين الذين أعادوا صياغة هذه الفكرة وتأكيدها وبلورتها [٣] .

---

(١) محمد على محمد - مرجع سابق ص ٢١٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢١٢ .

(٣) محمد الجوهرى - علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٧٨ .

وبفضل هذه الفكرة استطاع " باريتو " أن يتجاوز المماثلات القديمة (التى عرفناها عن بعض رواد علم الاجتماع بين المجتمع والكائن الحى ، فتصوير المجتمع ككائن حى يعنى نوعا من المبالغة فى تأكيد حالة اعتماد الأجزاء على بعضها ، والمبالغة فى إبراز فكرة الوحدة ، ويجعل تفسير الصراعات والتغيرات التى تقع داخل المجتمع أمر على جانب كبير من الصعوبة ، إن لم يكن متعذر ، ومع أن نفس هذه الاتهامات أو بعضها أصبحت توجه اليوم إلى فكرة النسق المتوازن[1] .

فالمجتمع فى رأى " باريتو " نسق من الأجزاء المترابطة المعتمدة على بعضها البعض - كما سبقت الاشارة - بحيث أن أى تغير فى أى جزء يؤثر على بقية الاجزاء ، كما يؤثر على الكيان الكلى برمته ، والعناصر الدقيقة (الذرات) المكونة لهذا النسق هم الأفراد الذين يخضعون باستمرار لتأثير مجموعة من العوامل، أو من القوى الاجتماعية التى ليست - فى رأى باريتو - منطقية ولا رشيدة ولا مفهومة ، ولكننا نستطيع مع ذلك ملاحظتها وقياسها (من الملاحظ أن باريتو لم يعين فى نموذجه هذا مكان للنظم والظواهر الثقافية وان كان من السهل التعرف عليه)[2] .

---

(١) انظر : محمد الجوهرى - علم الاجتماع النظرية - الموضوع ، المنهج - مرجع سابق ص ٧٨ .

(٢) محمد الجوهرى - المرجع السابق ص ٧٩ .

وتــتأثر حالة النسق - حسب رأى باريتو - بالبيئة الطبيعية الــتى يوحــد فــيها ، وبالمجتمعات الأخرى ، وبتراثه التاريخى الخــاص بــه ، وبالقوى الداخلية المؤثرة فيه والتى يصفها بأنها إجتماعــية ، ولكنها فى حقيقة الأمر قوى نفسية ، ومن تلك نذكر علــى وجه الخصوص : قوة رفض التغير ، وخاصة رفض كل مــا مــن شــأنه أن يهدد التوازن داخل النسق ، ومن شأن هذا الــرفض أن يعمــل علــى إعــادة تجديد التوازن واستمراره ، ويضرب باريتو المثل على ذلك برفض الجريمة وتاريخ الثورات وأثار الحروب .

إننا نلاحظ اليوم أن علماء الاجتماع الشباب لا يريدون أن يــتوقفوا كثيرا عند حقيقة هامة ، وهى : قدرة الابنية الاجتماعية الأساســية ، علــى حيــن نجد أن تأكيدات باريتو للمصادر غير المنطقــية وغير العقلية للسلوك الانسانى قد حظيت منذ تأكيدات فرويد بأكبر شعبية وبأقوى قدرة على الاقناع[١] .

دور الصفوة :

إذ اتفقنا على أن كارل ماركس يعتبر المفكر الذى نظر إلى البروليــتاريا ، فإنه يمكن بنفس القدر إعتبار باريتو المفكر الذى نظــر للــبرجوازية ، وإذا كان كارل ماركس قد شخص أحوال البروليــتاريا ورســم لها الطريقة إلى السلطة ، وذلك من خلال (بلترة) البرجوازية ، فإننــا نجد أن باريتو قــد ناضل ليرســم

---

(١) محمد الجوهرى - علم الاجتماع - مرجع سابق ص ٧٩ .

استراتيجية تستطيع بها الصفوات البرجوازية تبادل السلطة وإمكانات القوة عازلة الجماهير عن هذه الحركة التاريخية المتفاعلة .

ويتطلب فهم نظرية الصفوة عند باريتو ضرورة التعرف على عدة قضايا أساسية ، أولها ما هى طبيعة الصفوة ، وملامح تحديدها العلمى ، ثم ما هى الاعتبارات الأساسية التى يمكن بالنظر إليها تناول قضية الصفوة ، ثم ما هى خصائص الصفوات ، ثم ما هى خطوط دورة الصفوة فى النموذج النظرى لباريتو[١] .

ويشير مصطلح الصفوة - كما سنشير إليه - إلى فئة من البشر المتفوقين فى مختلف فروع النشاط الانسانى ، وتنقسم الصفوة إلى الصفوة الحاكمة والصفوة غير الحاكمة ، ومن المهم أن ندرك أن البناء التكوينى للصفوة يتحدد بالنظر إلى فئتى الرواسب الأولى والثانية ، ويرى باريتو أن قضية الصفوة تتأثر بعاملين : الأول : يتعلق بتأثير تعاقب صفوات اليمين واليسار على حكم إيطاليا بعد التوحيد ، وتناوب هذه الصفوات على السلطة فى غياب (الجماهير ، والثانى : إيمانه بالقوة للحفاظ على وحدة المجتمع [٢] .

أن دورة الصفوة لها علاقة بطبيعة النموذج البنائى السائد ، حيث نجد أن المجتمعات التى تسودها حراك اجتماعى كامل ، نجد أن مراكز الصفوات ترتبط عادة بالقدرات أو الطاقات

---

(١) على ليله – النظرية الاجتماعية المعاصرة ، مرجع سابق ص ٧٦٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٦٤ .

المـــتفوقة للأفراد ... ، أن التجسيد الواقعى للأفكار التحليلية التى طــرحها باريـــتو ، تكشف عن أنه ليست هناك صفوات مؤهلة برواسب معينة بينما أخرى مؤهلـة برواسـب مخـتلفة ، حيث أن الرواسـب تتغير فـى المجـتمع ككـل ، غـير أن ذلـك يـتم بـبطـىء ، وببطـىء أكثر تتغير معظم فئات الرواسب فى علاقتها بالأخرى ...، وذلـــك مـــن شـــأنه أن يدفـــع إلى ظهور حقيقة جديدة تتمثل فى خضـــوع المجـــتمعات لعملية مستمرة هى دورة الصفوة ، التى يصـــعد من خلالها بعض الأفراد - الذين يشكلون صفوة أيضا - إلى مواقع الصفوة ، بينما يهبط أخرون ، وخلال هذه العملية قد تتغير راديكاليا طبيعة الصفوة[١] .

ويـــرى باريتو أنه على من أن الرواسب تتحقق عموما فى كافـــة المجتمعات والظروف ، إلا أنها لا تنتشر بين الأفراد على نحـــو مـــنظم ، كما أن توزيعها النسبى فى المجتمعات ، وخلال فـــترات الـــتاريخ ، يخضع كذلك للتغير ، ومن ثم انتهت دراسته إلـــى صياغة نظريته عن " الصفوة " والتى تشكل احدى القضايا النظرية الرئيسية فى علم الاجتماع عند باريتو [٢] .

وتـــتألف الصـــفوة من الأفراد الذين يتميزون بدرجة عالية على الأداء فى مجالاتهم المتخصصة ، وهناك فئتان أساسيتان من الصـــفوة هما : الصفوة الحاكمة التى تضم الأفراد الذين يؤدون دوراً بارزاً فى ممارسة السلطة السياسية بطريقـة مباشرة

---

(١) المرجع السابق ص ٧٧٤ .

(٢) نيقولا تيماشيف – نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٢٦٩ .

أو غـــير مباشرة ، ثم الصفوة غير الحاكمة التى تتألف من أفراد لديهـــم القـــدرة ، وليســـوا فى مراكز قوة ، ويمثل تباين انتشار الرواسب بين الصفوات أهمية خاصة بالنسبة للمسائل الاجتماعية ، يفـــوق مـــدى انتشارها بين الجماهير ، وفى ضوء مبلغ سيطره الرواسب على الطبقة الأولى أو الطبقة الثانية ، نستطيع أن نميز بيـــن نوعيـــن من الأفراد : الأول : يمثل المفكرون ، والثانى : يمـــثل المحـــافظون ، وحيـــنما يسيطر المفكرون على الصفوة الحاكمـــة ، يمـــر المجتمع بتغير سريع نسبياً ، بينما يكون التغير بطيـــئاً حيـــنما يسيطر عليه المحافظون ، ويذهب باريتو إلى أنه يوجد ميل طبيعى نحو التناوب بين النوعين فى شغل مراكز القوة السياســـية ... ، وهكـــذا تـــبدو أمامـــنـــا نظـــرية دورية للتغير الاجتماعى ، بحيث يكون للدورة وجهان أساسيان أحدهما تقدمى والآخـــر محـــافظ فالـــتاريخ كمـــا يؤكـــد باريتـــو هو مقبره الاستقراطيات "[١] .

والملاحظ أن تحليل باريتو لدورة الصفوة ، قد ترك تأثيراً كبيراً على العلماء الاجتماعيين المهتمين بدراسة طبيعية الطبقات الحاكمة ووظائفها وكذلك الأنواع الأخرى من الصفوات[٢] .

---

(١) نيقولا تيماشيف – نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٢٦٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٠ .

الملامح الرئيسية لدورة الصفوة (الدور المعقد للصفوة) :

تتسم دورة الصفوة بالتعقيد وتتسم بالملامح التالية :

(أ) أن هناك صفوتين على المستوى السياسى ، أحداهما مـــزودة برواسب القوة - رواسب استمرار التجمعات - من الفئة الثانية للرواسب ، وأنها صفوة تعكس نمط شخصية الأسود الذين تحدث عنهم ميكافيللى ، وهم عادة تقليديون ، مؤمنون حاملى قيم ، يعملون دائماً على استقرار النظام الاجتماعى[١] .

(ب) ذلك فى مقابل الثعالب - الذين حدد أوصافهم ميكافيللى أيضـــاً - وهم المزودين برواسب الترابطات ، من الفئة الأولى ، وهم يمثلون الصفوة الديناميةة فى تصور باريتو للصفوات ، وهم عـــادة مخـــادعون يمارسون امتلاكهم للسلطة والحفاظ بها على أساس من المكر والخداع ، شكيون ، رافضون للتقاليد ، مؤمنون بالعلم ، وبالاشباع الحالى والحاضر .

(جـ) أن الانـــتقال مـــن الصفوة الأولى إلى الثانية عادة ما يكون سببه ضعف روابط الصفوة ، ومن ثم إذا هى عجزت عن جـــذب أعضاء من الطبقة الدنيا لديهم رواسب قوية ، فإنها تجد نفســـها تعمـــل برواسب غير رواسبها ، ومن ثم تجد نفسها وقد تحولـــت إلـــى ممارسات الثعالب ، ومن ثم تصبح فريسة سهلة لصفوة أسود قوية برواسبها وقياداتها [٢] .

---

(١) على ليله - النظرية الاجتماعية - مرجع سابق ص ٧٨١ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٨٢ .

(د) أنـــه يرتبط بذلك ، دوره أخره ومناظره للصفوة ولكن في المجـال الاقتصـادى ، حيث المحـافظون مدخـرون ، متقشـفون يعملـــون علـــى استقرار النظام الاقتصادى ، وهم هنا يناظرون أســـود السياســـة ، ويحـــتاجهم الآخـــرون ، وذلـــك فى مقابل المضـاربون أو المقـــاولون ، الذين يستغلون مدخرات المحافظين فـــى تأسيس المشروعات واشاعة حالة من البذخ ، لكن إفلاسهم يقود إلى ضرورة تجاوزهم من قبل صفوة اقتصادية جديدة .

(هـ) إن كـــل مـــن هـــذه الصفوات لديها أيديولوجياتها أو نظـــرياتها أو مشـــتقاتها ، فالأسود : عادة ما يؤمنون بالنظريات الـــتى تركز على الحدس ، الخبرة الدينية ، الايمان العميق بذوات غير واقعية ، ولديهـــم إيمـــان بالمثل والغايات العليا التى توجه ســـلوكهم ، أمـــا الثعالب : فلديهم إيمان بالنظرية العلمية ، الشك مدخلهـــم إلى إدراك الحقيقة ، تنتفى لديهم المثل العليا التى توجه سلوكياتهم الواقعية[١] .

القضايا :

كـــان رد فعل باريتو للصراع السياسى فى عصره وتحت تأثـــير الاتجاهـــات الدارونية الاجتماعية صياغة نظرية طبيعية إستقرائية عن الصراع الاجتماعى ، ورأى أن المجتمع يقوم على مجموعتين من الرواسب أو مجموعتين من الأفكار ، ويخضـــع

(١) المرجع السابق ص ٧٨٢ .

المجـتمع لسيطرة طبقتين معينتين أى تحكمه دورة الصفوة التى تعبر عن هذه التوجهات ، ويعتمد الصراع والتغير على التوزيع النسـبى لهـذه الرواسب مؤديا إلى عملية تداول دورة الصفوة ، والـتى هـى نفسها أساس التوازن الاجتماعى ، ويمثل المجتمع نسقا متوازنا من القوى المعيارية تتبادل فيها الصفوتان مكانتيهما ، وتبعا لتوزيع تلك القوى[١] .

نظرية باريتو : رؤية نقدية :

لقـد نظر باريتو إلى المجتمع باعتباره نسقا يحقق توازنا ، وأن العناصـر الماديـة لهـذا النسق تتألف من الأفراد ، الذين يتعرضون لعدد محدود مما أطلق عليه "القوى" التى تتكون - فى المحـل الأول - من العواطف والرواسب ، هى التى تحدد وضع النسق الاجتماعى .

ويرى باريتو أن العلاقة بين الفرد والمجتمع ، هى مظهر للمشكلة العامة ، الخاصة بالعلاقة بين الجزء والكل فى أية نسق ، وتتسق وجهة النظر هذه مع الاتجاه الوظيفى .

والواقـع أن وجهة النظر هذه تنسجم مع رفض باريتو لكل صـور التفسـير السوسيولوجى القائم على عامل واحد ، والذى يختزل تفسيرات الحياة الاجتماعية إلى عوامل أو أسباب بعينها[١] .

---

(١) جراهام كينلوتش - مرجع سابق ص ١٤٢ .

(٢) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ص ٢٧٢ .

غـــير أن باريـــتو لم يقدم تعريفا للعلاقة بين علم الاجتماع والعلـــوم الاجتماعية الأخرى ، ولكنه أكد أن علم الاجتماع يجب أن يعـــتمد علـــى المنهج التجريبي المنطقى ، وهو المنهج الذى يتطلـب القـيام بملاحظـات مـنظمة ، والخـروج مـنها باسـتنتاجات منطقية ، الا أن ما اضعف هذا الاتجاه عنده ، هو ميله نحو التخلى عن الملاحظـة ذاتها ، والاكتفاء بمجموع عواطف الأخرين حول الوقـائع ، وهـذا بـدوره جعلـه يبـتعد عـن الأسـلوب الاسـتقرائى ، ويستخدم بدلاً منه أطر تصنيفية قائمة على الحدس[1] .

أما مساهمات باريتو الأساسية (والتى لم يطبقها) فتتلخص فـــى تأكيده لضرورة خضوع علم الاجتماع للمتطلبات العلمية ، وتصوره للمجتمع يحقق توازنا ديناميا ، وفيما يتعلق بهذا المفهوم الأخـير ، نجد أن القضايا التى قدمها باريتو بصدد ميل الانساق الاجتماعـــية نحـــو إســـتعادة توازنها إذا ما طرأ عليها إختلال ، بالاضـــافة إلـــى العوامل التى تسهم فى تحديد ظروف الانساق الاجتماعية ، وأهمية السلوك غير المنطقى فى الحياة الاجتماعية ، والطـــابع الدورى للتغير الاجتماعى ، الذى يتميز بوجود فترات تغـــير بطـــىء ، تتبعها تعديلات سريعة ، كل هذه القضايا يمكن اعتبارها صياغات جديدة تتسق عموما مع الظروف الواقعية[2] .

وإذا مـــا حاولـــنا أن نعتـــبر معالجة " باريتو " للعواطف والرواسب مرتبطة بالسلوك المكتسب (المتعلم) فإننا نلاحظ أن

---

(١) نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع – مرجع سابق ٢٧٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٢ .

الطـــريقة الـــتى اتبعها فى تحديد هذه القوى تنطوى على أخطـــاء واضحة ، فقد لاحظ الفيلسوف " نور ثروب " " أنه ليس هـــناك إعـــتماد على حالات سيكولوجية مباشرة يستطيع أن يفيد منها عالم النفس الاستبطانى المدرب" بل إن السمات السيكولوجية الـــتى أشار إليها باريتو كانت فى المرتبة الثانية أو الثالثة ، وقد خلعهـــا على الفرد ... بينما هى لا تمثل - فى الوقت الذى أجرى فيه باريتو ملاحظاته - إلاّ مجرد أوهام تعيش فى خياله ... ومعنى ذلك أن باريتو لم يحاول - ولو لمرة واحدة - أن يبتعد عن التأمل فى محاولته الحصول على وقائعه[١] .

أنـــه مـــن الصـــعب أن نمـــيز بين الرواسب عند باريتو والمصـــالح باعتـــبارها عوامل إقتصادية ، إذ أن الخط الفاصل بيـــنهما غـــير محدد بطريقة واضحة ، ولهذا السبب أصبح من الصعب أن تحدد درجة التأثير التى مارسها كل من هذه العوامل فـــى تحديد التوازن الاجتماعى ، بالاضافة إلى تأكيده على حقيقة أن نفس الرواسب يمكن أن يترشح بمشتقات مختلفة ، ولهذا السبب فإنـــه مـــن غير المؤكد بصورة محددة تحديد أى من الرواسب مصـــدراً لأى مـــن المشتقات ، وقد جعلت هده الحقيقة إسنادات باريتو للمشتقات لرواسب معينة موضع تساؤل ... ، وأخيراً فإن نظـــرية باريتو فيما يتعلق الصفوة عامة للغاية وناقصة ، وتحتاج إلى تصحيحات وتطويرات كثيرة[٢] .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧٣ .

(٢) على ليله – النظرية الاجتماعية ، مرجع سابق ص ٧٩٣ .

الفصل الخامس عشر

ماكس فيبر

هويته واهتمامه .

مصادر علم الاجتماع عند ماكس فيبر .

منهج البحث .

الوظائف الأساسية للتوجيه القيمى .

الفهم السببى والعملية التاريخية .

الفعل الاجتماعى والعلاقات الاجتماعية .

الفهم على مستوى المعنى والفعل الانسانى .

العلاقة السببية والمعنى .

النموذج المثالى - طبيعته وتطبيقاته .

علم الاجتماع - أسسه وتطبيقاته .

البيروقراطية والسلطة آلياتها فى الضبط والسيطرة .

نظرية ماكس فيبر - نظرة عامة .

الفصل الخامس عشر

ماكس فيبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠)

لعل أهم ما يميز نمو النظرية السوسيولوجية فى الربع الأول من القرن العشرين ، ذلك الاتجاه السيكولوجى الذى طرأ على علم الاجتماع ، والذى تطور ونما فى أقطار مختلفة ، ولا يكاد يخلو مؤلف معاصر فى علم الاجتماع سواء ما يتعلق بالنظرية أو المنهج أو الموضوع أو كان بصدد تاريخ الفكر الاجتماعى بعامة من إشارة لماكس فيبر ، فلقد تجلت عظمة أعمال فيبر فى قدرتها الفائقة على شمول كافة مسائل علم الاجتماع ، إذ من خلال إطار نظرى واضح المعالم ، وباستخدام منهج جديد متميز ثاقب الرؤية واسع البصيرة ، إستطاع ماكس فيبر أن يقدم مضموناً محدداً لعلم الاجتماع ، ذلك العلم الذى يطلع بمهمة دراسة وتحليل السلوك الانسانى لفهم مقاصده ومعرفة دوافعه وغاياته ، فضلا عن إستطلاع أسس التنظيمات الاجتماعية ووصف وتشخيص مقوماتها ، وتعيين معالم بنائها ككل[١] .

فماكس فيبر وأن أطلق عليه زايتلن " ماركس البرجوازى " استطاع أن يشيد صرح علم الاجتماع فى ضوء إعادة النظر التى أجراها للموضوعات التى طرحها كارل ماركس ، فاهتمامه بتتبع أصول الرأسمالية الحديثة ومن ثم محاولته فحص النظم الاجتماعية

---

(١) محمد على محمد - تاريخ علم الاجتماع - مرجع سابق ص ٢٥٧ .

والاقتصـــادية والثقافية فى الحضارة الغربية يعكس تأثره بمنهج مـــاركس فـــى محاولـــة لاتخاذ موقف يتعارض معه حول نفس المسائل المطروحة قيد البحث[١] .

أن مـــن يدرس علم الاجتماع عند ماكس فيبر يستطيع أن يقف على تيارات عديدة تجمعت وانصهرت فأثمرت نسقا فكريا متكاملا ، فلقد أدخل فيبر العنصر السيكولوجى ، إذ يعتقد أن علم الاجـــتماع كعلم يتعين أن يبحث عن تفسير سببى للفعل الانسانى قادراً على معرفة غاياته ومقاصده ، والتفسير السببى يحقق لعلم الاجـــتماع صفة - " العلم " التى كافح من أجلها أوجست كونت " العلم الوصفى " ، واميل دوركايم ، ولكن دراسة السلوك الانسانى يتعين عند فيبر أن تبرز بعداً آخر وهو " الفهم " الذى يقوم على الـــتعاطف مـــع الآخريـــن وسبر اغوارهم للتأكد من حقيقة هذا الســـلوك بـــدلا مـــن الاكتفاء بمظاهره الخارجية فقط ، ومن هنا بـــرزت نـــزعة جديـــدة تدعـــو إلى الاهتمام بدراسة الظواهر الاجتماعية من الداخل أيضا مثلما ندرسها من الخارج كما لو أنها أشياء [٢] .

ماكس فيبر : هويته واهتماماته :

إتســـم الاطـــار النظرى لماكس فيبر بطبيعته الشاملة ، فقد كان من الطراز الذى يتنـــاول بالتحليل فكرة بسيطـــة ، ويستنتج

---

(١) محمد على محمد - المرجع السابق ص ٢٥٧ .

(٢) محمد على محمد - المرجع السابق ص ٢٥٧ .

منها حتى أقصى استقطاباتها ، وكان يتوقف فى تحليلاته عند مستوى الخطوط العامة الشاملة ، ناظراً بنوع من الازدراء إلى التفاصيل الدقيقة التى قد تهتم بها أية دراسة واقعية ... ، ونجد من يؤكد على قدرة ماكس فيبر على صياغة أفكاره بطريقة واضحة ، وبخاصة حينما تتعلق بقضية أخلاقية ... ، أن ماكس فيبر كان يمتلك عقلية موضوعية من النادر أن نجد لها نظيراً فى العصر الحديث .

أن ماكس فيبر يعتبر بحق أكثر العلماء الاجتماعيين تأثيراً فى النصف الأول من القرن العشرين ، حيث شكلت أفكاره نقطة بدء لكثير من علماء الاجتماع المعاصرين مثل : مانهايم ، هانزسبير ، هانز جيرث ، بارسونز ، ميرتون .. وكثيرين غيرهم .

وبرغم الاطار السياسى الذى عاش فيبر فى نطاقه ، حيث ولد الاب ليبرالى يتبع الحزب الليبرالى القومى من حيث انتماؤه السياسى ، فأننا نجد لديه ميل نحو الاهتمام بالنواحى العلمية بدرجة تفوق اهتماماته السياسية(١) .

وينتمى ماكس فيبر إلى اسرة موسرة ، ودرس فى مطلع حياته القانون والاقتصاد ، أما والده فكان سياسياً نشطاً ، ظل

---

(١) على ليله – النظرية الاجتماعية المعاصرة ، مرجع سابق ص ٥٤٠ .

لعـــدة سنوات عضوا فى البرلمان الألماني .. ، عين ماكس فيبر أستاذاً للاقتصاد فى جامعة " فرايبورج " .

وقـــد اتســـمت القضايا موضع اهتمام ماكس فيبر بقدر من التـــنوع مـــن حيث كونها ذات طابع سياسى أو علمى ... ، هذا بالاضـــافة إلـــى انتماء هذه القضايا إلى نطاقات فكرية عديدة ، كفلسفة المعرفة ، والتاريخ الاقتصادى ، والتاريخ الدينى ، وعلم الاجتماع السياسى[١] .

ولقـــد تـــرك فيـــبر مؤلفـــات متعددة ، قام بترجمتها إلى الانجلـــيزية عـــدد من علماء الاجتماع أمثال تالكون بارسونز ، ورايت ميلز ، وهانزجيرت ، ومن هذه المؤلفات : علم الاجتماع الدينى ، والكتابات السياسية ، والتاريخ الاقتصادى ، والسياسات الاجتماعية والنظرية العلمية والنظرية الاقتصادية .

ويمكن تقسيم دراسات ماكس فيبر إلى قسمين : يمثل القسم الأول مجموعـــة المقـــالات النقدية التى هاجم فيها المبادىء التى ســـيطرت على المدرسة التاريخية فى علم الاقتصاد ، ولم تظهر هذه الدراسات إلا بعد وفاته ، ويمثل القسم الثانى تلك الدراسات المقارنة فى علم الاجتماع الدينى[٢] .

وقد أحدث مقال " الأخلاق البروستانتيه وروح الرأسمالية ، الذى يعد أشهر الكتابات التى أثرت فى علم الاجتماع الحديث ،

---

(١) المرجع السابق ، وانظر : نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ص ٢٧٥ .

(٢) غريب سيد أحمد – تاريخ الفكر الاجتماعى – مرجع سابق ص ٣١٣ .

والـــتى حققت تلك الشهرة خارج نطاق علم الاجتماع ، عدداً من القضايا التى تدرسها الأجيال ، جيلا بعد جيل ، وتفيد منها ، تأخذ عـــنها ، وتنـــتقد أجـــزاء مـــنها ، ومازالت رغم كل الانتقادات والـــتحفظات واقفـــة على قدمين راسختين حتى اليوم ، فالفكرة الأساسية فيها لم تجد من يدحضها حتى الآن[١] .

وتلـــك الفكـــرة الأساســـية هى ثمرة السؤال التالى : لماذا ظهـــرت الرأسمالية الحديثة فى غرب أوروبا وأمريكا الشمالية ، أى فـــى " الغـــرب " ، ولم تظهر فى أى مكان آخر من العالم ، فـــرغم إدعاء بعض النظريات - كما يقول فيبر - أن الرأسمالية تمـــثل مرحلة من مراحل التطور الاقتصادى الاجتماعى ، وأنها تحدث وفق شروط معينة (وهو هنا يعنى نظرية كارل ماركس) إلا أن الملاحظة الدقيقة لمواصفات النظام الرأسمالى الغربى تدلنا على أننا بصدد ظاهرة جديدة متميزة[٢] .

مصادر علم الاجتماع عند ماكس فيبر :

يصعب فهم الاسهام الذى قدمه ماكس فيبر ، دون الاشارة إلـــى المناخ الفكرى - وخاصة الفلسفى والعلمى منه - الذى ساد ألمانيا فى مطلع القرن العشرين ، فقد كانت النظرية الماركســـية

---

(١) محمد الجوهرى - علم الاجتماع - النظرية الموضوع - المنهج - مرجع سابق ص ٦٦ .

(٢) محمد الجوهرى - المرجع السابق ص ٦٧ .

تشكل جزءا من هذا المناخ ، فضلا عن انتعاش الفلسفة الكانطية التى أكدت بطبيعتها وجود فارق شاسع بين عالم الظواهر المادية وعالم الروح الذى يبدو أساسا فى القيم .

ولقــد بذل فيبر جهدا عظيما لكى يتغلب على التعارض القــائم بين العلم الطبيعى والعلم " الروحى " ، ولكى ينشيء نسقا سوســيولوجيا يحــتفظ بأكبر عدد ممكن من العناصر القيمّة التى يــنطوى علــيها هــذان الاتجاهــان ، ولقد سلم فيبر بأن العلوم الاجتماعية تختلف عن العلوم الطبيعية اختلافا شديدا ، ففى العلوم الطبيعية تتجه الاهتمامات الانسانية نحو الضبط ، بينما تتجه فى العلــوم الاجتماعــية نحــو التقويم ، وبهذا المعنى يصبح مفهوم الــثقافة ذاتها مفهوما قيميا ... ، وأستنادا إلى ذلك يرى فيبر أنه يتعيــن على العلوم الاجتماعية أن تدرس القيم بشرط الا تفصل عــنها المعايير والمثاليات التى تشتق منها الموجهات التى تضبط السلوك الواقعى[1] .

ولمــا كانت العمليات الثقافية تخضع دائما لتغير مستمر ، فمــن الطبيعى إذن أن يخضع موضوع العلوم الثقافية بدوره إلى التغير ، ومع ذلك نجد ماكس فيبر يصر على ضرورة انشاء علم مــنظم تعمــيمى للثقافة ، وهذا يتطلب أن يكون العلم الاجتماعى علما امبريقيا يدرس الوقائع الملموسة .

---

(١) نيقولا تيماشيف - مرجع سابق ص ٢٧٨ .

أن أعمال فيبر الأساسية كانت موجهة نحو المجتمع والثقافة اللذيـــن يعيش داخلهما ، ومن ثم كانت أعماله الأساسية مقصورة علـــى دراسات تتناول نشأة وتطور النظم السياسية والاقتصادية والقانونـــية والدينـــية فـــى العالم الغربى ، الا أن فيبر لم يقصر اهـــتماماته المتـــبادلة علـــى هـــذه الأمـــور ، بل قدم طائفة من الاستنتاجات المتعلقة بالعلاقات المتبادلة بين نشأة الرأسمالية ونمو البروتســـتانتية وطبيعـــتها محاولاً إختبار هذه الاستنتاجات على مواقف يمكن مقارنتها فى حضارات أخرى ، ومن ثم قدم بحوثاً عن الحضارات الصينية والهندوكية واليهودية (حيث تختلف فيها الانســـاق الدينـــية والفلسفية) .. ، وقد مكنته هذه الدراسات من الـــتخلى عن تشككه القديم فى إمكان ظهور علم الاجتماع العام ، لذلـــك اختـــتم حـــياته العلمـــية بكتابة مؤلفه الشهير (الاقتصاد والمجتمع) [١] .

ولقد صنف ريمون أرون أعمال فيبر على النحو التالى : [٢] .

١- دراســـات فى المناهج والنقد والفلسفة ، وهى دراسات تـــتعلق أساساً بالعلوم الاجتماعية ، وبالتاريخ ، وعلم الاجتماع ، وهـــذه الدراســـات تتميز بأنها دراسات تنتمى إلى مجال نظرية المعرفة (الابستمولوجيا) أو أنها تســـعى إلى تطوير العلاقة بين

---

(١) نيقولا تيماشيف – نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٢٧٩ .

(٢) محمد على محمد – تاريخ علم الاجتماع – مرجع سابق ص ٢٦٦ .

العلـــم والفعـــل الانسانى ، وقد احتوت هذه الدراسات مجموعة أبحاث له بعنوان : دراسة فى نظرية العلم .

٢- أعمـــال تاريخـــية وتشمل دراسة علاقات الانتاج فى الزراعة فى العالم القديم ، دراسة فى التاريخ الاقتصادى العام ، دراســة متخصصـــة تتـــناول المشكلات الاقتصادية فى ألمانيا وأوروبـــا المعاصرة ، وبخاصة دراسته للموقف الاقتصادى فى المقاطعـــات الشـــرقية بألمانـــيا ، والعلاقة بين الفلاح البولندى والطبقات الحاكمة الألمانية .

٣- دراسات فى علم الاجتماع الدينى ، وتبدأ بدراسته عن العلاقة بين الأخلاق البروتسنانتيه وروح الرأسمالية ، ثم قام فيبر بعـــد ذلـــك بدراســـات مقارنه تناولت الأديان الكبرى والعلاقات المتـــبادلة بيـــن الظـــروف الاجتماعـــية والاقتصادية من جهة ، والاتجاهات الدينية من جهة أخرى .

٤- هناك بعد ذلك الدراسة الهامة التى قدمها فيبر بعنوان : الاقتصاد والمجتمع ، وقد نشر هذا العمل الضخم بعد وفاته[١] .

منهج البحث :

أن الظـــروف التى عاشها فيبر جعلته يدرس مجموعة من المقـــالات السوسيولوجية التى اعتبرها بمثابة الوسيلة التى تمكنه من اثبات العلاقة السببية فى نطـــاق العلوم الثقافية والانسانية كما

---

(١) محمد على محمد - المرجع السابق ص ٢٦٧ .

هو الحال فى مجال العلوم الطبيعية ، وأهم هذه المقولات : فكره " النموذج المثالى " الذى يعتبر مفردات فرضية محسوسة ، يحددها الباحث لكى تكون أساس المقارنة ، وهو لا يمثل تصوراً عاماً مجرداً ، وانما يصف أسلوباً نموذجياً معيارياً ، أو بناءً عاماً توصف على أساسه الحالات الواقعية ، ويعتبر هذا النموذج مثالياً لأنه يتحقق كفكره ، وتتمثل الفائدة الأساسية من هذا النموذج فى أنه أداة لتحليل الأحداث التاريخية الملموسة والمواقف الواقعية .

وتعد مقولة الفهم ذات أهمية منهجية عند ماكس فيبر ، وخاصة إذا أدركنا أن كل فعل إنسانى لا يخلو من معنى ، وفهم هذا المعنى ضرورى لتقديره ، ويتخذ الفهم لديه شكلين أساسيين : الفهم العقلى أو السببى والفهم الانفعالى أو العاطفى الذى يقوم أساس المعنى [1] .

أن فيبركان يسعى إلى صياغة نماذج مثالية تمكنه من الوصول إلى تعميمات ، وهذه النماذج تعد ضرورية لفهم الأفعال الانسانية ، بحيث أنه إذا تم هذا الفهم على هذا النحو يمكن العلم الاجتماعى من تفسير سببى للظاهرة موضوع الدراسة .

ويرى فيبر أنه من الصعب وضع منهج عام يخدم أغراض الدراسة الاجتماعية ، ويصلح أساساً للنظرية الاجتماعية فى مختلف الميادين ، وذلك لأن العلوم الاجتماعية (الانسانية) تبرا من الدقة التى تتوفر بكل كفاية فى العلوم الطبيعية ، ويرجع ذلك إلى أنها عرضة لتدخل إردة الانسان ، وخضوعها لمشاعره

---

(١) غريب سيد أحمد - تاريخ الفكر الاجتماعى ، مرجع سابق ص ٣١٤ .

ولذلـــك فمن الأفضل أن يقتصر علم الاجتماع على الوصول إلى نظـــريات ومـــبادىء عامة مجردة مستخلصة من دراسة التطور الـــتاريخى للحقـــائق الاجتماعي ، وقد استخدم هذه الطريقة فى دراســـاته المقارنـــة للبحـــث فى نشأة وقيام التنظيمات السياسية والاقتصـــادية ، ولا شك أنه تأثر فى هذا الاتجاه بتكوينه وثقافته العلمية الأولى حيث بدأ بدراسة القانون وفلسفة التاريخ والتاريخ الاجتماعى [١] .

ويحدد ماكس فيبر حاخاصيتين لعلم هما :

١- أن العلم لا يمكن أن يصل إلى درجة الكمال .

٢- أن العلـــم ينشـــد الموضوعية ويسعى إلى التحرر من أحكام القيمة ، أما الخاصية الاولى فتعنى أن فيبر يعتقد باستمرار أن العلـــم فـــى تطـــور بحسب طبيعته الخاصة ، فهو لا يتعلق بالقضايا ذوات الغايات المطلقة ، وانما يتحرك نحو هدفه محاولاً التجديد باستمرار فى التساؤلات التى يطرحها .

وفـــيما يـــتعلق بالخاصـــية الثانية ، نلاحظ أن العلم يسعى باســـتمرار إلـــى الالتزام بالموضوعية ، وإلى صياغة نسق من القضـــايا العامة الصادقة ، ولا شك أن ذلك ممكن حينما يستطيع العـــالم أن يـــتخلى عـــن أحكامـــه القيمية والجمالية وتفضيلاته السياسية [٢] .

(١) غريب سيد أحمد – مرجع سابق ص ٣١٤ .

(٢) محمد على محمد – تاريخ علم الاجنماع – مرع سابق ص ٢٧٠.

ويؤكـد ماكس فيبر أن التفسير فى العلوم الثقافية يتم وفقاً لمستويات عديدة منها :

١- المســتوى الأول وهــو المســتوى الذى يمكن تسميته بالتفســير المــتعلق بفقه اللغة ، وهو يتكون من استيعاب المعنى الحرفى للنص ، وذلك من خلال نقد الدراسات والوثائق .. الخ ، ويعتــبر ذلــك هــو العمل التحضيرى المطلوب فى كل العلوم الانسانية والذى يصاحب أى دراسة للمصادر .

٢- المســتوى الــثانى وهــو ما يمكن أن نسميه بالتفسير الاخلاقــى أو الــتقويمى ، وهــو يــتكون من تعيين قيمة معينة لموضوع الاهتمام ، ثم تأسيس حكم ملائم أو غير ملائم بشأنه ، ويتدرج هذا النموذج للتفسير من التقويمات الشعورية أو العاطفية الخالصة عن طريق التعاطف مع أحداث وظروف حياتنا .

٣- أما المستوى الثالث فهو ما يسميه بالتفسير العقلانى ، الذى يكمن هدفه غى أنه يساعدنا على فهم العلاقات ذات المعنى من خلال السببية ، أو من خلال التفهم ، بين مختلف الظواهر ، أو بين مختلف عناصر ذات الظاهره[١] .

الوظائف الأساسية للتوجيه اللقيمى :

يحدد فيبر الوظائف الأساسية للتوجيه القيمى كالتالى :

١- أنه يساعد على تحديد الموضوعات الأساسية للبحث أو الدراســة ، أى أنه يساعدنا على عزل أو فصل موضوع محدد عن الحقيقة الواقعية التى يختلط بها .

(١) على ليله – النظرية الاجتماعية المعاصرة – مرجع سابق ص ٥٧٥ .

٢- أنــه بمجــرد إختيار الموضوع ، فإن التوجيه القيمى يساعدنا على فصل ما هو أساسى عما هو ثانوي ، أى أنه يساعد علــى تحديــد المفــرد التاريخى ، أو تفريد المشكلة (موضوع البحــث) بحيث يحددها بالنظر إلى عديد من العناصر والتفاصيل التى لا حصر لها .

٣- أنه فى حالة التوجيه القيمى فإنه يمدنا بمعقولية تأسيس علاق بين مختلف العناصر وبين المعانى التى نعنيها لها .

٤- ان التوجــيه القــيمى يحدد لنا طبيعة العلاقات السببية التى ينبغى تأسيسها ، وإلى أى مدى يكون الارجاع السببى .

٥ - أنــه بالــنظر إلى كونه ليس حكماً قيمياً ، فهو يتطلب تفكــيراً واضــحا لاختيار صدق القضايا ، فإنه يعمل على الغاء الخــبرة الشخصية والعاطفية من الممارسة العلمية ، بيد أنه ليس كافــيا لتحقيق الموضوعية أن يمتلك توجيها قيمياً حتى تتحقق ، وإنمــا عليه أن يعلن طبيعة هذا التوجيه القيمى الذى تبناه إطاراً لتناول حقائق الواقع بالفحص والدراسة ، وبمجرد توضيح نقطة البدء هذه ، فإن الموضوعية الحقة تصبح ممكنة ، إن الذاتية فى معناها السببىء ليست إلا نتيجة لإخفاء حقيقة أن لدينا موقعاً قيمياً معيناً[1] .

---

(١) على ليله – النظرية الاجتماعية – مرجع سابق ص ٥٨٧ .

الفهم السببى والعملية التاريخية :

يرى فيبر أن تفسير تتابع الأحداث يكون تفسيراً سببياً بدرجة ملائمة ، إذا سلمت الملاحظات إلى تعميم يؤكد حدوث تتابع الأحداث بنفس الطريقة ، ومثل هذا التعميم يجب أن يستند إلى أساس أو سند أحصائى كلما كان ذلك ممكناً ، أما الظواهر التى يصعب وصفها وتفسيرها إحصائيا ، فتخضع لطريقة أخرى تتمثل فى مقارنة أكبر عدد ممكن من العمليات المماثلة سواء التاريخية منها أو المعاصرة ، والتى قد تختلف عن بعضها فقط فى العامل موضوع الدراسة[1] .

ويرى ماكس فيبر أن ظهور الرأسمالية الحديثة قد خضع للتأثير الذى أحدثه ظهور الاخلاق البروستانتينية وخاصة الكالفينية ، ويخلص فيبر من ذلك إلى فرض مبدئى مؤداه : أن المناطق الالمانية المعاصرة التى تسود فيها البروتسانتية أكثر ثراء من تلك التى تنتشر فيها الكاثوليكية ، ثم يحاول بعد ذلك اختبار هذا الفرض ، فيكشف عن وجود ارتباط بين نمو الرأسمالية الحديثة والبروستانتينية .. ، ومن ثم فإن الاستدلال الذى إستند إليه ماكس فيبر يشبه طريقة التغيرات المتلازمة التى يستخدمها العلماء الاجتماعيون المحدثون . غير أن فيبر أراد أن يكون هذا التلازم شاملاً للعلاقة السببية وذلك بتطبيق طريق الاتفاق ... ، وذهب " فيبر " بعد دراسات تاريخية مستفيضة إلى أن الرأسمالية الحديثة لم تظهر كنتيجة لضرورة إقتصادية داخلية ، بل ظهرت عن طريق

---

(١) نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٢٨٠ .

الدفع الذى مارسته قوى خارجية ، هى الأخلاق الدينية المتمثلة فى البروتستانتينية وخاصة المذهب الكالفينى ، ومن ثم فإن حدًا المقارنة هى : روح الرأسمالية الحديثة ، وروح البروتستانتية . أما اصطلاح " الروح " هنا فيشير إلى نسق من غايات السلوك الانسانى[١] .

الفعل الاجتماعى - نماذجه الرئيسية[٢] .

يعتبر مفهوم الفعل الاجتماعى من المفاهيم الرئيسية التى أسهم بها ماكس فيبر فى بناء النظرية السوسيولوجية المعاصرة ، بل أنه يعتبر العنصر الأساسى الذى يشكل جوهر المشروع النظرى لماكس فيبر ، ... وقد أولى " ماكس فيبر " تصنيف الفعل أهمية كبرى حيث يرى فيبر أن علم الاجتماع هو فى النهاية ذلك العلم الذى يبحث عن الفهم التفسيرى للفعل الاجتماعى من أجل الوصول إلى التفسير السببى لمساره ونتائجه ، وتنبثق أهمية الفعل كموضوع رئيسى لعلم الاجتماع من الاعتبارات الأساسية التالية :

١- ينظر فيبر إلى علم الاجتماع كعلم شامل للفعل الاجتماعى ، ومن ثم تصبح صياغة نماذج الفعل أكثر مستويات النسق التصورى تحديداً وملائمة للمجال الاجتماعى .

---

(١) نيقولا تيماشيف - مرجع سابق ص ٢٨١ .

(٢) على ليله - المرجع السابق ص ٦٢٨ .

٢- أن اعتـبار علـم الاجتماع علما شاملا للفعل يعنى أن صفة الشمول تشتق من تضمنه فهما للمعنى الذى يخلعه الانسان علـى سـلوكه ، بحيث يصبح ذلك أساسا للفهم الشامل للمعانى الذاتية للفعل ، ومن ثم فان على الباحث أن ينجز تصنيفا للسلوك كمقدمة أساسية للفهم وإدراك بناء السلوك .

٣- يتصـل تصـنيف فيبر لنماذج الفعل تفسيره لطبيعة المـرحلة المعاصرة ، وأن الخاصية الاساسية للعالم الذى نعيش فـيه هـى العقلانية ، إذ يعبر عن العَقلانية المميزة للمجتمعات الحديثة ، باتساع مجال الفعل العقلانى بالنظر إلى الهدف ، ويميل المجتمع ككل نحو التنظيم العقلانى بالنظر إلى الهدف .

٤- يرتبط تصنيف نماذج الفعل لدى فيبر بما يشكل جوهر تفكيره الفلسفى ، أى علاقات الصلة بين العلم والسياسة من وجهة نظر ماكس فيبر(١) .

نماذج الفعل الاجتماعى :

١- **الفعل الاجتماعى بانظر إلى الهدف :** وذلك من خلال توقـع الفاعل لسلوك موضوعات البيئة الخارجية ، بحيث تلعب هذه التوقعات دورها كشروط عقلانية تقدر وتتميز بشكل عقلانى .

٢- **الفعـل العقلانى بالنظر إلى القيمة :** وهو الفعل الذى ينجز من خـلال الاعتقاد والشعور بالقيم المطلقة ذاتها ، سـواء

---

(١) على ليله – المرجع السابق ص ٦٢٨ .

فســر كفعل أخلاقى أو فعل تقشفى أو دينى حيث يتميز بالاعتقاد فى مسار محدد للسلوك فى ذاته دون إعتبار لنتائجه .

٣- **الفعــل التأثيرى** : وبخاصة العاطفى وذلك من خلال حــالات معيــنة للشــعور أو الوعى بناء على الحالة العقلية أو الانتقالية للفاعل مثل : صفعة الام لطفلهما لسوء سلوكه .

٤- **الفعل التقليدى** : حيث أن مشروعيه أى نظام يمكن أن ينسبها فاعليه له بالنظر إلى التقليد ، ومن هنا يساعد التقليد على الموافقة على الجانب المعيارى للنسق الاجتماعى (١) .

الفعل الاجتماعى والعلاقة الاجتماعية :

لقــد درس فيــبر الأشــكال الاجتماعية وردها إلى شكلين أساسيين : المجتمع العام ، والمجتمع المحلى ، غير أنه انتهى إلى مــا قرره " سيمل " من أن هذين الشكلين ليس لهما وجود واقعى قائم بذاته ، ولكنهما يعبران عن إتجاهين أو تيارين يسودان الحياة الاجتماعية وهما :

١- إتجـــاه جمـــاعى تسوده أفعـــال عاطفيـــة ومظاهر سوك لا شعوري .

٢- إتجاه اجماعى تسوده أفعال ذات غائية عاقله ومظاهر سلوك تقديرى (٢) .

ودرس فيبر موضوعات كثيرة تتناول نظم الاستبدال والنقد ونظم الاداء والملكية والسلطة ومظاهر السيادة ، وكان يسـير فى

---

(١) على ليله - النظرية الاجتماعية المعاصرة - مرجع سابق ص ٦٢٨ .

(٢) غريب سيد أحمد ، تاريخ التفكير الاجتماعى ، مرجع سابق ص ٣١٦.

هـذه الدراسة على المنهج التجريدى الذى يقابل بين عنصرى الشكل والمضمون ، ومن الموضوعات التى اهتم بها " فيبر " دراسة العلاقات ومظاهر السلوك الاجتماعى وردها إلى أربعة أنواع :

١- سلوك غائى .

٢- سلوك لا شعورى .

٣- سلوك عاطفى .

٤- سلوك تقليدى ، ودرس العلاقات التى تنشأ عن هذه المظاهر المختلفة[١] .

ويمثل مفهوم الفعل الاجتماعى جوهر النظرية السوسيولوجية عند " ماكس فيبر " إذ يجب أن يتضمن الفعل الاجتماعى معنى معينا فى اتجاهه نحو الآخرين ، ومن هنا كان مفهوم " المعنى " يحتل مكاناً بارزاً فى تحديد فيبر للعقل بأنه " كل سلوك انسانى يضفى عليه الفاعل معنى ذاتياً " .

وليس من الضرورى أن يكون كل فعل اجتماعيا ، فالافعال قد توجه إلى جمادات عديمة الحياة ، وبهذا لا تكون اجتماعية ، بينما تتوجه الاتجاهات الشخصية إلى الفعل الاجتماعى حيث تضع سلوك الآخرين فى اعتبارها ، ولكل نوع من اتصال الكائنات البشرية خاصية إجتماعية ، يكون لسلوك الفاعل معنى

---

(١) غريب سيد أحمد ، تاريخ الفكر الاجتماعى ، مرجع سابق ص ٣١٦ .

يرتـــبط بالآخريـــن ، وبهذا يستخدم مفهوم " العلاقة الاجتماعية " ليشـــير إلـــى سلوك الكثير من الفاعلين ، عندما يضع كل منهم الآخر فى حسبانه[١] .

ولقـــد بذل فيبر جهداً ممتازاً لتحديد ما يدخل ضمن مقولة الفعـــل الاجتماعى ، فهو يعتقد أنه ليس من الضرورى أن يكون كـــل سلوك له طابعه الاجتماعى ، فهناك أنماط من السوك ليست إجتماعـــية ، وهى تلك التى تنحو نحو أشياء فاقدة الحياة ، أما ما يجعـــل اجتماعـــياً فهو كونه متجهاً نحو الآخرين يحسب حساباً لسلوكهم ، ويقدر تماماً أهدافهم وقيمهم والآخرونيمكن أن يكونوا أشخاصـــاً معينين يعرفهم الفاعل أو أفراداً غير معروفين بالنسبة له ، فنحن على سبيل المثال فى عملية التبادل النقدى نقبل النقود كوســـيلة للتـــبادل أو نقبلها كأجر مقابل لما قمنا به من أعمال ، باعتبار أننا نتوقع أن عدداً كبيراً من الأفراد سوف يقبلون النقود فى عملية التبادل[٢] .

ويكـــاد يقتصر الفعل الاجتماعى على تلك الانماط السلوكية الـــتى تصـــدر مـــن الافراد تجاه بعضهم البعض أخذ أخذه فى اعتبارها المعانى التى تكمن خلفها ، ويقول فيبر " إن مرد صدام دراجتيـــن قـــد يعتبر حدثاً طبيعياً ، ولكن المحاولات التى تبذل للحيولة دون وقوع الصـــدام ، أو حتى المناقشات التى تدور بعد

---

(١) غريب سيد أحمد - مرع سابق ص ٢١٧ .

(٢) محمد على محمد - تاريخ علم الاجتماع - مرجع سابق ص٢٩٧

ذلــك ، وما يقع من أحداث كالتشاجر أو الصداقة قد تشكل أفعالا اجتماعية . ويهتم ماكس فيبر بالتفرقة بين الفعل الاجتماعى وبين انمــاط أخــرى من السلوك مثل الجمهره أو الحشد والمحاكاة أو التقلــيد ، ويضــرب مثالا لتوضح مثل هذه الفروق فيقول : إذا تســاقطت الامطار وهم بعض الافراد فى الطريق برفع مظلاتهم فــى وقت واحد ، فإن ذلك لا يمثل فعلا اجتماعيا متبادلا ومتجها نحــو بعضهم البعض ، ولكن الفعل يصبح اجتماعيا فى مثل هذه الظــروف حينما يستجيبون بطريقة جمعية للحاجة المشتركة إلى الحماية من المطر ، ومعنى ذلك أن استجابة شخص معين لتأثير جمــع أو حشد من الناس عليه لا يعد فعلا اجتماعيا ، ولعل ذلك مــا يدعونا إلى اعتبار دراسات " جوستاف لوبون " خارجه عن نطــاق الفعــل الاجــتماعى ، ولكنها تتركز على دراسة الفعل المشــروط بالحشد ، وكذلك الأمر فيما يتعلق باعمال " جبرائيل تــارد " فالمحاكاة لا تنطوى على فهم للمعانى بقدر ما تعبر عن ملاحظه عابرة لمظاهر سطحية من السوك خاليه من المعنى تماما(١) .

والحقيقة أن أفكار ماكس فيبر قد أثارت الكثير من البحوث الامبريقية ، ولو أن انتاجه العلمى ظل محدوداً وضئيلاً نسبياً ، ويرجع السبب فى ذلك إلى ظروفه الصحية غير المواتية ... ، كما أن انتاج فيبر وتفننه يرجع إلى طبيعة مزاجه الشخصى ، وطريقته فى

(١) محمد على محمد – المرع السابق ص ٢٩٧ ، ص ٢٩٨ .

العمل ، فقد انشغل باهتمامات متباعدة ومتنوعة فى طبيعتها[1] .

الفهم على مستوى المعنى والفعل الانسانى :

يــرى فيبر إلى أن " الفهم على مستوى المعنى " يمكن أن يتحقق فى صورتين : الأولى : تتمثل فى الفهم الذى يرتكز على الملاحظة المباشرة للمعنى الذاتى ، والذى ينطوى عليه فعل يأتيه شخص آخر فهذه المعانى نستطيع أن ندركها ، لأننا على وعى وادراك بالمقاصد الذاتية التى ترتبط بالأفعال المماثلة التى تصدر عنا ، أما الصورة الثانية للفهم فهى الدافع ، فنحن نستطيع أن نعيد إلى أنفسنا التبرير الذى يقدمه الفاعل لسلوكه ، أما إذا كان الفعل الصادر فعلا غير عقلى ، فإننا نستطيع من خلال المشاركه التعاطفية أو التقمص الوجدانى أن نفهم السياق العاطفى الذى تم داخله الفعل .

ولقــد حـــاول " تيودورايل " أن يحول الاتجاه الذاتى عند مـــاكس فيبر إلى اتجاه موضوعى فى علم النفس ، فذهب إلى أن عملية الفهم تتمثل فى إستدماج العوامل التى نلاحظها ، والتى قد تكـــون بعضـــها فى شكل مثير ، والآخر فى شكل إستجابة ، ثم اكتشـــاف الغايات المقبولة للسلوك التى تربط بين الاثنين ، وهذا الاجراء يمكن تطبيقه فى ملاحظاتنا لحالات فردية وفى تعميماتنا ، وفـــيما نقـــرره بشأن الانتظام الاحصائى الذى يعبر عن انتظام الوقائع المشاهدة[1] .

---

(١) محمد الجوهرى – علم الاجتماع – مرجع سابق ص ٧٠ .

(٢) نيقولا تيماشيف – مرجع سابق ص ٢٨٨ .

فإذا كشفت الاحصائية عن وجود ارتباط عال ... بين معدل الانتاج السنوى للمحاصيل ونسبة الزواج فى سنة معينة ... فإننا نستطيع أن نستخدم هذا الارتباط باعتباره أحد جوانب حقيقة انخفاض معدل إنتاج المحاصيل وما يترتب على ذلك من سوء الأحوال الاقتصادية للفلاحين ... وكذلك الحقيقة التى مؤداها أن الفرد يتكفل بالتزامات جديدة ... حينما يتزوج ... وإذا ما استدمجنا(الحقيقة الأولى) فى نطاق الاحساس بالقلق ثم استدمجنا بعد ذلك (الحقيقة الثانية) فى نطاق الخوف من (الالتزامات الجديدة) وحينما تتمكن من ملائمة الحقيقة التى مؤداها أن عدد الزيجات يقل كلما انخفض معدل انتاج المحاصيل للقاعدة التى أشرنا إليها ، إذا تمكنا من ذلك فإننا نستطيع أن نقول حينئذ أننا فهمنا الارتباط بين الظاهرتين [١] .

ويكشف ذلك عن أن ماكس فيبر ، يرى أن أعلى مستويات الفهم التى تصل إليها الظواهر الاجتماعية هى الفهم الملائم سببياً والمناسب أيضاً على مستوى المعنى ، وهذا يعنى أن فيبر يرى فى علم الاجتماع دراسة تبحث عن الأسباب ، وفى نفس الوقت دراسة للمعانى ، ذلك أن الوقائع الاجتماعية تختلف عن وقائع العلوم الطبيعية من حيث المعنى والقصد المتضمن فى الأولى ، والذى يرجع إلى طبيعتها الانسانية[٢] .

---

(١) نيقولا تيماشيف – مرجع سابق ص ٢٨٩ .

(٢) محمد على محمد – تاريخ الاجتماع المعاصره ، مرجع سابق ص ٥٨٩ .

العلاقة بين السببية والمعنى :

تشـكل مناقشـة العلاقـات السببية مبحثاً هاماً من الأفكار المنهجـية لمـاكس فيبر ، حيث يؤكد أنه إذا قلنا أن المجتمعات السـببية ، أحـد الاجراءات الهامة التى يتأكد بواستطها الصدق للنـتائج العلمـية ، فـإن ذلك يطرح ضرورة التعرض لطبيعة العلاقـات السـببية ، والـتى يؤكـد فيبر أنها كمفهوم تعرضت لغمـوض كبـير ، فأحـيانا كانـت تعـادل بالمشـروعية ، وأحـياناً بالظروف الذى يمكن تصنيفها كأسباب ، ثم نجده برغم رفضه للتحديدات السببية الأخرى يحدد وجهة نظره بقوله إذا قلنا أن (أ) تسـبب (ب) فإن ذلك يعنى أن (ب) تتبع دائماً (أ) فى عدد من الحـالات الـتى تمـت بلا خطـأ ، ومن ثم فإن ذلك قد يعتبر ضروره[١] .

وتسـتوجب محاولـة إدراك معنى السببية عند ماكس فيبر ضـرورة أن يكون ذلك بالنظر إلى بعض الاعتبارات الأساسية منها :

١- الاعتـبار الأول : يـتعلق بكـون السببية ذات طبيعة جزئـية وليست كلية أساسا ، إذ يدرك فيبر العلاقة السببية على أنهـا جزئـية واحتمالية ، ونعنى بالعلاقات الجزئية : أن هناك تصوراً جزئيا وتحليليلا للسببية ، وهو على هـذا النحو يرفض

---

(١) على ليله – النظرية الاجتماعية المعاصرة ، مرجع سابق ص ٥٨٩ .

التفسير الذي طرحته المادية التاريخية ، ومن ثم نجد أن فيبر ينكر بأصرار أن يعتبر أحد عناصر الحقيقة الواقعية أساسيا أو جوهريا ، ومن فهو الذى يحدد طبيعة الجوانب الأخرى لهذه الحقيقة بدون أن تشارك هى أو أى من عناصرها الأخرى فى صياغته والتأثير عليه ، بذلك فإن السببية الجزئية تؤكد أن جزئية معينة من الحقيقة ذات صلة سببية ممكنة أو غير ممكنة ، إيجابية أو سلبية بجزئية أخرى من الحقيقة ، ويكشف ذلك عن أن العلاقات السببية تكون جزئية ، تتميز بالاحتمالية أكثر من تميزها بالضرورة الحتمية .

ويؤكد فيبر أنه إذا حاولت تفسير واقعة تاريخية بالنظر إلى قانون عام فانك تسيء فهم التاريخ ، الذى يتكون من تتابع الأحداث المفردة ، فى إطار ذلك ، فان الطريقة الوحيدة هى طريقة التفريد التى تنسب حادثة معينة لمجموعة خاصة من الأسباب التى يسميها فيبر " مركب الأسباب "[1] .

٢- الاعتبار الثانى : يرفض ماكس فيبر الطابع الحتمى للسببية ، حيث يرفض فيبر استخدام مصطلح الضرورى ويستبدله بمصطلح كاف ، ومن ثم يرفض فيبر التطور الطبيعى والحتمى الخالص للتاريخ ، ويبقى على التفسير السببى ، ويذهب ماكس فيبر لأنه من الممكن أن يواصل الباحث تحليله السببى للتاريخ بدون الوصول إلى تفسير سببى ملزم ، ذلك لأن الواقعة

(١) على ليله - النظرية الاجتماعية المعاصرة ، مرجع سابق ص ٥٩١ .

المعقــدة ، عادة ما تكون نتيجة لعدد كبير من الظروف فى وقت واحــد .

أن التحليل السببى للتاريخ يميل إلى التمييز بين الدور الذى يؤدى أو يتجز بتأثير الظروف العامة ، وبين فاعلية شخص معين أو حادثــة معينة عارضة ، فاللأفراد والاحداث العارضة دورهم فــى التاريخ ، ولما كان اتجاه التطور الاجتماعى والانسانى غير محدد قبلا ، فانه من المهم أن تمارس التحليل السببى للماضى ، من أجل تحديد المسئوليات التى يمارسها أفراد معينون ، أو تلك المـتعلقة بأهداف معينة ... ، ويؤكد فيبر أن السببة لها طابعها الــزمانى والمكانى النسبى ، ومن ثم فهو يرفض التكرار السببى لفاعليه ذات العوامل تاريخيا وجغرافيا ، ويلغى ضمنيا أية حتمية يمكن أن تتحكم فى تشكيل مسار التفاعل الاجتماعى[1] .

٣- الاعتــبار الثالــث : يتعلق بطبيعة سببية الواقعية بين الشــمول والــتحدد ، إذ يؤكــد فيــبر أن السببية ينبغى إدراكها بأســلوبين : الأول : باعتبار أنها سببية خاصة والثانية على أنها ســببية عامــة ... ويرى ماكس فيبر أن السببية بمعناها الأصلى تحتوى على فكرتين أساسيتين : الأولى : فكرة السلوك العقلانى الــذى يعبر عن حالة من الدينامية بين ظاهرتين متباينتين كيفيا ، والثانية فكرة الاندراج تحت قاعدة عامة ، فى اطار ذلك نجد أن فكرة التعميم تميل لإلغاء فكرة الفعل أو السلوك ، وبالتــالى فكرة

(١) على ليله – المرجع السابق ص ٥٩١ .

الســبب ، وتبقى فقط فكرة القانون بمعنى المساواة الرياضية بين الظواهر موضوع الاهتمام .

الاعتــبار الــرابع : ويــتعلق بضــرورة توفر خاصيتين أساســيتين للســبب الذى نرى أنه يؤدى دوراً بارزاً فى التفاعل المتعلق بالواقعة موضع الدراسة ، **أما الخاصية الأولى** : فتتصل بالأمكانــية الموضــوعية لهــذا السبب ويعنى أن هناك دراسات مــتعددة تؤكــد الفاعلية السببية لهذا العامل أو ذاك ، بمعنى أن تحديد الأمكانية ألموضوعية مسألة تتعلق باعتراف النسق النسبى ، أمــا تحديــد **الخاصــية الثانية** وهى الكفالة : فهى مسألة تتعلق بالــتجربة الخيالية التى يجريها الباحث ، حيث يؤكد فيبر أنه من أجــل الوصــول إلــى العلاقات السببية الحقيقية ، فان علينا أن نؤســس علاقــات ســببية غير حقيقية ، فالمؤرخ ، مستنداً إلى معرفته ، وعلى المصادر المتيسرة له يتخيل التغير الممكن لمسار الــتطور إذا مــا الغــى السبب المسلم به أساساً للواقعة ، وبهذا الاســلوب يقيم دلالة وأهمية هذا السبب بالنسبة للتطور التاريخى الذى ندرك وقوعه[1] .

لقــد طرح ماكس فيبر نمطين من العلاقات السببية ، النمط الأول : **السـببية التاريخــية والثانــية** السببية السوسيولوجية ، وتحــدد السببية التاريخية الظروف الفريدة التى أدت إلى ظهور

---

(١) على ليله – المرجع السابق ص ٥٩٢ .

واقعة معينة ، أما السببية السوسيولوجية فتهدف دائما إلى تأسيس علاقة إضطرادية بين ظاهرتين[١] .

ولقــد أوضــح ماكس فيبر فى أحد كتاباته أن تعريفه لعلم الاجتماع يختلف عن تعريف " جورج زيمل " وذلك بسبب تمييزه الواضــح بين المعنى المقصود والمعنى المتحقق فعلاً ، حيث أن فيبر يريد أن ينطلق فى تحليلاته من الافعال الاجتماعية الصادرة عن الأفراد ، ولذلك يصنفه البعض أحيانا بين الاتجاهات النفسية فى علم الاجتماع[٢] .

النموذج المثالى – طبيعته وتطبيقاته :

يذهــب فيبر أن دراسة الفعل الاجتماعى تتطلب وجود أداة منهجــية أطلق عليها النموذج المثالى ... ، والنموذج المثالى هو بــناء أو تشييد عقلى يتشكل من خلال ظهور أو وضوح سمة أو أكثر أو وجهات نظر يمكن ملاحظتها فى الواقع ، والنموذج الذى يتشكل على هذا النحو يطلق عليه " مثالى " لأنه يتحقق كفكرة .

والنموذج المثالى ليس فرضــا ، أنــه أداه أو وسيلة لتحلــيل الأحداث التاريخية لتحليل الاحداث التاريخية الملموسة والمواقف ، وهذا التحليل يتطلب أن تكون المفاهيم محددة بدقــة وواضحة إلى

---

(١) على ليله – النظرية الاجتماعية المعاصرة – مرجع سابق ص ٥٩٣ .

(٢) محمد الجوهرى ، علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٧٤ .

أبعد الحدود ، لكى تستطيع مواجهة النماذج المثالية ، أى النموذج المثالى مفهوم محدد تقارن به المواقف الواقعية فى الحياة ، والافعال التى ندرسها ، ويذهب فيبر إلى أن دراسة الواقع الملموس على هذا النحو ، تمكننا من الحصول على علاقات سببية بين عناصر النموذج المثالى(١) .

ولقد قدم ماكس فيبر فى كتابه " الاقتصاد والمجتمع " أمثلة عديدة تشهد على إمكانية تطبيق النموذج المثالى ، كما أوضح الصعوبات التى تعوق تطبيق النموذج المثالى ، كما أوضح الصعوبات التى تعوق تطبيق هذه الاداة المنهجية ، وفى هذا المجال صاغ نموذجا خالصا للفعل العقلى ، وذهب إلى أن إعتبارات التحليل العلمى تمكننا من النظر إلى كل من السلوك اللاعقلى والسلوك غير العقلى باعتبارهما إنحرافين عن النموذج المثالى العقلى ، طالما أن عالم الاجتماع يستطيع دراسة العناصر اللاعقلية وغير العقلية على السلوك الانسانى الواقعى .. ، غير أن فيبر لم يكن يقصد أن السلوك الواقعى هو الذى يسود الحياة الاجتماعية عموما(١) .

والملاحظ أن فيبر قد استخدم النماذج المثالية أو الخالصة بكثرة فى كتاباته السوسيولوجية ، ومرد ذلك إلى أنه كان يسعى إلى أن يكون موضوع علم الاجتماع هو دراسة الفعل الاجتماعى الذى يتضمن معنى ذاتيا ، ولكن هذا الموضوع ما لبث أن تحول

(١) نيقولا تيماشيف – نظرية علم الاجتماع – مرجع سابق ص ٢٩٣ .
(٢) نيقولا تيماشيف ، المرجع السابق ص ٢٩٤ .

عـــند فيبر ليصبح دراسة أنماط السلوك الانسانى التى توجد فى الظروف العادية أو حتى ظروف فرضية (١) .

وســنحاول عـــرض بعض تعريفات النماذج المثالية التى قدمها فيبر :

العلاقـــة الاجتماعية - والتى تمثل عند ماكس فيبر مفهوما يرتـــبط بـــالفعل ارتباطا منطقيا . هى السلوك الذى يصدر عن مجموعـــة مـــن الفاعليـــن ، إلى المدى الذى يكون كل فعل من الأفعـــال أخـــذ فـــى إعتـــباره المعانى التى تنطوى عليها أفعال الآخريـــن **أما الجماعة المنظمة : فهى** تمثل علاقة اجتماعية من خلالها يقوم أفراد معينون - بشكل منتظم بمهمة تدعيم النظام فى الجماعة ، ويطلق على الجماعة المنظمة التى يحكمها نظام معين إصـــطلاح **الجماعة الاقليمية المنظمة** ، وحينما يخضع أعضاء الجماعة المنظمة - بحكم عضويتهم - إلى ممارسة شرعية ترتكز علـــى ضـــبط ملزم ، ويطلق على هذه الجماعة أيضا اصطلاح **الجماعـــة السياسية** ، إذا ما قام جهازها الادارى بتدعيم النظام داخـــل منطقة اقليمية معينة ، وذلك عن طريق التهديد باستخدام العقـــاب الـــبدنى وتصبح **الجماعة السياسية دولة** ، إذا ما تمكن جهازها الادارى من احتكار الاستخدام الشرعى للعقاب البدنى فى تدعيم النظام (٢) .

---

(١) نيقولا تيماشيف ، المرجع السابق ص ٢٩٤ .

(٢) نيقولا تيماشيف ، المرجع السابق ص ٢٩٥ .

ولقد حـدد ماكس فيبر النموذج المثـالى على اعتبـار أنه " وصـف متسـق منطقـيا من وجهة نظر محددة ، قادر على توضـيح العلاقة بين الوسائل والغايات بالنسبة للأفعال والاحداث وعملـية تفسير الأفكار ، بحيث يمكن الباحث من ترجمة الأفكار الجزئـية المتـناثرة ، والتفسيرات والارتباطات إلى مصطلحات عملية مفهومة[١] .

ولقد كانت النماذج المثالية عند فيبر بمثابة التعبير الواقعى فـى التحلـيل العلمـى ، فمحتوي النموذج نسبى دائماً ، ومهمة التحلـيل السوسـيولوجى أن يكتشف أى من العناصر النموذجية الموضوعية صادق تماما بحيث يمكن استخلاص السبب الحقيقى للأحـداث أو الأفعـال ، ومن ناحية أخرى ، نلاحظ أن النموذج لا يتضمن عناصر مجردة فحسب ، ولكنه يحدد النمط المعيارى .

العناصر الاساسية للنموذج المثالى[٢] :

١- النموذج المثالى هو بناء فرضى لمجموعة من العلاقات الاجتماعية (نسق الفعل الاجتماعى ، التشكيل الاجتماعى) بحيث يمكن بواسطته تفسير هذه العلاقات سببياً وفهمها .

٢- ليس النموذج وصفا لتلك النماذج أو القوانين التى نعتقد أنها توجد بشكل " متوسط " ، على الرغم من أن هذه النماذج أو القوانين يمكن التوصل إليها بالاستعانة بالنموذج .

٣- لا يقصـد بالنماذج المثالية أى مضمون أخلاقى يتعلق بالخير أو الحق .

---

(١) محمد على محمد - تاريخ علم الاجتماع - مرجع سابق ص ٢٨٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٨٥ .

٤- أن النموذج عقلى ومثالى ، بمعنى أنه أداة تصورية ومنطقية يمكن الاستعانة بها فى دراسة حالات واقعية تقارن بالخصائص التى يتضمنها النموذج ومن خلال هذه المقارنة تتحدد أفاق جديدة للبحث .

٥ - لا يقدم النموذج وصفا شاملا للظواهر الواقعية ، ولكن النموذج يؤكد وجهة نظر معينة بالذات ، ومن ثم يمكن صياغة عدد كبير من النماذج المثالية التى يختص كل منها بناحية معينة من نواحى الحياة الاجتماعية .

٦- النموذج المثالى إنتقائى ، لأنه يتكون من مفردات فرضية يحددها الباحث بنفسه لكى تكون أساسا تنهض عليه المقارنة ، هذا فضلا عن أن النماذج المثالية تقدم صورة نموذجية للواقع ، ومن هنا كانت تحتل مكانة استراتيجية فى البحث الواقعى والتفسير [١] .

٧- النموذج المثالى الذى يطالب به فيبر يتسم بأنه عام ومجرد فى الوقت ذاته ، وليس معنى ذلك أن الباحث يقوم ببنائه فى ضوء قدرته على التخيل فحسب ، ذلك أن فيبر لا يطالب بابتداع نموذج نظرى أو مثالى مطلق ، وانما هو أن النموذج لا يصف فعلا معيناً بالذات ، وانما يصف أسلوبا نموذجيا معيارياً للفعل يفترض أهدافا معينة ، وطرائق للاتجاه المعيارى ، ومعنى ذلك كله أنه يمثل بناءاً عاماً تصنف على أساسه الحالات الواقعية ،

---

(١) محمد على محمد - تاريخ علم الاجتماع - مرجع سابق ص٢٨٥ .

وهذه الحالات تصف ما يطلق عليه " فيبر " أسلوب الفعل الممكن موضوعيا[1] .

الوظائف الأساسية للنماذج المثالية :

يذهب ماكس فيبر إلى امكانية أن ينجز النموذج المثالى الوظائف الأساسية التالية : -

١- أنه عبارة عن وسيلة منهجية موجهة نحو توضيح معنى الموضوع قيد البحث ، وبعبارة أخرى ، فهو عبارة عن إجراء منهجى خالص ، يطوره الباحث إراديا وفقا لحاجات البحث ، ويمكن أن يتخلى عنه إذا لم يؤدى وظيفته أو يشبع توقعاته ، وبذلك تتحدد قيمة النماذج المثالية بالنظر إلى فعاليتها فى البحث .

٢- يكمن الدور الحقيقى للنماذج المثالية فى كونها تعتبر وسيلة توضيحية تساعد على إصدار الاحكام التى تتضمن التنسيب السببى ، وذلك يعنى أنها لا تؤدى دورها كفروض ، ولكنها تساعدنا على تأسيس الفروض ، بالاضافة إلى ذلك فإن استخدام النموذج المثالى من شأنه أن يساعدنا على تحديد ما هو فريد وأساسى بالنسبة للأحداث أو المواقف .

٣- وتتحقق الوظيفة الثالثة حينما تتمكن من صياغة عدد من النماذج المثالية المختبرة كفاءتها وصدقها الامبريقى ، ومن ثم نجدها تشكل فى مجموعها اطارا نظريا شاملا له قدرته

---

(١) محمد على محمد - تاريخ علم الاجتماع - مرجع سابق ص ٢٨٦ .

النسـبية علـى فهم الواقع المتفاعل ، وادراك علاقاته السببية ، وبذلـك تـتحول النماذج المثالية لأيه وقائع أخرى إلى كتل بناء لتأسيس الصرح النظرى الشامل الذى هدف إليه ماكس فيبر[1] .

نقـد النماذج المثالية :

وبـرغم فعالـية النماذج المثالية كوسائل منهجية تعمق من عملية المنهج المقارن ، وتلغى إلى حد كبير التميزات القيمية التى قـد يسقط فى إسارها الباحث ، فإنه قد وجهت إليها عدة انتقادات يمكن إجمالها فيما يلى :-

١- حيث يؤكد النقد الأول : أنه نظراً لأن الباحث هو الذى يؤسـس الـنماذج المثالية ، وما دامت النماذج المثالية ليست إلا تأسيسـات ابـتكارية ، فـإن الباحث قد يتجه إلى تبنى العناصر المؤسسـة لنموذجة المثالى من خلال وجهة نظر متميزة ، وذلك يعـنى أن ما قمنا بتأسيسه ما هو إلا مقياس خاص وذاتى ، ومن ثم فنتاج القياس سوف يكون خاصاً لا ينتمى إلى موضوعية العلم فى شئ[1] .

٢- أنـه إذا قلـنا أن النموذج المثالى يتشكل من أبرز ما يعتبره الباحث الخصائص أو الميول الأساسية للظاهرة موضوع الدراسة ، فان هناك أخطاء يمكن أن تصاحب هذه العملية ، نذكر منها : -

---

(١) على ليله – النظرية الاجتماعية المعاصرة ، مرجع سابق ص ٦٠١ .

(٢) على ليله – النظرية الاجتماعية المعاصرة ، مرجع سابق ص ٦٠٤ .

علـــى أنــــه يجـــب أن نميز السلطة عن غيرها من صور التأثير الاجتماعى ، فالسلطة تعنى وجود فاعل معين فى وضع اجتماعى معيـــن ، يمكنه من تنفيذ إرادته أو رغبته الخاصة دون مقاومة ، وكذلك ترتبط السلطة بالقانون ، كما أن السلطة بمثابة بعد هام فى التدرج الطبقى[1] .

ومـــن النماذج المثالية الشهيرة التى أقامها فيبر ، ذلك الذى يتضمن تميزاً واضحاً بين ثلاثة أنماط من السلطة الشرعية :

١– ســـلطة تقوم على أساس عقلى رشيد مصدره الاعتقاد فى قواعد أو معايير موضوعية وغير شخصية ، ومصدره أيضاً تفويـــض الذيـــن يقبضـــون على مقاليد السلطة الحق فى إصدار أوامرهم بهدف إتباع هذه القواعد والحفاظ عليها .

٢– الســـلطة التقلـــيدية : التى ترتكز فى قدسية التقاليد ، وشـــرعية المكانـــة الـــتى يحتلها أولئك الذين يشغلون الأوضاع الاجتماعية الممثلة للسلطة المستندة إلى التقاليد كما هو الحال فى الملكيات التى لا تزال قائمة .

٣– السلطة الروحية أو الملهمة : والتى تعتمد على الولاء المطلـــق لقدســـية معيـــنة إستثنائية مثل البطولة ، أو نموذج من نماذج الشخصيات يحتذى لما لديه من مثل وقيم ، أو بسبب نظام إبتدعه أو دعمه زعيم معين[2] .

---

(١) غريب سيد أحمد – مرجع سابق ص ٣١٨ .

(٢) نيقولا تيماشيف – نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٢٩٦ .

٣٨١

المحتويات

الموضوع	الصفحة

